الانتهازيّون لا ينتظرون إعطاء فُرصة

أ د. عقيل حسين عقيل

2024م

(عندما يجد الانتهازيّون أكتافًا وظهورًا قابلة بوضع الأقدام عليها يصعدون، وعندما يبلغون مبتغاهم يزيحون تلك الأكتاف والظُّهور بعيدة عنهم؛ لتبقى هناك مطأطئة الرّؤوس.

ونحن في عالمنا المتأخّر عندما نكتب عن الانتهازيّة أوجاعنا تزداد ألما، أمَّا كتّاب تلك الشّعوب المتقدّمة علمًا وديمقراطيَّةً فإنَّهم يكتبون عنها بلا مواجع؛ لأنَّ الانتهازيّة عندهم قابلة للإسقاط، أمَّا عندنا فالانتهازيَّة قابلة للبقاء على حِساب المبادئ والقيم)

ولذا ففي عالمنا المتأخّر علمًا وديمقراطيَّة الانتهازيّة مثل أشجار الصّنوبر تزداد طولًا ونحن وكأنَّنا لا نرها).

أ د. عقيل حسين عقيل

2024م

جدول المحتويات

المقدِّمةُ	5
الانتهازيّون	6
الانتهازيّون إنسحابيّون:	13
الانتهازيَّون أنانيّون:	21
الانتهازيّون غزاة:	29
الشّخصيَّة الانتهازيَّة في دائرة التكيّف:	37

التكيّفُ مظلّة انتهازيَّة: 44
الانتهازيَّون والتضاد الفكري: 46
العقل بين الانتهازيَّة وإعطاء الفرصة: 62
العقل نُقلةُ استخلافٍ بلا انتهازيّة: 69
نُقلةُ الخلافة بلا انتهازيَّة: 77
العقل انتهازيَّةً وخلافًا من بعد الخلافة: 85
الانتهازيَّة القبليَّة: 92
انتهازيّة الدّولة القوميَّة: 98
الانتهازيّة باسم الوطن: 103
انتهازيَّة التكنوقراط: 114
انتهازيَّة النّفعيّين: 115
انتهازيَّة التفويض: 118
لا نهوضَ والانتهازيَّة على قيد الحياة: 123
الهويَّةُ والانتهازيّة باسمها تُروّج: 138
الانتهازيّون والوهم: 152
أوهام الانتهازيَّة القاتلة: 155
عقول تملأها الانتهازيَّة وهمًا: 157
أوهام بين الانتهازيَّة والواقع: 161
أوهام مكيافيلي: 162
أوهام ديفيد هيّوم: 162
أوهام إخوان الصّفا: 163
أوهام فرعون: 166
أوهام رفض الآخر وآرائه: 167

أوهام المعتزلة: 167
أوهام في عهد الرَّشيد: 171
وهمُ الخيالِ وأساطيرهُ: 173
أوهام الدَّولة الدينيَّة وانتهازيَّتها: 179
دولة الفاتيكان: 181
دولة إسرائيل: 182
الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانية: 182
معاهدات بين وهمٍ وانتهازيَّة: 183
معاهدة سايكس بيكو: 183
معاهدة أوشي (لوزان): 184
معاهدة لوزان الثَّانية: 186
معاهدة يالطا: 189
كاسرات الانتهازيَّة قيدًا: 190
الاستنارةُ قيدٌ على الانتهازيَّة: 191
تحدّي الصّعاب قيدٌ على الانتهازيَّة: 195
الدِّرايةُ قيدٌ على الانتهازيَّة: 201
الإرادةُ قيدٌ على الانتهازيَّة: 210
المنهج دراية قيدٌ على انتهازيَّة: 227
حُسن التدبُّر قيدٌ على الانتهازيَّة: 243
التأهُّب لنيل المأمول قيدٌ على الانتهازيَّة: 249
المؤلِّفُ في سطورٍ 262
صدر للمؤلّف 264
المؤلَّفاتُ المنشورة 266

المقدّمةُ

بِسم الله نَدخلُ مُدخل صدقٍ ونَخرجُ مُخرج صدقٍ، وبه نستعين؛ لأقدِّم مؤلَّفِنا (**الانتهازيّونَ لا ينتظرون إعطاء فُرصة**) إلى القرَّاء والنقّاد الكرام لعلّهم يضيفون أو يصحِّحون، أو يلتفتون إلى منسأتهم الفكريّة قبل أن تأكلها دابة الأرض وتبقى ظهورهم منحنية؛ ذلك لأنَّه ليس من دابة على الأرض تأكل المنسأة الفكريّة إلَّا تلك الدّابة الانتهازيَّة.

ومع أنَّ جُل الكتَّاب والمتحدِّثين وحتّى اللغويين يقرّون بأنَّه لا انتهازيَّة إلَّا لفرصةٍ تُتاح؛ فإنَّنا لا نُقرَّ معهم هذا المفهوم؛ لأنَّ الفرصة لا تزيد عن كونها فُسحة (فترة من الزّمن مع إعطاء إذن يسمح بالاستثمار، أو الانتشار) فينبغي أن تستثمر أو أنْ يتم الانتشار عندما تتاح وإلَّا ستضيع؛ ذلك لأنَّ الفرصة تعطى عن إرادة وطيب خاطر، وتؤخذ عن رغبة، وما يعطى عن إرادةٍ واعية يؤخذ ولا انتهازيَّة فيه.

ولذا فالانتهازيَّة لا تَحدث إلَّا بتجاوز تلك الفُسحة التي أعطيت ولم يتمّ التوقّف عند حدودها؛ ومن هنا يأتي الاغتنام والاستغلال بغير حقٍّ؛ فعلى سبيل المثال: عندما يُسمح لك بالتمدّد فقط لمساحة كيلو مترٍ واحدٍ وبكل حريَّة فهذه فُرصة، ولكن عندما لا يسمح لك إلَّا بالتمدّد لكيلو متر واحد ويجدونك متمدّدًا خمسة كيلو مترات فهنا تكمن الانتهازيَّة، أمَّا بخصوص ذلك الكيلو متر الذي مُنحت لك الفرصة لتتمدَّد فيه فلا انتهازيَّة لك فيه أبدًا. ولهذا دائمًا التمدّد على حساب حقوق الغير مظلمة في مواجهة الأعراف والأديان والدّساتير التي تستمد القوانين المنظمة منها.

وعليه: جاء عنوان مؤلَّفنا (الانتهازيون لا ينتظرون إعطاء فرصة) ليبيّن أنَّ الانتهازيّة لا تُعطى الفرص لها، بل الانتهازيَّة لا تتمُّ إلَّا بعد انقضاء زمن الفرص أو مساحتها أو الإذن الذي منح لمن منح له فيما هو محدَّدٌ أو مقنّنٌ.

ولذا فلا يليق بنا أن نقول: (إنَّ الفرصةَ تُنتهزُ)، بل نقول: (إنَّ الفرصة تستثمرُ)؛ ومن ثمَّ فالفرق كبير بين: الانتهاز والاستثمار، فالانتهاز فعل لا يأتي إلَّا من بعد انقضاء فعل مسموح به، وهو الفعل الذي لا يكون من بعده شيء يسمح به، مما يجعل صفة أيّ تمدّد من بعده لا صفة له إلَّا الانتهازيَّة. أمَّا الاستثمار فلا يكون إلَّا في دائرة الممكن المسموح الاستثمار فيه والاستثمار به؛ وهنا تكمن الفرص فتعطى وتؤخذ.

إذن هناك علاقة مفاهيميَّة متداخلة تستوجب التوضيح بين (الاستثمار والاستغلال)؛ ذلك أنَّ الاستثمار لرأس المال وفقًا لقاعدة أخذ الحقوق وممارستها، أمَّا الاستغلال فلا يكون إلَّا لجهد الغير أو ممتلكاته وثرواتهم، وهنا تعشعش الانتهازيَّة وجذورها تضرب.

وعليه: فإنَّ الفرصة دون زمن محدّدٍ لها فلا وجود لها، وكذلك فهي دون إذن لا تسمى فرصة، ولهذا فالفرصة لا تضيع، بل الذي يضيع وقتها المحدد؛ ومن ثمَّ فإذا انقضى وقتها فلا فرصة.

أ د. عقيل حسين عقيل

2024م

الانتهازيّون

الانتهازيون شخوص يمشون على رؤوس أصابعهم حتى يتمكّنوا من دخول الأماكن الضيّقة، ومتى ما وطئت أقدامهم تلك الأماكن تربّعوا فيها، ثمّ تمدّدوا على حساب الغير؛ ولهذا فهمُ رؤوس المؤَارَبَة والمخَاتَلَة والمخَادَعَة، ولا يتردّدون في استخدام ما يستطيعون استخدامه من أساليب متلوِّنة دون الالتفات إلى تلك القيم وتلك المبادئ التي بها تعيّر الأقوال والأفعال والأعمال وتقوّم السُّلوكيَّات.

إنَّهم شخوص مثل ذلك الفطر الأسود الذي لا بدَّ أن ينشط متى ما استشعر بضعف المناعة؛ فيبدأ نشاطه الضَّار والمميت "ويسمي الفطر الأسود بالمرض الانتهازي؛ لأنَّه يعيش في جسم الإنسان، وينتهز فرصة قلة المناعة، ويبدأ نشاطه، ويهاجم الجسم، ويسبب مرضًا خطيرًا ومميتًا"[1]. وهكذا هم الانتهازيون في رواية للدكتور عبد الغفار مكاوي الذي قال: "إنَّ الانتهازيين لا يدخلون الجنة"[2].

الانتهازيون من طبائعهم لا يلتفتون إلى الحقائق ولا يتوقّفون عندها، بل يلتفتون إلى المنتصر حتى وإن كان على باطلٍ، ومع أنَّهم ثقال على ظهور النَّاس؛ فإنَّهم خفاف على أمواج الانتهازية؛ ولهذا فلا يتردَّدون ركوب أمواجها ولا تنشرح صدورهم إلَّا معها.

وبالنّسبة إليهم لا فرق بين شكرٍ وذمٍّ، أي لا يفرحون بشكرٍ ولا يغضبون من ذم؛ ولهذا فهم يصعدون على أكتاف الغير حتى بلوغ مآربهم. وهكذا بصعودهم المذموم لن

---

[1] محمود محمد علي، الفطر الأسود الانتهازي بين مطرقة كورونا وسندان الإعاقة، مكتبة نور، القاهرة: 2020م، ص 27.

[2] عبد الغفار مكاوي، الانتهازيون لا يدخلون الجنة، هنداوي، القاهرة: 1998م ص 68.

ينظرون إلى من صعدوا على أكتافهم إلَّا وهم في دونيَّة وسُفليَّة.

وعليه: فإنَّ مفهوم الانتهازيَّة في اللغة العربيَّة يدلُّ في المجال السِّياسي على ممارسة تكييف النشاطات السِّياسيَّة والاقتصاديَّة من أجل غاية شخصيَّة دون الأخذ بعين الاعتبار المبادئ الرّاسخة والقيم الرّفيعة؛ فيتم اسْتِغْلالُ جَمِيعِ الوَسائِلِ لِتَحْقِيقِ تلك المآرب الشخصانيَّة على حِسابِ الْمَصْلَحَةِ العامَّةِ للشَّعب أو الوطن.

ومن هنا وجب التمييز بين مفهوم الانتهازيَّة ومفهوم الفرصة؛ فمفهوم الانتهازيَّة مفهوم قرصني كما هو حال السَطْو على حقوق المِلْكيّة الفِكريّة أو الأدبيّة أو الفنيّة والسّطو على وسائل المواصلات بحرًا أو برًا أو برًّا، ويتضح بالتمام عندما يتم انتهاز المبادرات التي عندما تُعرض يتم استغلالها من قِبل البعض في غير أوجهها الصَّائبة.

أمَّا الفرصة فتُغتنم وتستثمر ويتم الفوز بها دون أن يكون ذلك الفوز على حِساب الغير؛ ولهذا فالانتهازيَّة تختبئ في الأنفس ولا يتم إظهارها حتى يتم الدنو مما ينفع الأنا بغاية الانتهاز والاستغلال وليس بغاية اغتنام الفرصة والاستثمار الذي ينمو من بعد رأس المال.

ويحضرني في هذا الشأن الحكمة التي قالها (جورج دانتون) بعد إسقاطه ورفاقه الملكيّة في فرنسا 1789م فيقول دانتون: "الثَّورة يخطط لها المفكّرون، ويقوم بها الشّجعان، ويجني ثمارها الانتهازيون"[3]، وقبيل إعدامه بعد الانقلاب عليه مِن قِبلِ رفاقه عام 1794م قال: (إنَّ الثَّورة تأكل

[3] أحمد عصام الدين: عن الثورة الفرنسية، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1971م ص 173.

أبناءها)، وأُعدم بأمر: (أوبسير) وهو أحد أقرب الرِّفاق المقربين منه، فقال دانتون لرفيقه الذي كان وراء إعدامه، وهو أوبسير: (سوف يأتي عليك الدّور)، وفعلًا جاء الدّور على أوبسير وأعدم بعده بعد بأربعة أشهر فقط[4].

ـ وهكذا تشابهت أحوال الثَّورة المصريَّة عام 1952م، التي انقلبت على الملكيّة وعيّنت رأس الثَّورة اللواء محمَّد نجيب رأسًا موجّها للدّولة؛ غير أنَّ صراعًا على السُّلطة نشأ بينه وجمال عبد النَّاصر إلى أن حُسم الأمر لصالح الرَّئيس جمال عبد النَّاصر، الذي جعل رفيقه رأس الثَّورة اللواء محمَّد نجيب تحت الإقامة الجبرية في قصر زينب الوكيل حرم مصطفى النحَّاس بالقاهرة حتى وفاته. وتولى الرَّئيس جمال عبد الناصر حكم مصر من 1954م حتى وفاته عام 1970م؛ وكان تولّيه هذا تحت عنوان: (شرعيَّة الثَّورة)، التي أسقطت الدّولة المدنيّة والعمل بدستور 1923م[5].

ـ وهكذا كانت الانقلابات في إثيوبيا على يد مجموعة من الضبَّاط، وعلى رأسهم (منغيستو هيلا ميريام) الذي انقلب على الحكم مع مجموعة من الضبَّاط واستولى على السُّلطة، ثم سرعان ما تخلّص من 40 ضابطًا كانوا على علاقة به، ثم من بعدهم أعدم رفيقه المقرَّب (أتنافو أباته) على حين غرّة 1977م؛ خوفًا من أن يفكّر يومًا بعمليَّة انقلابيَّة، ومع ذلك تمَّ الانقلاب على (منغيستو) كما قلنا بنفس المنهج والوسيلة؛ فقتل

[4] جلال السيد، الثورة الفرنسية والفكر العربي، القاهرة: مجلة الهلال المصرية، عدد سبتمبر 1989م

[5] فتحي رضوان، أسرار ثورة 23 يوليو 1952م، القاهرة: (مجلة روز اليوسف)، يوليو 1975.

18 ضابطًا من الضّباط الذين ناصروه، أمَّا هو فقد فرَّ لاجئًا إلى (زمبابوي) وكأنَّه لم يكن شيئًا مذكورًا[6].

ومن هنا فإنَّ أحوال الانقلابات العسكريَّة (المنهج واحدٌ وإن اختلفت الأساليب) فما جرى من انقلابات واقتتالات من أجل الاستلاء على السُّلطة في العراق، وسوريا، لا يختلف عمَّا جرى في ليبيا، واليمن، وفي معظم دول أمريكا الجنوبيّة وأفريقيَّة، وكلّها أوراق انتهازيَّة وبها لُعب وصفحاتها في تلك الأوطان طويت؛ ولذا فلن يعود الوطنُ كما يراه البعض صنمًا مثل ذلك الصَّنمُ في العصر الجاهلي، الذي كان يتحدّثُ باسمه كاهنٌ لعُبَّاده: (كون الصَّنم لا ينطق)، فكان الكاهن ُكلَّما رغب مطلبًا تحدَّث لعبَّاده باسم الصَّنم، وفي كلِّ مرَّةٍ يقول الكاهُنُ: إنَّ الصَّنم يطلب كذا وكذا، فيلبي العُبَّاد مطلبه؛ بغاية نيلهم رضا الإله (الصَّنم)، وهنا بالطّبع لن يعود المطلوب على الصَّنم في شيء، بل يعود على الكاهن، ويظل العبَّاد ينتظرون رضا المعبود من دون الله حتى يبلغهم الكاهن برضاه، أو يبلغهم بمزيدٍ من المطالب (كلّ شيء يتمّ وفقًا للموقف الانتهازي للكاهن).

هكذا بعض السَّاسة الانتهازيّون في أوطانهم يتحدَّثون، ويطلبون من الشَّعب تقديم المزيد من التضحيات؛ من أجل الوطن، وهنا إن لم يكن حال الوطن مِلكٌ لجميع مواطنيه، فسيكون حاله كحال ذلك الصَّنم؛ فكلاهما لا ينطق: (الصَّنمُ، والوطنُ)؛ ما يجعل الفارق منعدمًا بين النَّاطق باسم الصَّنم، والنَّاطق باسم الوطن.

ولهذا فعندما يطلب السَّاسة الانتهازيّون من المواطنين أن يُضحَّوا، ويقدِّموا المزيد من التضحيات؛ من أجل الوطن،

---

[6] الرأي، منغيستو هيلا ميريام، 29- 5- 2008م

فالتضحية هنا في حقيقة الأمر لا تزيد عن كونها تضحية من أجل صنمٍ.

وهكذا بالتمام عندما يقول رئيس الحزب في الأنظمة غير الدِّيمقراطيَّة (أيِّ حزبٍ) لأعضاء حزبه: عليكم أن تقدِّموا المزيد من التضحيات من أجل الحزب فهو في حقيقة أمره يريدهم أنْ يضحوا من أجله، وأجل بقائه كاهنا لصنمٍ لا ينطق (الحزب).

ـ لا شكَّ أن خيار الإجابة هنا أصبح بيِّنًا، ولكن عندما يكون السُّؤال:

أيَّهما أولى: التضحية من أجل الصَّنم؟ أم التضحية من أجل الكاهن؟

إذا قلت: لا إجابة؛ فأنت قد أجبت، وإن قلت إجابة فستجد نفسك بين فكي كاهن الوطن وكتائبه ذات الأنياب، وحينها ليس لك بدٌّ إلَّا الاعتراف بأنَّك لا تزيد عن كونك عاملًا في مزرعة الكاهن، الذي له حريَّة التصرُّف في مزرعته بيعًا، واستغلالًا، أو أن يتركها أرضًا بورًا، وكلٌّ هذا؛ كي لا تحلم بأنَّك مواطنٌ حرٌّ في وطنك، وإن صدَّقت نفسك في غير ذلك فستكتشف يومًا أنَّك أوَّل من كَذَبَ على نفسهِ؛ ولهذا فالكاهن الذي يُنصِّب نفسه كاهنًا على الوطن لن يكون الوطن في زمانه إلَّا صنمًا، ومن ثمَّ فلن تجد التضحيات مكانًا لها لتحلَّ فيه[7].

ومن مصائب الانتهازيين أنَّهم قادرون على تقديم أنفسهم بأنَّهم يُفقهون ويُفتون في كلِّ شيء، ومع ذلك فليس للانتهازي من غريمٍ إلَّا انتهازي آخر؛ كونه مثله يقدر على المشي

[7] عقيل حسين عقيل، أوهام الأنا (اللاهويَّة) المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة 2022م، 19 – 94.

الطّويل على أصابعه حتى يجد له موطأ قدم من بعده يستطيع أن يتربَّع ويمتد على حِساب الآخرين.

ومن الملاحظ أنَّ الانتهازيين ينشطون كلما تأزَّمت الظّروف وتعقّدت، شريطة أنْ لا يكونوا من أولئك الذين يدفعون الثّمن، إنَّهم النفعيّون الذين يجنون المكاسب قبل الحرث وقبل الزّرع وقبل أن تُجنى الثِّمار؛ ولذا فالشّخصيَّة الانتهازيَّة تقدّم المنفعة الفرديّة على حساب منفعة الآخرين؛ فعلى سبيل المثال: القرار المفاجئ الذي أعلنته رئيسة الوزراء البريطانيَّة تيريزا ماي بالدّعوة إلى انتخابات عامّة مبكرة كان نموذجًا صارخًا في ممارسة الانتهازيَّة السّياسيَّة؛ ذلك أن ماي ظلت تكرّر على مدى أشهر أنَّها ترفض إجراء انتخابات مبكرة، وقالت إنَّه لن تكون هناك انتخابات قبل الموعد المقرر في عام 2020. لكنَّها بعد أن تمعنت في وضع خصومها خصوصًا في حزب العمال المعارض، وقرأت اللحظة جيدًا، ورأت أن استطلاعات الرّأي العام تعطيها تقدمًا بفارق 21 نقطة مئويّة عن زعيم حزب العمال جيرمي كوربين، قرّرت وبضربة انتهازية مباغتة، الدّعوة إلى انتخابات مبكرة[8]. ومع ذلك فإنَّ الانتهازيّة في الدّول المتقدّمة علميًّا وديمقراطيًّا من الصّعب أن تسكت عنها الشعوب ولو صغرت؛ فقررت تيريزا ماي الاستقالة وترك المجال مفتوحًا لرئيس وزراء منتخب من بعدها؛ هكذا هي الأحوال تختلف من شعب إلى شعبٍ، ومن بيئة إلى أخرى؛ ففي عالمنا المتأخّر علمًا وديمقراطيَّة الانتهازيّة مثل أشجار الصّنوبر تزداد طولًا ونحن وكأنَّنا لا نرى أشجار الصنوبر.

[8] الشرق الأوسط صحيفة العرب الأولى، الكاتب عثمان مرغني، درس في الانتهازية السياسية
الأربعاء - 23 رَجب 1438 هـ - 19 أبريل 2017م .

نحن عندما نكتب عن الانتهازيّة في عالمنا المتأخّر تزداد أوجاعنا الما، أمَّا كتّاب تلك الشّعوب المتقدّمة علمًا وديمقراطيَّةً فيكتبون بلا أوجاع؛ لأنَّ الانتهازيّة عندهم قابلة للإسقاط أمَّا عندنا فالانتهازيَّة قابلة للنمو.

فالانتهازي مع أنَّه يحب رفع الشّعارات كما يحب التغني بها؛ فإنَّه لا يتمسّك بالمبادئ والقيم إلَّا بما يروج به لانتهازيته، وإذا تم انتقاده من أحدٍ يقول: "إنَّ التَّاريخ سيثبت أنَّني على حقٍّ"[9]، ومن هنا يستطيع الانتهازي أن يستغل سداجة العامَّة؛ ولهذا لا تسعى الشّخصيَّة الانتهازيَّة إلَّا لمزيدٍ من الأمجاد على ظهور الغير.

وعليه: فالانتهازيَّة لا تُعطى الفرص إليها، أي: (لا أحد يعطي فرصة لغيره لينتهزه بها ويستغلّه)، بل بعض من الذين تُعطى الفرص إليهم لإظهار ما عندهم مِن حيويَّة موجبة، يتربّصون بمن أعطاهم الفرص وهم مختبئون خلفها؛ فيلتفتون إلى ما لم تعط الفرص بشأنه؛ ومن هنا تولد الانتهازيَّة والخيانة، وينشط العملاء، وتُشترى الذّمم، وتنكسر منظومة القيم، ويعمّ الفساد، ويشيَّخ من لا علاقة له بالمشيخة، ويكثر قطَّاع الطُّرق، وتكثر المليشيات، وتكثر الحاجة وتقل مشبعاتها، وتزداد الأمراض، وتصبح الوشايات في الأقارب مثلما هي في الأباعد، فتنعدم الثّقة، ويفارق النّوم عقول النَّاس.

الانتهازيّون إنسحابيّون:

الانتهازيَّون ذوي شخصيات إنسحابيَّة؛ كونهم لا يتمسّكون بالقيم الحميدة والفضائل الخيّرة والمبادئ الرّفيعة،

---

[9] *Playboy* magazine, February 1973 issue. Quoted in *the cynic's lexicon: a dictionary of amoral advice* by Jonathon Green (Routledge 1984), p. 77.

فهم مهما تشرّبوا من قيم ومبادئ في بدايات أعمارهم قادرون على التخلي عنها والانسحاب في مقابل المنفعة المؤقّتة؛ ولهذا الشَّخصيَّة الإنسحابيَّة هي تلك التي لم تعد متمسّكة بكل القيم التي تَبني الشَّخصيَّة الذَّاتيَّة؛ فهي شخصيَّة وإنْ التزمت بممارسة حقوقها قد لا تؤدِّي واجباتها، ولا تحمل مسئوليَّاتها كما تحملها الشّخصيَّة الذَّاتيَّة، أو الشَّخصيّة المتطلّعة، أو الموضوعيَّة.

ولذا فالشَّخصيَّة الإنسحابيَّة شخصيَّة وإن تقدّمت انتهازيَّةً فهي المتخلّية عن المبادئ التي لا ينبغي التخلّي عنها ذاتيًّا أو موضوعيًّا.

ومع أنَّ الإنسان اجتماعي بطبعه كما يقولون، وعلى وجه الخصوص كما قالها العلامة ابن خلدون: "الإنسان كائن اجتماعي بطبعه مدني بفطرته؛ يألف ويؤلف، ويؤثّر ويتأثّر، يحب الاجتماع والاختلاط والأنس، ويكره العزلة والانفراد والوحشة، لا يستطيع أن يعيش بمفرده"[10]؛ إنَّها الحقيقة الموضوعيَّة؛ إذ لا امكانيَّة للإنسان أن يعيش وحيدًا، ومهما توافرت له سبل العيش؛ ومن ثمَّ فهذه المعطية تعد من المكوّنات الأساسيَّة للشَّخصيَّة الذَّاتيَّة، وهذا لا يعني أن يأتي يوم لا تحيد فيه الشَّخصيَّة عن ذاتها، ومع ذلك فحيادها عن ذاتها لا يلغي أنَّها اجتماعيَّة الطَّبع والتطبُّع، وفي الوقت ذاته قد يصفها بالمنطقيَّة عندما تتطلّع إلى ما يجب، وقد يصفها بالإنسحابيَّة؛ نتيجة لسلوكها السَّالب تجاه القضايا والمواقف والمواضيع التي ينبغي أن يكون لها دورٌ متفاعلٌ تجاهها.

فالذَّات بوصفها مكوّنًا قيميًّا ومركزًا لاندماج المشاعر والعواطف على المستوى الاجتماعي، تشكِّل رقيبًا على الأنا

[10] عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة.

وأطماعها الانتهازيَّة، وتكوّن قاعدة عريضة لأفرادها وجماعاتها المتطلِّعين لما هو أفضل؛ ولهذا توقّعات الذَّات من أفرادها وجماعاتها هي دائمًا أن يكونوا مثالًا اجتماعيًّا يصبو لما هو أفضل، ولكنَّ هذا التوقّع أو هذا الافتراض لن يتحقّق دائمًا، بل في بعض الأحيان والظُّروف يتحقّق ما هو أدنى، أو أقلّ من المتوقَّع، وعندما يسلك الفرد سلوكًا أدنى أو أقلّ مما ينبغي، أو أن يتخلَّى انتهازيَّةً عن أداء المهام والمواقف، أو ينسحب من ميادين أدائها، في هذه الحالة يوصف بالإنسحابي أو الانتهازي الذي استغل الوهن والضعف لسيادة الدّولة وسيطرتها قيمًا على أفرادها وجماعاتها، أي إنَّه المنسحب ساعة الضّعف والوهن؛ حيث لا رقيب ولا ضابط للسُّلوك الجمعي؛ إذ أصبح سلوكه وأفعاله في حالة توصف بأنَّها: (ذاتيَّة تميل إلى الأنانيَّة).

والميل هنا: "قوَّة داخليَّة تحرِّك الكائن الحي نحو أهداف معيّنة"[11]، إنَّه تعريف عام يحتوي على ميل الكائن العاقل، وميل الكائن غير العاقل؛ وذلك بشموليَّته لكلِّ كائن حي، وهذا لا يعنينا في شيء إذا لم يكن المقصود به الكائن البشري الذي لا يمكن أن يميل إلى أيِّ جهة أو موقف إلَّا بعد اختيار وتبيّن لما هو أحسن، أو أجود، أو أفضل، وأحيانًا عندما تنقص المعرفة يكون الميل إلى الأقل، والميل فيه مغالبة طرف على آخر، أو مغالبة موضوع على موضوع، وتُتّخذ قراراته بإرادة، وتنفَّذ عن قصد؛ ولهذا ميل الكائن العاقل يختلف عن ميل الكائن غير العاقل الذي لا يتمكَّن من اتخاذ القرار عن وعي، ويسعى إلى تنفيذه بإرادة وفقًا لغاياته وما يأمُل.

وعليه: فالشَّخصيَّة الوطنيَّة دائمًا تأمل من الأفراد الالتزام بالأوامر والنّواهي الوطنيَّة، وتأمل من الأفراد أن يكونوا على

[11] ـ المصدر السابق. المجلد الأول، ص 460.

حالة من التطلُّع والحرص على التمسّك بذات المجتمع التي تميّزهم عن غيرهم وتحافظ على سيادتهم وهويَّتهم الوطنيَّة، وفي الوقت ذاته لا تود لهم التغيُّر الذي من شأنه أن ينهي خصوصيَّاتهم العقائديَّة، والثَّقافية، والقيميَّة، ولا الانسحاب من ميادين إثبات الهويَّة وترسيخ السِّيادة الوطنيَّة؛ ذلك إنَّها الشَّخصيَّة الوطنيَّة التي لا تقبل التخلّي عن الذَّات، ولا يُسمح لأحدٍ من أفراد الوطن التفريط فيها، ومن يسلك أو يفعل غير ذلك متخليًا عن مبادئه وقيمه الخيّرة توصف شخصيَّته بأنَّها شخصيَّة إنسحابيَّة.

ولذا فالشَّخصيَّة عندما تراجع أوضاعها تجد نفسها أمام أمرين (بين ما يقوّي عزيمتها، وما يحبطها)؛ ولذا فهي عندما تصحو من غفلتها تتطلّع، وعندما تغوص في غفلتها تنطوي وتتراجع إلى ما هو أدنى من المستوى الذَّاتي وهو المستوى الإنسحابي الذي يعد أرضيَّة مناسبة للانتهازيَّة وممارسة حيويَّتها التي لا تكون إلَّا على حساب المبادئ الحميدة والقيم الخيّرة.

وللتمييز بين الشَّخصيَّة الإنسحابيَّة والشَّخصيَّة المتطلِّعة نقول: الإنسحابيَّة تميل إلى الاتجاهات ذات المردود السَّالب، والمتطلِّعة تميل إلى الاتجاهات ذات المردود الموجب، وهذا لا يعني: أنَّ كلّ انسحاب هو ذو مردود سالب، ولا كلّ تطلّع هو ذو مردود موجب، فعندما تنسحب الشَّخصيَّة من الإقدام على الأفعال المؤذية والمؤلمة، فإنَّ ذلك الانسحاب يعدُّ انسحابًا موجبًا، وعندما تتطلَّع انتهازيَّةً إلى ما هو مؤلم وضار فإنَّ تطلّعها هذا يعدُّ تطلُّعًا سالبًا، وتوصف هذه الشَّخصيَّة بالشَّخصيَّة السَّالبة (الانسحابيَّة)؛ إذ انسحابها من ميادين العمل الموجب، وميلها إلى ميادين الانتهازيَّة ذات الأعمال والأفعال السَّالبة.

وتُعدُّ (الشَّخصيَّة الانسحابيَّة) ذات اتجاهات قابلة للانحراف السُّلوكي؛ فالشَّخصيَّة التي ترتكب أو تسلك الأفعال الانتهازيَّة، أو غير المفضَّلة اجتماعيًّا، ثمَّ تكفِّر عن ذاتها، وتعود مرَّة ثانية وثالثة، وقد تندم بين الحين والحين، ثمَّ تعود إلى ما فعلت وهكذا، توصف هذه الشَّخصيَّة بالمتردِّدة والمتبدِّلة انتهازيَّةً؛ وذلك لمغالبتها القيم المتبدِّلة على القيم المفضَّلة، وعندما يصل الحال بالشَّخصيَّة إلى أن تقطع كلّ علاقتها مع كلِّ موجب، ومع كلِّ ما بني على القيم الضميريَّة، فإنَّها لن تتوقَّف عن انسحابها إلى أن تصل إلى حالة الانطباع بالخصائص الأنانيَّة والأفعال الشَّخصانيَّة (أنا ومن بعدي الطّوفان).

فعندما يحدث الانحلال من العلائق القيميَّة الاجتماعيَّة الضَّابطة للسُّلوك، سواء أكان هذا الانحلال على مستوى الأسرة، أم الجماعة، أم المجتمع بكامله، تحدث الانحرافات والميول التي تُغيّر سلوكيَّات الأفراد وأفعالهم من مكانة اجتماعيَّة إلى مكانة أخرى، ومن موقفٍ إلى موقفٍ، مع اختلاف درجة تأثيرها من شخصٍ إلى شخصٍ آخر؛ إذ نلاحظ الانحلال النِّسبي في كفَّة الميل من الذَّاتيَّة إلى الأنانيَّة؛ ولذا قد نجد المتردِّد، والمصمّم على الاختراق، والمقدِمَ على المخاطرة، والمتطرّف، والنَّفعي الانتهازي المحافظ على السَّلامة الشَّخصيَّة، ومسلوب الإرادة، واللامبالي، وكلّ هذه الصِّفات تحتويها صفة الشَّخصيَّة الإنسحابيَّة (ذاتيَّة تميل إلى الأنانيَّة)، التي تنمو فيها مغالبة الرَّغبات الخاصَّة على الرَّغبات العامَّة، ومغالبة ما لا يجب أنانيّة وانتهازيَّةً على ما يجب قيمة، والميل إلى السُّلوك المتعارض مع القيم والمعارف الضميريَّة، والإقبال على المطالبة بالحقوق، والابتعاد عن

أداء الواجبات، وعن حمل المسئوليَّات وتحمّل ما يترتّب عليها من أعباء.

ولهذا فإنَّ مرحلة اليأس تعدُّ مرحلة نفسيَّة، يصل إليها الفرد في مرحلة تقدُّم العمر؛ إذ الضعف الذي ينمو في القدرة إلى درجة إضعافها، وإعاقتها عن أداء أدوارها التي كانت تفعلها، أو تسلكها؛ ولذا عندما يسود العقل والجسم والقدرة والاستعداد وهنًا، يحدث الانسحاب، ويسود التردّد، ثمَّ التخلّي عن أداء ما ينبغي أن يؤدَّى؛ وحالة اليأس هذه لا تقتصر على المرحلة المتقدِّمة من العمر، بل في كثير من الأحيان تسود الشَّخصيَّة الإنسحابيَّة الانتهازيّة، التي تصل إلى مرحلة اليأس وهي في ربيع العمر، فتستسلم لأمر الواقع أنانيّةً؛ نتيجة الضّعف الذي يلمّ بها (ضعف النَّفس)، الذي في كثير من الأحيان تسبِّبه الحاجة، أو الرَّغبة فيما لا يجب، أو الخوف من المواجهة وما يترتَّب عليها من عاقبة، أمَّا النَّفس التي لا تيأس، ولا تقنط فالأملُ يراودها، ثمَّ ينقلها من حالة اليأس إلى حالة تحقيق الأمل الذي يجعلها شخصيَّة متطلّعة؛ ومن هنا فالفرق كبير بين الشّخصيَّة المتطلّعة لمستقبلٍ ناهض والشّخصيَّة الانتهازيَّة المنسحبة من تلك المبادئ الرّفيعة والقيم الخيّرة.

وعليه فإنَّ تغيُّر حالة الفرد من التمركز على الأنا، إلى حالة التمركز على الذَّات، أو الموضوع لا يمكن أن يتمَّ نُقلة واحدة هكذا، بل يحتاج إلى:

ـ زمن الاستيعاب: الفترة التي تُمكِّن المنسحب من استيعاب المتغيِّرات والمبررات الجديدة.

ـ زمن الانفكاك النّسبي: الفترة التي تُمكِّن الشَّخصيَّة المنسحبة من التخلّص من الارتباطات القيميَّة السَّابقة، والعلائق التي انتظمت على مستوى الذَّات.

ـ زمن الارتباط: الفترة التي يكوِّن المنسحب فيها علائق مع الوسط القيمي الجديد.

ـ زمن الفعل: فترة التبدُّل التي تُمكّن الشَّخصيَّة المنسحبة من الإقدام على الأفعال التي كانت محرَّمة عليها، أو محذوفة من قاموسها الاجتماعي.

ـ زمن العادة: فترة التكرار السُّلوكي مع الدَّيمومة بما يشكِّل الخصوصيَّة الجديدة، والسُّلوك الجديد.

إذن: مما تقدَّم لا يمكن أن يتمَّ التغيُّر نُقلة واحدة من التمركز على الأنا، أو الذَّات، أو الموضوع، بل لا بدَّ من مسافة تسمح بالامتداد للممتدِّ، وتسمح بالانكماش للمنكمشِ، وكذلك لا بدَّ من زمن لكلِّ امتداد، أو انكماش، ولا يمكن أن تكون الذَّات مكوّنًا مستقلًّا عن الأنا، أو الموضوع، ولا يمكن أن تتجرَّد من الميلان إلى الموجب، أو السَّالب؛ فكلّ حسب الظَّرف، والموضوع، والمتغيّرات المدخلة إلى، أو المخرجة من.

وعليه: الانحياز سُلوك بشري، لا يتمّ إلَّا بمعرفة؛ ومن ثمَّ عندما ينسحب الفرد من موقف لموقف، أو من موضوع لموضوع، بالضَّرورة يتخلَّى عن موقف، أو موضوع، وينحاز لآخر، وهذا لا يعني أنَّ كلّ انحياز هو ذو عائد سالب، بل بعض من الانحيازيات ذات مردود موجب؛ كالانحياز للحقِّ والعدل، أمَّا الانحياز للعبوديَّة والظّلم والانتهازيَّة فهي انحيازات سالبة مواجعها مؤلمة، وهذا النَّوع من الانحيازيات هو الذي تمتدّ فيه الشَّخصيَّة الانسحابيَّة انتهازيَّةً؛ وذلك لعدم تحمّلها أعباء المسئوليَّة تجاه ما يجب أن تَقدِم عليه من أفعال؛ ولهذا فتحمّل أعباء المسئوليَّة صفة موجبة تُمكِّن الفرد من أن يكون تطلُّعيًّا، أو منطقيًّا فيما يفعل أو يسلك دراية واستنارة.

ومن هنا فالشَّخصيَّة المنسحبة لم تكن شخصيَّة طبيعيَّة، بل شخصيَّة مصطنعة؛ فالشَّخصيَّة الطّبيعيَّة هي التي فطر الإنسان وشبَّ عليها، أمَّا الشَّخصيَّة المصطنعة؛ فهي التي أوجدتها الظُّروف أو صنعتها، حتى إنَّ بعضًا من المناضلين، والمتطلِّعين قد تكون آخر أيَّام نضالهم وتطلُّعاتهم تؤدِّي بهم إلى الانسحاب، ويصبحون في حالة ميل من (الذَّاتيَّة) إلى (الأنانيَّة)، وهذه قد تكون نتيجة ردود أفعال غير متوقِّعة، أو نتيجة الهزيمة التي كسرت المكانة والهيبة؛ ولهذا فالشَّخصيَّة الانسحابيَّة قد تكون بمسبّبات الهزيمة، وقد تكون بمسببات الاستسلام. وليس دائمًا الابتعاد عن المواقف السَّالبة يؤدِّي إلى المواقف الموجبة؛ فعندما يبتعد الإنسان أو يميل عن مواقف سالبة إلى أخرى سالبة لا تعدّ أفعاله موجبة؛ فالذي يحدِّد المواقف الموجبة من السَّالبة هو: (الموضوع المنحرف منه والموضوع المنحرف إليه)، وهي ذات أبعاد ثلاثة:

1 ـ مواقف التجنُّب: قد يؤدِّي التجنُّب إلى الابتعاد عن أفعال الخير، وقد يؤدِّي إلى الابتعاد عن أفعال الشَّر؛ وفي كلتا الحالتين فالشَّخصيَّة التي تعرف ما هو خير، وما هو شر، وتمتنع عن القيام بهما تعدُّ شخصيَّة إنسحابيَّة تجنُّبيَّة.

2 ـ مواقف الانسحاب: قد تكون ذات أفعال سالبة، وقد تكون ذات أفعال موجبة، فعندما تنسحب الشَّخصيَّة من مواقف سالبة ليس بالضَّرورة أن تكون موجبة، وعندما تنسحب من مواقف موجبة ليس بالضَّرورة أن تكون سالبة.

3 ـ مواقف الإقدام: قد تكون ذات أفعال سالبة، وقد تكون ذات أفعال موجبة وفقًا للآتي:

أ ـ عندما تنسحب الشَّخصيَّة من مواقف وأفعال سالبة، وتَقدم على أفعال أخرى سالبة، فإنَّ إقدامها هذا يعدُّ سالبًا، وعندما تنسحب من سالب إلى موجب تصبح أفعالها موجبة.

ب ـ وهكذا عندما تنسحب من موجب إلى موجب؛ فهي ما زالت ذات المواقف الموجبة، وإذا انسحبت من الموجب إلى السَّالب؛ فتصبح أفعالها سالبة.

الانتهازيَّون أنانيّون:

الشَّخصيَّة الانتهازيَّة شخصيَّة لا تفكّر إلَّا فيِ ما هو شخصاني، أمَّا غير ذلك فلا علاقة لها به، (أنا ومن بعدي الطُّوفان). شخصيَّة متعثِّرة في علاقاتها الاجتماعيَّة؛ كونها لا ترى للعالم مركزًا سواها.

ولهذا فالأنا هو الضَّمير الذي يعود على من ينطق به، فأنا يشير إليَّ، وأنت تشير إليك، وهم تشير إلى من لم يكن أنا وأنت، ونحن تحتوينا، وتستثنى غيرنا، وترتبط الأنا بالأنانيَّة عندما تخرج عن الذَّات والموضوع، وتوصف في هذه الحالة بأنَّها في حالة ميل، أو انحراف سلوكي يؤدِّي بها إلى الأنانيَّة؛ حيث إظهار السُّلوك الأناني على حساب الآخرين الذين لهم الحقّ في الوجود، أو الظُّهور المماثل؛ ولهذا فالشَّخصيَّة الأنانيَّة لا تتأهَّب إلَّا للرّغبة الخاصّة بمطمع خاصّ يجعلها تنتهز كل شيء حتى وإن كان على حِساب الغير، أو حتى وإن كان فيه ضرر للآخرين، ممّا يجعل عنوان الأنانيَّة الانتهازيَّة (أنا ومن بعدي الطّوفان) وكأنَّ العالم خُلق للأنا دون غيرها.

فالأنانيَّة الانتهازيَّة: مرحلة من مراحل تكوين الشَّخصيَّة الفاقدة للقيم، والثَّقافة، والسُّلوك الاجتماعي والإنساني، والمستجيبة للرَّغبات، والأهواء، والأطماع الخاصّة التي تسيطر على سُلوك الفرد وأفعاله؛ إذ ينعدم عندها الإحساس

بالنّخوة، والغيرة والشَّرف؛ لفقدانها كثيرًا من العواطف، أو لفقدانها الحُجَّة المنطقيَّة، أو لفقدانها الموضوعيَّة؛ وذلك لاكتسابها الأنانيَّة.

وترتبط الأنا بالآخر والموضوع عندما تكون العلاقة موجبة، وتنفصل عن الآخر والموضوع عندما تكون العلاقة سالبة؛ فعندما تظهر الأنا مع الآخر في الموضوع الواحد بالتساوي وفق الحاجة والجهد تقوى العلاقة بينهما، وعندما تظهر الأنا على حساب الآخر تضعف العلاقة بينهما، وقد يحدث الصِّدام، وتسود الفرقة إلى حين الالتزام بحقِّ الآخر في الموضوع دون مِنَّة؛ فالأنا الموجبة هي التي تتمسَّك بما لها من الموضوع دون أن تمسّ حقّ الآخر فيه.

وعندما تكون أهميَّة الأنا وعيًا عند الآخر، وتكون أهميَّة الآخر وعيًا عند الأنا، تتكوَّن الذَّات المشتركة التي تعترف بحقِّ الجميع في الموضوع العام، وعندما تعمّ الجهالة بأهميَّة الأنا والآخر في الموضوع المشترك يُطمس أحدهما على حساب الآخر، ويسود السُّلوك الأناني الذي تترتَّب عليه الأفعال الانتهازيَّة.

وبما أنَّ لكلِّ فرد خصوصيَّة تميّزه عن غيره وفقًا لقدراته، واستعداداته، وميوله، وثقافته، إذن: لكلِّ أنا شخصيَّة، وبما أنَّ لكلِّ أنا شخصيَّة وخصوصيَّة؛ فلا داعي لطمسها، بل من الواجب إظهارها بما يمكّنها من أداء مهامها الخاصَّة بموضوعيَّة، وعندما لا تطمس الخصوصيَّة لا تطمس الذَّات العامَّة التي هي مجموع تفاعل الخصوصيَّات، (فأنا كفرد) أعرف أنَّ ليّ حقوقًا، وعليّ واجبات؛ ولذا أتحمّل أعباء المسؤوليَّة مع الآخرين الذين لهم علاقة بالمواضيع المشتركة بيننا، وبخاصَّة المواضيع التي تكوِّن مجالات العلائق القيميَّة

على مستوى ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمل المسئوليَّات:

ولأنَّه لكلِّ (أنا) عاقلة حقوق قيميَّة، ينبغي أن تؤخذ بإرادة، أو تُعطي دون مِنَّة، ولا يحقّ لأحدٍ أن يُقيِّده عن ممارسة حقوقه، وإذا وُضِع القيد على الحقوق وجب فكّها، أو كسرها، ولا ننس ما يتركه وضع القيد من أثرٍ على الأنا الذي بلا شكّ سيفكِّر مرَّتين قبل أن يفعل أيّ أمر، وسيضع إشارات الاستفهام والتعجُّب على من كان سببًا في وضع القيد، وقد تحدث المواجهة كلَّما توافرت اشتراطاتها؛ ولكي تصبح حركة الأنا موجبة ينبغي أن يفسح مجال الامتداد لها في مجالات العلائق القيميَّة:

أ ـ مجال العلائق القيميَّة الاجتماعيَّة.

ب ـ مجال العلائق القيميَّة الإنتاجيَّة.

ج ـ مجال العلائق القيميَّة السِّياسيَّة.

د ـ مجال العلائق القيميَّة النَّفسيَّة.

هـ ـ مجال العلائق القيميَّة الذَّوقيَّة.

و ـ مجال العلائق القيميَّة الثَّقافيَّة.

وعليه: إذا لم يُسمح للأنا بحريَّة الامتداد في المجالات العلائقيَّة السَّابقة، تصبح الأنا في حالة السَّالب، وهي: الأنانيَّة والشَّخصانيَّة الانتهازيَّة.

وفي مقابل أخذ الحقوق ينبغي أن تؤدَّى الواجبات، وإذا لم تؤدِّ الأنا واجباتها بالتمام في ضوء ما تأخذه من حقوق تصبح الأنا ذات خصائص وصفات أنانيَّة؛ ولهذا ترتبط الأنا بالشَّخصانيَّة والفرديَّة عندما تنفصل عن الموضوع والذَّات،

وترتبط بهما عندما تنفصل عن الأنانيَّة والشَّخصانيَّة والفرديَّة التي تنحرف بها عن الذَّاتيَّة الاجتماعيَّة.

وعلينا أن نتوقّف قليلًا عند التساؤل التّالي:

من أين جاءت الانتهازيَّة؟

نقول:

إنَّهُ لا علّة توجد إلَّا ومن خلفها معلول أوجدها، وهذا المعلول بالنسبة إلينا ونحن نحلّل الانتهازيَّة مفهومًا ليس لنا منه شيء سوى الافتراضيَّة، ولكن هذا لا يعني أنَّنا نعيش في كوكبٍ خارج الأرض الدُّنيا (السُّفليَّة)؛ ولأنَّها الدُّنيا التي نعيش فيها فلا شكّ أنَّها المملوءة بالأعمال والأفعال الدّونيَّة.

وبما أنَّ الأفعال الدُّونيَّة على الوفرة الممكنة، فإنَّ الحصول عليها سيظل ميسرًا، والميسّر وإن كان ميسّرًا سيكون بين أمرين:

ـ الأمر الأوَّل: إمكانيَّة الحصول عليه مباشرة بلا وسطاء ولا مساعدين؛ وذلك لمقدرة العقل الإنساني على الآتي:

1 ـ التذكّر: استدعاءً للتَّاريخ وإمكانيَّة الأخذ ممَّا يراد توظيفه من حافظات سجلّاته.

2 ـ التدبّر: بأسباب الحاجة وعلل الضّرورة التي تجبر الإنسان على السّعي وبذل الجهد ولو كان انتهازيَّةً من أجل العيش الآمن وإشباع الحاجات المتطوّرة.

3 ـ التفكّر: الذي يُمكّن الإنسان من البحث العلمي بغاية النّهوض وصنع المستقبل المأمول.

ـ الأمر الثَّاني: إنَّ ذلك الميسّر في الحياة الدُّنيا ليس دائمًا من السّهل الحصول عليه بالجهود الفرديّة، ومن ثمَّ ليس دائمًا العقل الفردي واعيًا بما يجري من حوله لينتبه إليه، ومن هنا يقع البعض في أفخاخ الانتهازيين فيستغلونهم فيما لا يجب.

وعليه فإنَّ مفهوم شخصيَّة الأنا في الأساسِ موجبٌ، حيث لكلّ (أنا) حقوق وواجبات ومسئوليَّات، ولكلِّ (أنا) الحق أن يعتزَّ بأناته التي بها يتميَّز عن الغير، ولكن عندما تصبح الأنا على حِسَاب الغير تفقد شخصيَّة الأنا عنوانها وتصبح الشَّخصانيَّة هي العنوان.

وعليه: فمن الزَّاوية الطبيعيَّة لكلِّ أنا: حقوق، وواجبات، ومسئوليَّات، ومن الزَّاوية الفعليَّة قد لا تمتلك الأنا شيئًا من ذلك فتُعدّ فاقدة لذاتها، ولا مفرَّ لها من أن تنسلخ عنها لتمارس السُّلوك الأناني والشَّخصاني الانتهازي كردِّ فعل، وليس دائمًا الأنا تسلك أو تفعل نتيجة ردود أفعال سالبة، بل في بعض الأحيان تمتلك الأنا كلّ الحقوق، والواجبات، والمسئوليَّات المتعلِّقة بها، ثمَّ تمتد على حساب ما يمتلكه الآخر، إنَّها الأنا الطَّامعة الفاقدة لقيم الاعتراف، والتقدير، والاعتبار للآخر.

وقد يتساءل البعض:

ـ لماذا يودُّ البعض أن يُظهِر شخصانيَّته وأنانيَّته الانتهازيَّة على حساب المجتمع الذي وُلد فيه، وهو يعرف نفسه كفرد قاصر عن العيش بمفرده، وبمنعزل عن بني جنسه؟

في قراءاتنا نقول: إنَّ سبب ذلك هو وجود الفروق الفرديَّة التي جعلت لكلِّ فرد من بني الإنسان طابعًا به يُميَّز عن غيره، وكذلك لا ننس وجود المظالم التي تمتدُّ لتلاحق مجالات العلائق القيميَّة، وتضع القيد عليها، وإلى جانب هذه وتلك لا

ننس أثر المعلومات والمعارف التي يتشرَّبها الأنا في أثناء فترات نموه الزَّمني، ونموه المعرفي.

فالإنسان بطبيعة الحال لا يتكرَّر في خَلقه، ولا يمكن أن يكون نسخة لغيره، أو يكون غيره متطابقًا معه في قدراته، واستعداداته، ومواهبه، وطموحاته، ولا حتى في بصمة أصابعه، ونسيج جسده، على الرُّغم من أنَّ البشر جميعهم مخلوقون من نفس واحدة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً}[12]؛ ومع أنَّ الإنسان خُلق على القوَّة إذا ما قورن بغيره من المخلوقات الأخرى فإنَّه بقوَّته تعلّم علمًا حتى استطاع أن يغزو الفضاء، ولكن على الرُّغم مما خُلق عليه من قوَّة؛ فهو الضَّعيف أمام القوي المطلق، والضَّعيف أمام رغباته وشهواته، ومع ذلك هذا الإنسان الضَّعيف يتظاهر بالقوَّة بين الحين والحين كلّما عرف أنَّ الآخر في حالة وهن وضعف؛ فيتمرّد على الضّعفاء منتهزًا لضعفهم.

وفي المقابل إذا تمرَّد الآخرون على الحكومة الظَّالمة، لا تجد ذلك المدَّعي القوَّة من بين الرِّجالات المتحدّيين للمظالم، ومن هنا وجب أنْ نعرف أنَّ الشَّخصيَّة المتمرِّدة على الضّعيف سلوكها وأفعالها القيميَّة انتهازيَّة سالبة، أمَّا الشَّخصيَّة المتمرِّدة على الحكومة الظّالمة فسلوكها وأفعالها القيميَّة لا تكون إلَّا على النّفع موجبة.

وعليه: فإنَّ شخصيَّة الإنسان الذي عصي الله الذي خَلقه، لا يُستغرب أن يعصي المجتمع الذي لم يخلقه، أو أنَّه يعصي أفرادًا منه، فهذه الشَّخصيَّة الأنانيَّة والشَّخصانيَّة إن سادت على النَّاس انتهازيَّةً نسيت معرفة الخالق وما خلقت من أجله.

---

[12] النساء 1.

إذن: إذا تمسَّك الفرد بأناته ولم يتخطَّ حدودها (حدود أنا ليّ حقّ، وواجب، ومسئوليَّة أتمسّك بها، ولا أرغب الامتداد إلى ما هو خارج عنها) فإنَّ ذلك يدلُّ على أنَّه متمسِّكٌ بقيمه التي يُقرَّها المجتمع، وهي القيم التي جعلت منه ذاتًا على المستوى الفردي يستوجب الاحترام والتقدير، أمَّا إذا تجاوز هذه القيّم وحدودها الاجتماعيَّة فيدخل في منطقة النزاع مع الآخرين المدافعين عنها بوصفها حقًّا لهم؛ ومن هنا ينجم الصِّراع بين الممتدّ خارج حدوده، والمندحر داخلها؛ ولذلك تتكوَّن الشَّخصيَّة الأنانيَّة الانتهازيَّة، أو الشَّخصانيَّة الانتهازيَّة عندما يطمع الفرد في حقوقِ غيره وواجباتهم ومسئوليَّاتهم، أمَّا إذا تمسَّك بحقوقهِ وحَبَّ أناته، ولم يتجاوزها فإنَّ ذلك يعنى أنَّه لم يكن أنانيًّا، أو شخصانيًّا، بل إنَّه الإنسان المثال الذي يتوحَّد المجتمع فيه أو الوطن فيجعله اجتماعيًّا ووطنيًّا سيادةً وهويَّةً.

ولهذا تعدُّ القيم العنصر الأساس الذي يميّز سلوك الإنسان الأناني، أو الشَّخصاني، عن سلوك الإنسان الذَّاتي، أو الاجتماعي، فإذا كان تقييم الفرد للأشياء المشتركة بمنظور كلّ شيء أنا، كانت أفعال الفرد أنانيَّة، وسُلوكيَّاته شخصانيَّة، وإذا كان التقييم للأشياء والظّواهر بمنظور المجتمع، كان الفرد اجتماعيًّا (ذاتيًّا)، وإذا كان تقييم الأشياء بمعطياتها كما ظهرت في الموضوع كان الفرد موضوعيًّا؛ ذلك لأنَّ الأنا قد ينفصل عن الموضوع، أمّا الذَّات فإنَّها ترتبط به.

وعليه:

توجد علاقة تداخل قيمي بين مكوّنات الشَّخصيَّة الأنانيَّة، والشَّخصيَّة المنسحبة، والشَّخصيَّة المتّزنة (الذَّاتيَّة)، والشَّخصيَّة المنطقيَّة، والشَّخصيَّة الموضوعيَّة؛ ولذا

فبالموضوع يمكن أن يكون الإنسان أنانيًّا، ويمكن أن يكون ذاتيًّا؛ فالتنشئة كموضوع، وحسب فلسفتها، قد تجعل من الفرد أنانيًّا انتهازيًّا، أو ذاتيًّا (اجتماعيًّا)، وهكذا الفرد قد يؤثِّر في المجتمع بأنانيّته سلبيًّا؛ نتيجة تمسّكه بالأنا، وقد يؤثِّر فيه بموضوعيَّته إيجابيًّا؛ نتيجة عدم انفصاله عن الموضوع، وعن الذَّات؛ حيث لا انتهازيَّة.

ومن ثمَّ فالأنا كعنصر مستقلٍّ تدلُّ على الفرديَّة كبؤرة اهتمام، وعندما ترتبط بالموضوع دون اعتبارٍ للآخر تصبغه بطابعها؛ فتسود روح الشَّخصيَّة الأنانيَّة، أو الشَّخصانيَّة الانتهازيَّة؛ وذلك لظهور نواياها الخاصَّة، أو أطماعها الخاصَّة سواء أكان هذا الطَّابع فرديًّا، أم أسريًّا، أم اجتماعيًّا، أم وطنيًّا، فإذا كانت المصلحة فرديَّة كان الأنا فرديًّا، وإذا كانت المصلحة أسريَّة، أو قرابة، كانت الأنانيَّة بإظهار الأنا لها على حساب الآخرين؛ وهذا يشير إلى أنَّ الأنا لم يتكوّن من حبِّ الذَّات كما يعتقد البعض، بل تكوَّن من الانعزال عن الذَّات والموضوع؛ نتيجة التحيُّز الشَّخصاني الانتهازي الذي يُظهر الأنانيَّة على حساب الموضوعيَّة.

إذن: الأنا لم يكن عيبًا إذا لم يتجاوز حدوده على حِساب الآخرين، بل ينبغي التمسُّك به كطابع مميّز بين الأفراد، والجماعات، والمجتمعات؛ ومن ثمَّ لا يُعدّ التمسّك به عيبًا، وبما أنَّ كلّ (أنا) متميّزة عن غيرها بخصوصيَّاتها، إذن: الكلّ متميّز عن غيره بما يمتاز به، والتمسُّك بالميز يعنى التمسُّك بالموجب، ومع أنَّ الأنا واحدة، فإنَّ أدورها متعدِّدة، فأنا الفرد، تختلف عن أنا الأسرة، أو الجماعة، وأنا المجتمع، تختلف عن أنا الأمَّة، أو أنا الوطن، أو أنا الإنسان، فعندما أكون أنا الإنسان تكون القيم الإنسانيَّة هي التي يحتويها ضميري،

وتمارسها أفعالي، وتتجسّد في سلوكيَّاتي، وهكذا عندما أكون أنا الوطن تكون القيم الوطنيَّة سارية في ضميري ونفسي.

ومن ثمَّ علينا أن نميِّز بين الأنا وأفعالها، والأنانيَّة وأفعالها، وفي هذا الأمر نقول:

الأنا كبرياء الذَّات وأنفتها؛ نتيجة أخذها بقيم المجتمع، والفضائل الإنسانيَّة الخيّرة، أمَّا الأنانيَّة فهي نتيجة الطَّمع والتعصُّب للباطل والحياد عن الحقِّ؛ ولهذا يكون الإنسان كفرد مثالًا عندما يتمسَّك بالأنا الملتزمة بكبريائها الإنساني الذي يُقدِّر قيمة الإنسان، ويحافظ على نوعه، ويكون الإنسان ذاتًا عندما تتوحَّد قيم المجتمع فيه، ويلتزم بها؛ فتكون أمانيه من أماني المجتمع، وآلامه من آلامه؛ ولأنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم؛ فهو يرتقي قيميًّا إلى أن يُصبح أمَّة بحالها عندما تتوحَّد هويَّة الوطن وأمجاده وعزّته وتاريخه وسيادته فيه، مما يجعله يحس بإحساسه ويتألم لآلامه، وهذه الصِّفات قد لا تكاد توجد إلّا متفرّقة عند غيره[13].

الانتهازيّون غزاة:

الانتهازيون غزاة كونهم إذا مُهّدت لهم الأرض انتهازيَّةً انتشروا فيها فسادًا بلا رأفة كما تنتشر النَّار في الهشيم، ولكونهم كانوا ذات يوم ذيولًا لغيرهم ثمَّ من بعدها أصبحوا رؤوسًا، فلا شكَّ أنَّ الذّيول ستكون وكأنَّها الرّؤوس منذ أن انجبتها أمّهاتها، وكما يتناسوا كلّ ما كانوا يقومون به من خدمة مريحة للغير على حساب راحتهم، فكذلك يتناسوا ما كانوا يقدّمونه لهم من طاعةٍ وخنوعٍ.

[13] عقيل حسين عقيل، الشخصية الوطنية الليبية (سيادة وهوية)، دار النخلة: طرابلس: 2023م، ص 252 – 269.

ولذا فالغزاة هم الذين يعدّون العدّة بعد خطة تربُّصيَّة، حتى وإن لم تكن الخطّة مكتوبة؛ وذلك وفقًا لغايات وأغراض وأهداف حدّدوها غزوًا بلا رأفة، ومن بعدها يتربّصون الدّوائر لانتهاز الغفلة؛ فينقضّون على الخصم أو العدو في ساعة لا يرونها إلَّا حاسمة.

ومن هنا علينا أن نستوضح مفهومي: (**الفرصة، والغفلة**)؛ حتى نستطيع أن نميّز وعيًا ومعرفةً بينهما؛ **فالفرصة**: تُعطى عن رغبةٍ وإرادةٍ، فتؤخذ؛ والغرض مِن وراء تقديمها هو التحفيز على النّهوض وتقديم المساعدة الهادفة لمن هم في حاجة إليها، وفي المقابل **الغفلة**: لا تُعطى، ولكنَّها إذا ما حدثت سهوًا أو بأيِّ علّة من العلل أمام أيُّ منتهز فإنَّه سيستغلها نهبًا_وسلبًا وانقضاضًا بلا رحمة؛ ولهذا فالفرصة لا تُستغل، بل تُستثمر، أمَّا الغفلة فهي التي يتمّ استغلالها بعد اقتناص الغافلين والانقضاض عليهم.

ولأنَّ الفرصةَ تعطى وفقًا للمتاح والمسموح به، والممكن، وعن إرادة؛ فاستثمارها حقّ لمن تعطى له، ولا انتهازيَّة في استثمارها، بل الانتهازيَّة تحدث عندما يطمع البعض فيما لا يُعطى لهم، فتمتد اطماعهم وأيديهم لتطال ما لم تعط الفرصة بشأنه، أو لتطال ذلك المنهي عنه، أو ذلك الممنوع دينًا وقيمًا وأخلاقًا، أو عرفًا ودستورًا وقانونًا.

ولذلك فالعلاقة قويَّة بين الانتهازي والغازي؛ كون كلًّا منهما يتمدّد على حِساب الغير، عن قصدٍ، وعن غير حقّ، وفي مثل هذا المجال التمدُّدي لا وجود لإعطاء الفرصة؛ أي لا أحد يعطيك فرصة بغاية أن تكون الفرصة على حساب وجوده أو مستقبله، أو على حساب المسئوليَّة المناطة به. ولكن إذا استغل الانتهازي أو الغازي غفلة غافلًا ليباغته بغزوهِ في

ساعةٍ لم يحسب لها حساب، فهذه ليست بفرصة، بل غفلة وتمّ استغلالها من قِبل الانتهازيين بغير حقٍّ؛ وهذه ليست من طبيعة الفرص التي تُعطى بغاية استثمارها.

والغفلة قد تكون بأسباب غرس الثّقة في من لم يكن أهلٌ لها؛ فينتهز تلك الغفلة مفتَّحة الأبواب ثقةً في غير مكانها، أي إنَّ الذي تمّ انتهازه كان غافلًا عن حقيقة ذلك الانتهازي الذي استأمنه وغرس الثّقة فيه حتى مكّنه مما مكّنه منه وظيفة، أو أنَّه مكَّنه من لعب دورًا من الأدوار السِّياسيَّة أو الاجتماعيَّة أو الاقتصاديَّة أو الأخلاقيَّة، ومن هنا تأتي المفاجآت والاستغرابات والاستفهامات وتوضع علامات التعجُّب على ما أقدم عليه ذلك الانتهازي الذي غُرست الثّقة فيه (كونه كان من وجهة نظر من وضع الثّقة فيه أنَّه أهل لها)، وهو الذي أظهر انتهازيَّته في الوقت القاتل؛ حيث لا إمكانيَّة للالتفات إلى تلك الغفلة القاتلة ثقةً.

ولأنَّ للفرصة زمن محدّد ومعطيات محدّدة فإنَّها لا تُعطى إلَّا مقيّدة بشروطٍ أو عقودٍ أو تعهُّداتٍ لا ينبغي أخلاقيًّا الاخلال بها، وستظل الفرصة سارية المفعول وفقًا لاشتراطاتها ومعطياتها، وفي المقابل تنقطع الفرصة ولا تعد سارية المفعوم ساعة الاخلال بشروطها ومعطياتها؛ ومن هنا يجد الانتهاز مكانًا له ليحلّ فيه على حِساب تلك الفرصة المعطاة، فيصبح الانتهاز قائمًا على غير ما أعطيت الفرصة له.

وعليه: فإنَّ الانتهازيين ساعة التأهُّب للانقضاض غزوةً لا يفرّقون بين الانقضاض على العدو أو الصّديق، فالمهم بالنسبة إليهم أن تمكِّنهم الغزوة من المستهدف غزوه.

ولهذا جاء القول: إنَّ الانتهازيين غزاة؛ كونهم يتسلّلون طاعة إلى دواليب الدَّولة، ويعملون كلّ ما في وسعهم للتقرّب

من رؤوس ساستها، وإذا اقتربوا أظهروا الولاء المطلق والطَّاعة، والتصديق التَّام، مع مزيدٍ من المبالغة في الخنوع وسرعة التنفيذ كما يراه الرَّأس المسئول، وهكذا هم يغزون كلّ مَّن يعتقد أنَّهم قد أصبحوا أهل ثقة ومحلّ لها، في الوقت الذي لم تكن حقيقتهم كذلك.

ومع ذلك فإنَّ لمفهوم الغزاة أوجه: فمن غزا من أجل كلمة حقّ ينبغي أن تُقال وتُحقَّ في مرضاة الله فإنَّ خير غزوته يكمن في مغزاها خيرًا، ومن غزا قاطع طريق فلا مكمن لشرِّ غزوته إلَّا وفي مغزاها شرًّا؛ ولهذا فالفرق كبير بين من غزا الدَّولة (قيمة وفضيلة)، ومن غزاها مستوليًا على سُلطتها وثرواتها، أو جاء محتلًّا ومستغلًّا لثرواتها وناهبًا لها ومستعمرًا لمواطنيها.

ومع أنَّه لا يمكن أن يستوي مغزى مَنْ يَرشُدك هاديًا، ومغزى من يضلّك عن سبيل الهداية والرَّشاد، فإنَّه لا فرق بين من ينقلب على السُّلطة ليسلبها من أيدي ملّاكها الحقيقيين (الشَّعب) وينسبها إليه، وينصّب نفسه حاكمًا لا أحد من بعده يأتي إلَّا من يورّثه من بعده، وبين من يأتي إلى الوطن مستعمرًا ومحتلًا كما جاء الاحتلال الأوروبي للشّرق الأوسط غازيًا ومحتلًّا.

في مثل هذا الأمر الكلُّ جاء للبلاد غازيًا؛ ذلك لأنَّ النتيجة واحدة ولا فرق (الوطن وقد تمَّ غزوه)؛ فليبيا على سبيل المثال: لا فرق بين أن يغزوها رئيس الحكومة السّيد عبد الحميد الدّبيبه أو تغزوها السيِّدة إيطاليا (ليبيا وقد تم غزوها)؛ والغزو هنا جاء بمفهوم احتكار منافعها، وتبذير ثرواتها، واحتكار سُلطتها، والاستهتار بسيادتها وهويَّتها؛ أي لا فرق بين التبعيَّة لعائلة الدّبيبة التي غزت البلاد وأفسدت فيها فعبثت

بخيراتها وثرواتها، أو التبعيَّة للعائلة الإيطاليَّة (الفاشيَّة) التي سبق لها وأن غزت ليبيا فقتلت وشرَّدت وعبثت بخيراتها.

ويا ليت الغزاة (سواء أكانوا محلّيين أم أنَّهم أجانب) أن يستفيدون من الدّروس، فالغزاة بالنسبة إليهم لا شعار يعلو على شعار (السّلب والنَّهب، ثم السّلب والنَّهب)، ومع ذلك أين إيطاليا اليوم من ليبيا بعد أن غزتها سلبًا ونهبًا وتقتيلًا وتهجيرًا لمدة أربعين عامًا تقريبًا؟ وهكذا وأنَّا أكتب اليوم الموافق 2023\7\27م أقولها مسبقًا قبل أن يأتي الغد: أين الدبيبة اليوم من ليبيا بعد أن غزاها إفسادًا وانتهازيَّةً؟

ولأنَّ للتَّاريخ رجالات لصُنعه، ورجالات لحفظه وكتابته، فإنَّ الاجرام الذي قام به الاحتلال الإيطالي لليبيا تقتيلًا وتشريدًا وسلبًا ونهبًا رسَّخ في قلوب الليبيين كُرهًا عظيمًا للسّيدة إيطاليا، وهكذا سَيُسجّل التَّاريخ في صفحاته كُرهًا شديدًا للسيّد الدّبيبة وعائلته التي لعبت في البلاد انتهازيَّة وإفساد؛ وهكذا هو الحال: إيطاليا قد غزت وانكسرت، وعائلة الدّبية سينطبق عليها هذا القول: إنَّها قد غزت وانكسرت، وأبواب المحاكم لا شكّ أنَّها ستكون مفتَّحة أمام الشّهود الذين يظنونهم اليوم أنَّهم شهودًا لهم، ولكنَّ غدًا بلا شكَّ سيكون الشّهود شهودًا عليهم.

وستعود ليبيا دولة حرّة ذات سيادة، كما عادت دولة حرَّة بعد أن طرت المستعمرين جميعهم، ومن ثمَّ فإنَّ جميع المعطيات تقول: إذا أراد الليبيّون أن يستقر الحكم في دولتهم وتسود العدالة لا بدَّ لهم من أمرين:

الأوَّل: إسقاط الدبيبات من سدّة الحكم؛ لكونهم اقتنصوا السُّلطة واعتلوها انتهازيَّة بسلَّمٍ أجنبي وبمالٍ فاسدٍ اشتروا به ذممًا مِن تلك اللجنة (لجنةٍ 75)، وكان ذلك بمباركة (السّيدة

ستيفاني وليامز المبعوثة الخاصّة للأمين العام للأمم المتحدة). ومع أنَّ مجلس النّواب الليبي قد اتخذ قراره في شهر سبتمبر من العام 2021م بسحب الثّقة من حكومة الدبيبة؛ فإنَّ الدبيبة لم يمتثل لذلك القرار الذي يستمد قوّته من إرادة الشّعب الليبي، وظل ضالًا في حكومته بلا شرعيَّة، ويا ليته يهتدي لمعرفةٍ مفادها أنَّ سِجلّات التَّاريخ مليئة بالدّروس التي منها: إنَّ كلّ مَن اعتلى كرسي السُّلطة عن غير إرادة الشّعب كانت نهايته مليئة بالمؤلِمِ والمرعبِ. وهكذا فإنَّ هذا الأمر سيطول أيضًا كل الرؤوس التي أفسدت وعبثت وسلبت ونهبت وقتلت، وتحت أيّ عنوانًا مِنَ العناوين.

الثَّاني: إجراء انتخابات حرّة (نزيهة، وشفَّافة).

وعليه: فعندما يكون الغزاة مغزاهم الاستلاء على السُّلطة أو الثّروة فلا إمكانيَّة للعدالة والنَّزاهة، ولا إمكانيَّة لكفّ الأيدي عن ارتكاب المجرّم والمحرَّم؛ ولا إمكانيَّة للنّهوض بالوطن وترسيخ السِّيادة الوطنيَّة.

ولأنَّ من طبيعة الغزو التجاوز للحدود المألوفة سواء أكانت حدودًا سُلطويَّة أم جغرافيَّة أم فكريَّة؛ فهو الانتشار توسُّعًا على حساب الغير وممارسة حقوقه وأداء واجباته، وحمل مسئوليَّاته؛ ولذا فلا مفرَّ إلَّا غزو الغزاة كما غزاهم رسول الله في مرضاة الله.

إنَّ المواجهات الغازية التي قادها النَّبيّ محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام لقد دارت رحاها بينه ومن حاول أن يحول بينه وتبليغ الكافَّة برسالتهم الخاتمة (إنَّهم قطَّاع الطُّرق من قريش)؛ ومن ثمَّ فهل الذي يغزو قُطَّاع الطُّرق يعدُّ قاطع طريقٍ، أمَّ إنَّه فاتحٌ لها؟ وهل الذي يغزو من يغزو النَّاس بغير

حقٍّ يتطابق مفهوم غزوه مع مفهوم غزوهم ويتصف بصفاتهم أم إنَّ الأمر غير ذلك؟

ولأنَّ الدِّين الذي أُرسل به محمَّدٌ جاء لتوحيد الله وحده لا شريك له، فهل يُمكن لمحمَّد أن يدعو إلى ولاءٍ لغير الله؟ أي هل الذي لا يرى ولاء لغير الله يُمكن أن يكون غازيًا في سبيل غيره؟ ولذا فمن يغزو في سبيل الله لا يمكن أن يكون قاطعًا لطريقٍ ما لم يكن ولاء أهل هذا الطريق لغير الله؛ أي لو لم يكن ولاء أهلها للمفسدين في الأرض ما أعدَّ محمَّد غزوةً لتحول بينهم والفساد فيها.

ولذا فلا يمكن لرسولٍ بُعث للكافَّةِ رحمةً أن يكون قاطعًا لِطُرقٍ بها يتواصلون؛ ومن هنا يعد محمَّدٌ قاطعًا لطُرق قُطَّاع الطُّرق فاتحًا لها، وخير مثال لتفسير ذلك وتوضيحه ما نستمدَّه مِن صِفات الله الحسنى، (الله المكيد، الله خير الماكرين، الله المنتقم، الله الشَّديد)، أي لو لم يكن الله مكيدًا لنجحت مكائد البعض ضد البعض ألما، ولهذا فكيد الله يكيد كيد الكائدين فيبطله فيصبح كيده رحمة، وهكذا خير الماكرين يمكر بمكر الماكرين فيبطله حتى يصبح خير مكره خير رحمة، وبالتمام ما يعمله البعض ضدّ البعض انتقامًا يبطله المنتقم العظيم فيصبح انتقامه من انتقامهم رحمة، وأيضًا من يريد أن يُنزل بالبعض شدّة فالشَّديد يبطلها فتصبح شدَّته الكاسرة لشدّتهم رحمة؛ ومن هنا فإنَّ غزو الرَّسُول لقطَّاع الطُّرق بينه والكافَّة يفتح الطُّرق بينهم رحمة.

وعليه: فإنَّ القاعدة الأخلاقيَّة تقول: إنَّ قَطعَ الطُّرق أمام قُطَّاعها الغازين للنَّاس لا يعدُّ إلَّا رحمةً وهذه مِن أعمال الرَّسُول، وفي المقابل فتح الطُّرق أمامهم لا يعدُّ إلّا مظلمة؛ وهكذا بالتمام تصبح القاعدة المنطقيَّة: من يغزو النَّاس إكراهًا

وظُلمًا ثمَّ يواجهه غازيًا ليغزوه عدلًا كَسِبَ خيرًا وكَسَبتَ النَّاس[14].

إذن فلا إمكانيَّة للقول: إنَّ محمَّدًا كان غازيًا كغيره من الغازين، بل كان محمَّدٌ غازيًا لمن يقطعون الطُّرق ويحولون بينه والكافَّة، التي بُعث إليها رسولًا داعيًا وهاديًا ومنذرًا ومبشرًا بالتي هي أحسن وأقوم.

ومع ذلك فإنَّ كثيرًا مِنَ الكُتبِ التَّاريخيَّة والتفسيريَّة وصفت تلك المعارك الجهاديَّة والتبشيريَّة لرسول الله والذين معه بأنَّها غزوات مقاتلة وقطع طرق، وكأنَّ رسول الله والذين معه غزاة وقطَّاع طرق.

والغزو ليس كما يظنَّه البعض أنَّه لا شيء من ورائه إلَّا سلب مَن تمَّ غزوهم، ونهب مَن نهبت أموالهم، ومصادرة مَن صودرت ممتلكاتهم، بل هو الإصرار على إقصاء الغير والاحلال بدلهم اينما كان وحلّوا، ثمَّ استصدار القوانين التي بها تزوَّر الحقيقة برمّتها.

ولذا فَمَن يغزو باسم الدِّين توحيدًا فلا بدَّ أن ينتشر الدّين على يديه رغبة وإرادة، وفي المقابل من يغزو باسم العائلة، أو العِرق، أو المعتقد، أو الفلسفة، أو السّيطرة السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والأمنيَّة، أو بغاية الاحتلال الأجنبي فلا بدَّ وأن ينكسر بداية أو نهاية؛ فذلك هو الفرق الكبير بين من يصبح ولاؤه لله تعالى، ومن يصبح ولاؤه لمنتهز سُلطة، أو لغازٍ، أو لخصوصيَّة من الخصوصيَّات التي بالزَّمن لا بدَّ وأن تبيد.

ومن ثمَّ فكل من يتمكّن من القوَّة ويغزو بها من يغزو لا بدَّ وأن ينكسر بقوّة المواجهة التي تحدث لا محالة، وإنْ

[14] عقيل حسين عقيل، أرسول ويغزو؟!مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م، 9 – 21.

انكسرت بدايةً فإنَّها نهايةً لا بدَّ وأن تنتصر وينكسر الانتهازي ويُهزم، سواء أكان الانتهازي حاكمًا ظالما كما أم أنَّه غازيًا مستعمرًا.

وعليه: فإنَّ غزو الانتهازيين للشّعوب مثل غزو الأميَّة لعقول النَّاس، فهي التي بغزوها تتمكّن من الاختباء في عقولهم دون أن يستشعروا بشيء منها (من الأميَّة)، وهكذا هم الانتهازيون في غزواتهم يتسلّلوا إلى كراسي المسئوليَّة دون أن يستشعر أحدًا بهم؛ حتى يتمكَّنوا من الاستلاء عليها، وحينها يكشّرون عن أنيابهم فيمتصّون دماء الشَّعب بلا رأفة.

ولأنَّ الأميَّة تعني: لا دراية بالأمر، فإنَّها تعني غيابًا كاملًا عن الموضوع الذي نحن من دونه تغزونا الأميَّة، أي: لا وجود لجزء ولا متجزئ لمعلومة وإنْ عظم في الصّغر حتى نتمكّن من درايته، وهكذا فإنَّ الانتهازيين لا أحد يستشعر بوجودهم انتهازيين؛ كونهم يظهرون الوضوح والشّفافيَّة وحبّ العمل مع التفاني في أدائه مع أنَّهم ليسوا كذلك؛ ومن ثمَّ فغزو الجهل لا يعني غياب المعلومة، بل يعني عدم البحث عنها والسّعي إليها، أمَّا غزو الانتهازيين فلا وجود لأيِّ معلومة عنه حتى نسعى إليها بحثًا؛ ذلك لأنَّهم لا يختبؤون إلَّا في دائرة غير المتوقَّع؛ ولهذا دائمًا تأتي المفاجئات والمستغربات من تلك الدّائرة (دائرة غير المتوقَّع)، وهي الدّائرة التي لا يلتفت معظم النَّاس إليها.

الشّخصيَّةُ الانتهازيَّة في دائرة التكيّف:

الشّخصيَّة الانتهازيَّة في دائرة التكيّف لونها أبيض وكل ألوان الطيف فيها؛ إنَّها الشّخصيَّة المتكيفة مع كل الألوان، فهي عندما تكون مع السَّلفيّين تكون مادحةً لهم وللسّلفيَّة، وعندما تكون مع العلمانيين تصبح ذامَّة لتلك السّلفيَّة، وهكذا

هي تتلوّن في كل يوم ومع كل الأيَّام؛ فهي مع اليساريين يساريّة، ومع اليمينيين يمينيَّة، ولهذا فبالنسبة إليها أينما يكون رغيف الخبز تكون، سواء أكان رغيف الخبز بيد الثائرين أم كان رغيف الخبز بيد المثار عليهم.

وعليه: مع أنَّ البعض لا يرى التكيّف إلَّا موجبًا فإنَّنا لا نراه إلَّا للضّرورة؛ كونه رضوخ للأمر الواقع الذي لا رفعة فيه ولا قمّة، ومن يقبل بالرّكون إلى التكيّف مع الأمر الواقع فلا أمل له أن يصنع نُقلة؛ فالتكيُّف لا يكون إلَّا عن تنازلات تقدّم بغاية القبول وفقًا للضّرورة أو وفقًا للانتهازيَّة، ومن ثمَّ فالتكيُّف موائمة نفسيَّة بين الفرد أو الجماعة والبيئة التي هم فيها، أو البيئة التي تحيطهم؛ وذلك بعد قبولهم الضمني بتقديم التنازلات، أو القبول بالتغيير بما يتناسب مع من هم في حاجة للتكيُّف، ومن هنا فالسَّجين الذي في بداية أمره سجينًا لا يمكنه التكيُّف مع السّجن، ولكن بمرور الزَّمن يتكيّف مع السّجن كأمر واقع لا مفرَّ منه؛ ومن ثمَّ فالسّجين مهما تحقّق له من تكيّف مع السّجن والسّجانين لا يمكن أن يتوافق معهم، ولا مع السّجن، مما يجعل الفرق كبير بين التكيُّف الذي لا يتمُّ إلَّا بتنازلات، وبين التوافق الذي لا يتمّ إلَّا عن إرادة وبدون تقديم تنازلات؛ ولذلك فالتكيّف بالنسبة إلى الانتهازيين هو تآلف وتقارب يتمُّ به تعديل السُّلوك، أو تغيير اتجاهه وفقًا لِما هو متوقّع منفعةً ولو كانت على حساب حاجات الغير.

والتكيّف بالنسبة إلى الانتهازيين موائمةٌ لا يكون إلّا ضرورة من ضرورات الحياة؛ وهو يستوجب في كثير من الأحيان تنازلات من المتكيّف إلى الموضوع المتكيّف معه، أو المتكيّف من أجله، وهذه التنازلات لا يمكن أن تتمّ إلَّا للضّرورة الانتهازيَّة.

ومن هنا فالتكيف يستوجب تعديلًا في السّلوك تجاه ما يتراءى للمختلف والمخالف، وإن لم يتمّ تعديل السّلوك؛ فالتكيف لن يتحقّق حتى مع البيئة الطّبيعيَّة كالجبال والوديان، والبرد القارس، والحرّ الشّديد؛ فالإنسان عندما يضطرّ عن غير رغبة إلى العيش في بعض أماكن الطبيعيَّة فهو بالزّمن سيجد نفسه متكيّفًا مع المناخ والطّقس المتغيّرين، وبالتكيّف يتأقلم ويكتسب مناعة، ولهذا فلا تكيف إلَّا من أجل البقاء وليس من أجل الآخرين أو من أجل إحداث النُّقلة وصنع المستقبل.

ومع ذلك فالتكيّف قد يكون سالبًا، وقد يكون موجبًا؛ فعندما يكون انتهازيّةً فلا يكون إلَّا مع الظّلم، والفساد، ومع السّلوك الانحرافي المخالف للدّين، والعرف، والمبادئ والقيم الحميدة، أمَّا عندما يكون مع الخير والعدل وممارسة الحرّية بأسلوب ديمقراطي، ومع الأخلاق التي يرتضيها الجميع، فيكون تكيّفًا موجبًا، وهكذا سيكون موجبًا كلّما كان نتيجة للتوافق، أو كان محفّزًا على إحداث النُّقلة[15].

ومع أنَّ التكيُّف قد يحدث للضرورة فإنَّه في معظم الأحيان لا يكون عن رغبة، كما هو حال السّجين الذي لا رغبة له بأن يكون داخل جدران السّجن مقيّد الحرّية، ومع ذلك عبر الزّمن سيتكيّف السّجين مع السّجن كأمر واقع، ومن هنا فالتكيّف في كثير من الأحيان يعدُّ قيدًا على المتكيّف بغير إرادة، ولهذا فشعوب الاتحاد السوفييتي تكيّفت بالقوّة مع ذلك النّظام الماركسي اللينيني سبعين عامًا دون أن تكون لهم إرادة حرّة.

أمَّا التكيّف انتهازيَّةً ففيه من الرّغبة ما فيه؛ ذلك أنَّ الانتهازيَّة وحدها قادرة على قبول الأمر الواقع وإن كان مرًّا

[15] عقيل حسين عقيل، السياسة بين خلافا واختلاف، ص 45 - 47.

مع شغفٍ لشرب المرّ كما هو شغف شرب القهوة واحتسائها مرّة بالنسبة إلى المريض بالسّكري، وهكذا هي الضّرورة تجعلك متكيّفًا وأنت لست بمتكيّفٍ؛ فعلى سبيل المثال: تعدّ مهمة الشّرطة والجيش هي الحفاظ على الأمن في الداخل والحفاظ عليه من الخارج، ومن ثمّ يجنّد الشّباب للجيش والشّرطة، ولكن وللأسف الشّديد في الأنظمة غير الديمقراطيَّة الشّباب يجنّدون لمواجهة من لم يتكيّف مع النّظام وحكومته المحكومة بأمر قمّة السّلطان غير العادل؛ وبذلك يُقمع الشّعب إن لم يتكيّف مع توجّهات الحاكم وآرائه وسياساته الخاصّة، ومن هنا لن يصبح أمام الشَّعب إلَّا أحد الأمرين:

ـ القبول بالأمر الواقع والتكيّف معه سُفليَّة.

ـ رفض الأمر الواقع والثّورة عليه نُقلة.

ولذا في الأنظمة الدكتاتوريَّة تُعد مهمّة رجال الشّرطة، ورجال الجيش مهمّة وضع القيد على من لا يتكيّف مع الأمر الواقع وإن كان مرًّا.

ولذا فالانتهازيَّة بالنسبة إلى الانتهازيين تكسبهم مناعة، وعندما يكتسب الإنسان المناعة من سياسات الأنظمة القمعيّة يستطيع التعايش معها بلا مصادق، فيَتعمّد أن يُظهِرَ ما لا يُبطن حتى لا يشتدّ القيد عليه أكثر من غيره من الرّافضين، الذين بأسباب التكيّف يظهرون مالا يبطنون؛ فهم مع أنَّهم يأملون إحداث النُّقلة إلى التوافق المرضي فإنَّهم يظهرون الرّكون إلى التكيّف وكأنَّه الحلّ.

وعليه: أصبح المواطن في بعض البلدان يتكيّف مع الحاكم ونظامه، وأعوانه، وفي الوقت ذاته يتكيّف مع أعدائه، وهذا الأمر عوّده على أن يتكيّف مع الصّواب كما يتكّيف مع الباطل.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه خُلق ليجد نفسه بين قيم حميدة وفضائل خيّرة، وبين استفزاز الحاجات المتطوّرة في مقابل قصور مشبعاتها، ممّا يدعوه إلى قبول التكيّف بتنازلات، أو أن ينتظر زمن التوافق نُقلة، الذي قد يطول ويجعله على غير أملٍ.

أمَّا تلك الكائنات التي يظنّ البعض أنَّها متطوّرة، نعتقد أنَّ التطوّر يستوجب إرادة تمكّن من اتخاذ قرار من وسط مجموعة بدائل، وهذه الخاصيّة غير متوافرة عند الكائنات التي لم تُخلق في أحسن تقويم؛ ولذلك فالكائنات قابلة لأن تتغيّر، وفقًا لقاعدة التكيّف بأسباب الضّرورة الطبيعيّة، وحتى إن دُرِّب منها ما دُرّب أو عُلّم؛ فهو لن يتطوّر كما هو حال الإنسان وارتقاءه؛ فالإنسان خُلق متميّزًا بخصائص وصفات الارتقاء التي لم تكن من خصائص وصفات بقيّة الكائنات.

ومع أنَّ الكائنات خُلقت على خصائص وصفات، فإنَّ للمفاجآت أثر عليها، فعلى الرّغم من المفاجآت غير أنَّ الكائنات خُلقت على التهيؤ (التهيؤ الخَلقي، والتهيؤ السّلوكي)؛ ومن هنا فالتكيّف يلد مع الولادة خَلقًا، ثمّ يتولّد بعد ذلك تدبّرًا؛ فالكائنات كلّما حسّت أو شعرت بما يعرّضها لما يُقلق، أو يشكّل خطرًا عليها، تتهيأ لمواجهته حيطة وحذرًا؛ ولذلك نجد بعضها يتلوّن مع ألوان البيئة تكيّفًا واختفاءً، وبعضها يتكيّف مع التغيرات الفصليّة والمناخيّة، وبعضها العاقل يتكيّف مع ما يواجهه من إجراءات وأعمال في دائرة الممكن، ومع ذلك يبقي للفعل المضادّ أثره. فالبيئة وإن تكيّفت الكائنات مع متغيّراتها، يظل لمتغيّراتها صفات وخصائص خلقيّة، مثلما للكائنات صفات وخصائص خلقية، ولهذا فالكائن الضّعيف لا يستطيع أن يصمد كثيرًا؛ فكثير من النباتات والحيوانات تعيش

في بيئة معيّنة، وتضعف في بيئة ثانية، ولا تنمو في بيئة ثالثة، أو أنَّها تنمو في بيئة رابعة وثمارها لا تنضج.

فالتكيّف عمليّة ملائمة ومقدرة على التحسّن في بيئات مختلفة من أجل المحافظة على الحياة وبقاء الأجناس والأنواع، وقد يكون باكتساب خصائص جديدة، أو فقدان خصائص كانت سائدة، ممّا يجعل المتكيّف على حالة أو صفة معيّنة لم يسبق له أن كان عليها، وهو قدرة الكائن الحي على الاستجابة للمؤثّرات الطّارئة أو أيّ سلوك تطوّري بهدف البقاء، ومن هنا يستمد الانتهازيون صفاتهم المتبدّلة وفقًا لتبدّل البيئات وبخاصّة السِّياسيَّة منها.

ومع أنَّ النّشوء خَلقي، فإنَّ بقاء الخلائق لا تَساوي فيه؛ فهناك مَن يبقى متكيّفًا حتى النّهاية، وهناك من يزول عدمًا، ومن ثمّ فالتكيّف لا يكون إلّا عن قوّة، سواء أكانت قوّة بدنيّة أم عقليّة أم مناعيّة أم انتهازيَّة.

ومع أنَّ التكيّف قوّة، فإنَّه يكون مع السّالب، ممّا يستوجب تقديم التنازلات من أجل البقاء، فالسّجين على سبيل المثال: إن لم يتكيّف مع السّجن سينتهي حيث لا حول له ولا قوّة.

والتكيّف كما يحدث مع الأمر السّالب يحدث مع الأمر الموجب، ولكن لا يحدث إلّا للضّرورة، ممّا يجعله بين ظاهرٍ وكامنٍ؛ ولذا فعندما تنقلب المفاهيم، تنقلب السّلوكيّات، ويصبح التكيّف الظّاهر لا يعبّر عن الكامن، ومن ثمّ يصبح الكامن متربصًا بفرص النّجاة وقد ينتهزها.

فالتكيّف لا يكون غاية ما دام قائمًا على تقديم التنازلات سُفليَّة ودونيَّة، بل الغاية تحقيق التوازن في عمليّة تفضي إلى المحافظة على النّوع أو الحياة الخاصّة مع وافر التقدير لكلِّ ما من شأنه أن يحدث النُّقلة توافقًا مع الحاجة ومشبعاتها.

ولننظر لما حدث مع بائع الخضراوات (التشيكي) الذي كتب على المحل المرخّص له ببيع الخضراوات فيه (يا عمال العالم اتحدوا) وهو لم يعرف الأبعاد الفكريَّة لهذه المقولة، ولكنَّه يعرف أنَّ كتابة هذه المقولة قد تقيه شرّ الحكومة وظلمها من أجل أن يبيع خضرواته بسلام، وهو غير مكترث بمضمونها الفكري، وهذا يدلّ على شعور داخلي مفاده:

أيّها المشترون أرجو المعذرة، أنا أعرف أنَّ معظمكم مثلى لا يحبّ هذا الشّعار، ولكن الضّرورة الحياتيَّة جعلتني أضعه على واجهة محلي لكيلا ترفعوا رؤوسكم إليه مرّة ثانيه، ولكي تتمكّنوا من اختيار أحسن الخضراوات، وعليكم أن تراعوا ظروفي. لقد وضعته من أجل أن يقال إنَّي صادق، ومن أجل سلامتي وسلامتكم، وأعرف أنَّ أكثركم يعارضه سرًّا، ولكن عليكم أن تعرفوا أنَّ كتابتي هذه تعنى: معارضتي العلنية له، من أجل أن أكون صادقًا معكم، وكاذبًا مع الحكومة التي يرضيها ما لا يرضيكم[16]. ومع أنَّ التكيّف عمليَّة تأقلم من أجل البقاء، وفيه من التنازلات ما فيه عن بعض الصّفات، فإنَّه لا يعدّ ضعفًا ووهنًا، بل الضّعف والوهن يلحق من لا يستطيع تأقلمًا مع البيئات المختلفة فينتهي بلا ثمن.

ولذلك استنتج داروين ما عُرف باسم قانون الانتخاب الطبيعي، فمتى ما يوجد تنازع على البقاء بين الأفراد، واختلاف وتمايز في الصّفات، فإنَّ هذا سيؤدّي إلى أنَّ الكائنات التي تتمتع بصفات تميزها على غيرها كسرعة الحركة أو قوّة العضلات أو طول الرّقبة كالزّرافة مثلاً، ستكون لها الفرصة الأفضل للبقاء وإنتاج مواليد جديدة، في الوقت الذي يفنى فيه خصومها ويزولون، ومن ثمّ يرى أنَّ

[16] الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، المجلد الثاني، الطبعة الأولى، 1988م، ص 26.

التنازع على البقاء له تأثير انتخابي في إزالة غير الصّالح من الأفراد وفي الاحتفاظ بالصّالح، وحيثما يبقى الصّالح حيًّا ويتكاثر يهلك الضّعيف[17].

ولهذا فالتكيّف ارتقاء يُمكّن من الصّمود وتحدّي الصّعاب، ومن يتحمّل أعبائه، يتهيّأ إلى بلوغ المأمول ولو طال زمنه، وفي المقابل التهيؤ انتهازيَّة قد يمكّن من بلوغ المأمول الشّخصاني، ولكنه لن يمكّن من صنع التَّاريخ.

التكيّفُ مظلّة انتهازيَّة:

مع أنَّ التكيُّف فيه من السّلبيَّات ما فيه، فكذلك فيه من تجنّب المخاطر ما فيه، وهذه لا تعد سلبيَّة عندما تكون الغاية من التكيّف اكتساب الفرصة الممكِّنة من التغيير وإحداث النُّقلة.

ولذا فالخلاف بين الأنا والآخر في معظم الأحيان لا بقاء له ولا استمرارية إلَّا تحت مظلة التكيُّف، والخلاف لا يكون خلافًا إلّا بقرار يستوجب تحمّل ما يترتّب عليه من أعباء جسام، وتلك الأعباء الجسام قد تجبر صاحبها بأسباب الضرورة أن يغيّر قراره من الخلاف المعلن إلى الخلاف السرّي تحت مظلّة (التكيّف نُقلة) وفي مثل هذه الأحوال الانتهازيون ينشطون وفقًا لما لديهم من مقدرة على التلوّن في اليوم الواحد ومهما تعدّدت المواضيع واختلفت.

ومع أنَّ المخالف قد يقبل بنصب مظلة التكيّف ليستظل بها، فإنَّه لم ينصبها غاية، بل ينصبها مظلّة بأسباب الضّرورة؛ ولذا فالمهزوم لا خيار له إلَّا المقاومة وتحقيق النّصر، أو

[17] تشارلز داروين، أصل الأنواع، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص 538 - 571.

الاستسلام؛ فإن استسلم ليس له بدّ إلَّا قبول التكيّف مع الوضع الجديد والمتغيرات الجديدة؛ فالتكيّف كونه تطبيعًا علائقيًّا وتجنّبًا للمواجهة والصّدام فهو قبول الأمر الواقع حتى وإن كان الأمر الواقع قيودًا من ورائها سجنًا.

ولذلك فالتكيّف قائم على تقديم التنازلات بالقوّة الظَّاهرة، أو الباطنة، سواء قلّت تلك التنازلات أم كثُرتْ، وبما أنَّ التكيّف لا يتمّ إلَّا بتقديم التنازلات الماديّة عندما يقبل صاحبها بدفع الثّمنٍ المادّي، أو عندما يقبل بتقديم التنازلات المعنويّة، فإنَّ قبوله لتقديم التنازلات لا يدل دائمًا على حسن النيّة، ومن هنا فعندما يُوضع الإنسان المتكيّف في موقف لا يرتضيه لنفسه مع قبوله للموقف كرهًا، أو أن يقبل بأن ينزل منزلة هي أدنى من منزلته ويتكيّف معها إلى حين انتهاء الظرف والضّرورة فإنَّه بلا شكّ سيكون متربصًا بأوَّل فرصة تمكِّنه من النيل من أولئك الذين أكرهوه على اتخاذ التكيّف مظلة سُفليَّة ودونيَّة.

والتكيّف لا يكون غاية طالما هو تجنّب للصّدام وقبول التطبيع العلائقي القائم على تقديم التنازلات بالإكراه، بل الغاية من ورائه هي التي تؤدّي إلى القبول والرِّضا في عمليّة توازن تفضي إلى المحافظة على المال، والنّفس والكرامة حتى تحين الفرصة ويتم اكتسابها نُقلة ورفعة.

إذن نتيجة الخلاف دائمًا طرفان متواجهان سرًّا أم علنًا؛ فسرٌّ: في زمن قبول التكيّف، أمَّا العلن، فقبل زمن قبوله، أو بعد انقضاء عهده، ولا يكون الخلاف إلَّا على المضمون ظاهره أو كامنه؛ قال تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى}[18].

[18] عبس 3، 4.

فمع أنَّ هاتين الآتين جاءتا حُجّة لرسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، إلّا أنَّهما جاءتا درسًا لبني الإنسان على وجه العموم، وللمؤمنين على وجه الخصوص، حتى لا يسود الخلاف بينهم، ومن هنا وجب التبيّن، وإلَّا بالضَّرورة سيكون الخلاف واجبًا بين الحقّ والباطل؛ ولذا لا يمكن أن ينتهي أو يزول الخلاف ما لم تنتهِ وتزول المظالم التي بزوالها تفسح الطريق أمام الرّاغبين في إحداث النُّقلة توافقًا وليس انتهازيَّةً.

ومع أنَّه لا علاقة للتكيُّف مع الرّغبة فإنَّ للتكيّف علاقة مع التَّحسُّن؛ ذلك لأنَّ الأحوال قبل التكيّف لا تكون إلَّا سيئة، أمَّا من بعد التكيّف وإن كانت التنازلات عنوانها فالأحوال تتحسّن؛ ولذا فالتكيّف سلبيّة لا يكون اختياريًّا إلَّا من شخص انتهازي، ووفقًا للضرورة، التي تدعو للتأقلم مع المتاح بدون اختيارات ولا بدائل؛ ولذا فكلّما تغيّرت البيئات الطّبيعيَّة أو الاجتماعيَّة تغيّرت الصّفات الظاهريَّة للكائنات أشكالًا وألوانًا وصفات؛ ولهذا فلتكيّف لدى الأسوياء لا يكون إلَّا تلوّنًا وتبدّلًا حتى تتاح الفرص لإحداث النُّقلة والنّهوض المأمول رفعة.

الانتهازيَّون والتضاد الفكري:

الانتهازيّون وفقًا لمصالحهم يستغلّون جَمِيعِ الوَسائِلِ لِتَحْقِيقِ مآربهم الشّخصانيَّة على حِسابِ مصالحِ الآخرين وحقوقهم سواء أكان الآخرون أفرادًا أم جماعات أم المجتمع كلّه؛ ومع أنَّ الانتهازيَّة تُفعل وتتجسّد في السُّلوك فإنَّها ليست بنظريَّة فكريَّة؛ ذلك أنَّ النظريّات العلميّة والفكريَّة لا تؤسّس إلَّا على القوانين الضَّابطة للمبادئ، أمَّا الانتهازيَّة فلا قوانين تضبطها ولا مبادئ، بل كلّ شيء بالنسبة إلى الانتهازيين يتبدّل ويتلوّن.

ومع أنَّ الفِكَر (مجموع الفكرة) لا تولد إلَّا من عقول المفكّرين فإنَّ الانتهازيين ينشطون ساعة ولادة التضاد الفكري الذي تترتّب عليه أفعال وأعمال من ورائها تجنى المكاسب والثِّمار، فالانتهازيون ليسوا بأصحاب فكرٍ، ولكنَّهم المتربّصون بولادة الثِّمار؛ ولهذا فهم ينشطون وعيونهم على الثّمار وليس على الفكر؛ ولذا لا تصدق الانتهازي إذا سمعته يَلعن الشّيطان فهو كلّما لعنه مرّة قبَّل رأسه مرَّات.

ومع أنَّ التضاد الفكري يولّد الحوار ويمكِّن من معرفة الجدل، ويثري النّقاش، ويعطي الفرصة لمن يريد اقتناصها واستثمارها فإنَّ البعض دائمًا به يتربصون بغاية انتهاز أيَّة مبادرة قد تنجم عنه وهم بلا مواربة يرتدون ألبسة متناقضة الألوان.

ومن هنا فإنَّ الفكرة تضادّ تحملها الكلمة وبها تُدفع وهي تحمْل قضيَّة تقدِّم حلّا يُخرج من التأزُّمات؛ فيسود الفرج الذي فيه تحلّ السّكينة والأمن محلّ ما يؤدّي إلى الخوف؛ فالفكرة مكمن الأسرار، والعقل يُرشِدُ إليها عن تدبّر، والفكرة يسترشد بها عن دراية ومعرفة، ومع ذلك الفكرة يمكن أن تباع وتشترى في أسواق المنافسة الحرّة، وقد تُسرق وبها يتم انتهاز عقول النَّاس.

ولذا فالفكرة وما ترمي إليه من مقاصد مأمولة هي نتاج ذلك المحيّر الذي استفزّ المفكرين وجعلهم شغفون بحثًا، وأصحابها دائمًا يأملون من الآخرين التوقّف عندها حتى التبيّن، ومع أنَّ الفكرة مكمن الأسرار، فإنَّها من حيث معرفتها ووضوحها في ذهن صاحبها المتدبّر أمرها لم تكن كامنة، بل ظاهرة وضوحًا ومعرفةً، ولكنَّها كامنة عن الآخرين حتى تُنتج أبداعًا مضافًا لما سبق من إنتاجٍ فكريٍّ.

فالفكرة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع قد يُعظّم أصحابها، وقد يُحقّرون؛ فهي قد تفتح أمامهم آفاق سوق العمل، فتُسهِم في حلّ التأزُّمات، وقد تضيّق سوق العمل عندما تنتج ما يحلّ محلّ الإنسان دون أن تجد له بديلًا نافعًا؛ فتزداد البطالة وتتّسع دائرة الحاجة أمام ارتفاع كُلفة مشبعاتها وتزداد التأزُّمات تأزُّما.

والفكرة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع دائمًا ذات تأثير سالبٍ أو موجبٍ؛ فالذي يُنتجها فكرًا يعدّها إضافة موجبة، أمَّا مستغلّها ومنتهز مبادراتها فإن وجد فيها ما يضرّ قد يتبناها ويحيلها صناعة لإنتاج المضرّ؛ وذلك مثال الذّرة، التي اكتشفت نفعًا ولكنَّها وظّفت فيما يضرّ قنابل وصواريخ، ومن هنا أصبحت الفكرة تباع في الأسواق بفاعليَّة تضادّها سالب بسالب، وموجب في مواجهة سالبٍ، وسالبٍ في مواجهة موجبٍ.

إنَّها الفكرة المتضادة التي لا يمكن التخلّص منها إلَّا بالفكرة التي تنتج ما يفيد وينفع ويحقّق الطّمأنينة لمن افتقدها بمواجع وفواجع الفكرة المضرّة.

ولمتسائل أن يتساءل:

هل الفكرة هي علّة التضاد بين أهل الشّرق (المسلمين) وأهل الغرب؟

أقول:

نعم.

فتلك الفكرة التي أنتجت رؤية لاحتلال واستعمار الأوطان جعلت للعداء تاريخًا يصعب محوه ما لم تسوّى القضايا المطالبة بالتعويض؛ فذلك الاستعمار (نتاج الفكرة)

الذي جاء غازيًا للدّول وبخاصّة التي لها معتقد ديني لا يسمح لها أن تركع ولا تسجد إلَّا لله تعالى، عليه أن يفكّر في تسوية موضوعيَّة مؤسّسة على التقدير والاعتبار، أمَّا الفكرة التي تؤدِّي إلى مزيد من التهديد والمواجهات لا تزيدهم إلَّا إصرارًا على قبول التحدِّي مع مزيدٍ من الرّغبة في نسف جسور الخوف؛ ذلك لأنَّ معتقدهم جعلهم بين خيارين:

أ ـ النّصر.

ب ـ الاستشهاد.

وعليه فمن يقول (الله أكبر) من أعلى المآذن يعلن أنَّه قد نزع الخوف من نفسه بمخافته الله؛ ولهذا من يعتقد أنَّه قادرٌ على إخافته سيجده شجاعًا؛ حيث لا مكان في نفسه لاستقرار الخوف، وإن حدثت المواجهة من أجل إحقاق الحقّ سيجد نفسه مُقدِمًا على المواجهة وبلا تردّد؛ كونه متأكدًا أنَّه قد ضمن النتيجة المرضية (نصرًا أم استشهادًا) أي بالنسبة إليه في الحالتين لا هزيمة.

وقد يتساءل البعض:

وما هي المبرّرات التي أقنعته بأنَّها لا هزيمة؟

أقول:

بدون شكّ المبررات هي؛ الخوف من الله تعالى.

وعليه أنَّ ما يجري في أوطان المسلمين هو مولود الفكرة (فرّق تسد)؛ فكانت الفُرقة بين المسلمين (إيرانيون وعرب) و(أفغان وباكستانيون وأتراك) و(مسلمون هنود ومسلمون باكستانيون) و(سنّة وشيعة) و(حماس وفتح) و(إخوان وبعثيون وناصريون، وشيوعيون وحكومة وشعب....إلخ)

و(عرب وأمازيغ) و(طوارق وزنوج) إلى جانب (عرب مسلمين، وعرب مسيحيين، أكراد، وعرب دروز، وتركمانستان....الخ)، وفوق كلّ هذا فالمسلمون جميعهم وبخاصّة العرب منهم متّهمون بأفعال الإرهاب والتطرُّف؛ ولكي تكتمل الفكرة تأسّست دولة (إسرائيل) في فلسطين عن قصد لعلّتين رئيستين هما:

أ ـ كُره صاحب الفكرة للعرب، ليعاقبهم بمن يكره.

ب ـ كُره صاحب الفكرة لليهود، جَعله يقرّر عِقابهم مرَّتين:

الأولى: سلبهم حقّ المواطنة الذي أقرَّه لهم في أوروبا، وكذلك سلبهم دورهم التجاري فيها.

الثَّانية: لتنتقل الاضطرابات من أوروبا وتُدفع إلى خارجها، ويتمّ القضاء عليهم من قبل الذين عبر التَّاريخ لم يستسلموا لعدوٍّ من أعدائهم، ولكن لن يُسمح لهم بالقضاء عليهم إلَّا بعد أن يؤدّوا رسالتهم تخريبًا وفتنةً وتفكيكًا للمكوّن الاجتماعي العربي كما سبق أنْ أدّوها في أوروبا وعوقبوا عليها تقتيلًا وتحريقًا وتهجيرًا وتشريدًا.

وعليه: فإنَّ كره صاحب الفكرة لكلٍّ من اليهود والعرب، هو الذي جعله يتّخذ قرار إقامة دولة إسرائيل في أرض العرب (فلسطين)، وللتَّاريخ شواهد على كرههِ لبني إسرائيل؛ حيث جاءت الحركة الصّليبيَّة وما صاحبها من تطرُّف ديني وهوس لتصبَّ مزيدًا من السّخط على نيران الكراهيَّة ضدّ اليهود الذين اشتهروا بالتّجارة كما اشتهروا بالمراباة في استغلال الفقراء في أوروبا، ممّا جعل نيران غضب الفقراء في أوربا تشتعل ضدّ اليهود الذين يعتبرونهم المفسدين فيها.

ولما كان المرابون في أيِّ مجتمع محلّ كراهية النَّاس وحقدهم، فإنَّ الغطاء الدِّيني الذي وفّرته الحركة الصّليبيَّة وانتهزته للغضب ضدّ اليهود يسّرَ لجموع الصّليبين الهائجة أن تنتقم لنفسها من المستغلّين؛ فكانت مذابح سنة 1096 ضدّ يهود شمال غرب أوروبا، وكانت كلّ حملة صليبيَّة تالية ترتكب مذابح مماثلة ضدّ اليهود؛ بحيث عاشت الجماعات اليهوديَّة بشكلٍ مستمرّ في ظل العزلة والخوف. ولقد امتدّت النزعة العدائيَّة لليهود باعتبارهم هم من أعداء المسيح والكنيسة؛ فكانت المذابح متوالية ومنها: مذابح اليهود في لندن ويورك في 1189- 1190 في بريطانيا. ومذابح ضدّ اليهود في إسبانيا ارتكبتها المسيحيَّة في قرطبة وغرناطة، وحتّى الأرثوذكس المسيحيين في أوروبا الشَّرقيَّة لم يتركوا فرصة للاعتداء على اليهود إلَّا واستغلّوها، ومنها مذبحة اليهود خلال انتفاضة الأكران الأرثوذكس في 1654-1648[19].

ومنذُ بدايات الاتصال والتدافع بين الأوروبيين واليهود والعداء مستمرّ بينهم، والقيود القانونيَّة تُسن ضدّ اليهود إلى سبتمبر عام 1791؛ حيث تمّ تحرير اليهود في فرنسا بإزالة أشكال التمييز العنصري القانوني ضدّ اليهود، ومنحهم حقوقًا متساوية مع غيرهم من مواطني البلد؛ ففي سبتمبر عام 1791، منح البرلمان الفرنسي اليهود حقوق المواطنة، ثمّ تمَّ تحرير اليهود بعد ذلك في اليونان عام 1830، وفي بريطانيا عام 1858، وفي إيطاليا عام 1870، وفي ألمانيا عام 1891. ورغم أنَّ المساواة المدنية التي مُنحت لليهود كانت قانونيَّة، إلَّا أنَّ يهود أوروبا ظلوا يلاقون مضايقات من خلال معاداة

[19] Posted by FILKKA ISRAEL at Wednesday, February 18, 2009

السَّاميَّة والتمييز الاجتماعي؛ فجاءت مذبحة 9 مارس عام 1936 ببولندا؛ حيث اندلع عُنف قُتل فيه ثلاثة يهود وجُرح أكثر من ستّين آخرين في مدينة برزايتايك، وبعدها امتدّت نيران الكُره اشتعالًا إلى المدن المجاورة، وقبل انتهاء المذبحة، قُتل ما يقارب من 80 يهوديًّا وجُرح أكثر من 200 يهوديّ.

وفي التّاسع من نوفمبر 1938م بدأت السّلطات الألمانيَّة تقوم بهدم منازل اليهود وممتلكاتهم، وفي السّنة التّالية 1939م كان قد رُحِّل عدد كبير من اليهود إلى بولندا، واستقرّ أغلبيتهم في وارسو، وكان آنذاك عدد اليهود 400 ألف يهودي تقريبًا، لكن هتلر كان وراءهم بالمرصاد؛ فضيّق عليهم سُبل الحياة، وكانت فكرة هتلر لإبادة اليهود من العالم قد دخلت حيّز التنفيذ بالقوَّة العلنيّة منذ مجيئه إلى السُّلطة في سنة 1933م، وبدأ بمطاردتهم من كلِّ النّواحي، وحرمانهم من العمل، ومطالبتهم كذلك بدفع الضَّرائب، هذا الأمر في حقيقته لم يكن إلَّا بداية انتقام هتلر من اليهود؛ حيث كان يعيش في ذلك الوقت حوالي ثلثي يهود العالم في أوروبا، وعندما غزت الجيوش الألمانيَّة روسيا في يونيو 1941 أعدَّ هتلر خُطَّة قتل جماعي، لكلّ اليهود وجمع اليهود في معسكرات خاصَّة على أساس وجود مهمَّة عسكريَّة، ثمّ أُصدرت الأوامر بأن يحفر كلّ واحد منهم قبره بيديه، ثمّ اصطفّ اليهود صفّا واحدًا بجوار قبورهم وأطْلِقَ عليهم الرّصاص، ولم يكتف هتلر بهذه الطريقة في إبادة اليهود ومحو آثارهم من العالم، بل أعدَّ لهم طرقًا أخرى للموت؛ حيث أقام لهم الألمان أفرانًا خاصّة لحرقهم، واستمرت عمليَّة الإبادة إلى 1945م.

وعليه: عندما انكسرت منظومة القيم الأخلاقيَّة والإنسانيَّة في أوروبا سادت الانتهازيَّة على حساب هويَّة اليهود تشريدًا

وتهجيرًا وتقتيلًا، وأسواء مثال على ذلك تلك الإبادة الهتلريَّة لليهود التي كانت نتاج دوافع انتقاميَّة؛ فكان الانتقام شرسًا بعلل ما سبّبه اليهود من تخريب للاقتصاد الألماني وما قاموا به من فتن لتفكيك وحدة الشّعب الألماني وإذلاله.

وهنا يذكِّرنا تاريخ 09 نوفمبر 1938 بتلك الفكرة الانتهازيَّة، فكرة تقسيم فلسطين لدولتين (اليهود والفلسطينيون)؛ حيث كانت اللجنة الملكيَّة البريطانيَّة التي ترأسها (الإيرل بيل) قد نشرت تقريرها في شهر تموز سنة 1937م واقترحت فيه حلًّا لمعضلة فلسطين بواسطة مشروع للتقسيم، تنشأ بموجبه دولة عربيَّة مستقلة وأخرى يهوديَّة، ثمّ أعلنت عزمها على إسقاط اقتراح التقسيم ومحاولة إيجاد تفاهم بين العرب والإسرائيليين عن طريق المفاوضات المباشرة في لندن[20].

وعليه: فإنَّ كُره الأوروبيين لليهود في أساسه هو أشدّ كرهًا من كرههم للعرب، ولأنَّ الأمر كذلك قرّر الأوروبيّون ما أقرّته بريطانيا دولة لليهود في فلسطين (أبعد المكروه وأدفعه تجاه المكروه تشتدّ التأزُّمات بينهم وتأمن)، إنَّها فكرة في عالم السِّياسة لا تساويها فكرة في الدّهاءِ والانتهازيَّةِ.

إذن فكرةٌ هذا حالها، ما هو المقصد من وراءها؟

المقصد إشعال نار الفتنة في الأمَّة التي لا تركع إلَّا لله تعالى لعلّها تركع، ومع أنَّهم يعرفون جيّدا أنَّ من يركع يقينًا لله لن يركع لأحدٍ، إلَّا أنَّهم واثقون على الأقل أنَّه من الممكن أن تتمّ المواجهة بين أبناء الأمَّة تجاه بعضهم بعضًا؛ فتُبثّ الفوضى ويُبثّ الرّعب والفساد والتخريب في المؤسَّسات وإفساد الذّمم والنّظم السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، كي

[20] هتلر قاهر اليهود، 2009.

يجد صاحب الفكرة مبرّرًا للتدخّل، وهذا ما تخفيه الفكرة في ثناياها.

ونحن نعتقد أنَّ الفكرة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع كالبذرة تُزرع بذرة؛ فتنتج بذورًا؛ ولذا فتلك الفكرة التي نضجت وقُطفت ثمارها ذات مرّة ومرّة (احتلال يليه احتلال)، و(تقسيم يتبعه تقسيم)، هي اليوم من جديد قد بُذرت انتهازيَّةً في الأرض المهيّأة لها؛ فظهرت أوراقها فوضى في الصّومال والعراق وسوريا وليبيا واليمن، وهي كذلك في غيرها بذرت ولكنَّها على قوائم الانتظار.

وما نراه مستهدفٌ مِن قِبل مَنْ بَذر بذور الفتنة في الوطن العربي هو الجيوش العربيَّة؛ إذ الغرب لا يريد جيوشًا عربيَّة قويَّة؛ ذلك لأنَّهم أمَّة مخيفة بالنّسبة إلى الغرب؛ كونهم يعرفون أنَّها أمَّة لا تركع إلَّا لله تعالى؛ ولهذا كانت أولويَّات تغيير الأنظمة بما سمّي بثورات الرَّبيع العربي كسر القوةَّ القتاليَّة للجيوش العربيَّة؛ ومن ثمَّ فلا جيش وطني عراقي من بعدها في العراق، ولا جيش في اليمن، ولا جيش في ليبيا، ولم يبق سالما الَّا الجيش المصري الذي قراء قادته المشهد قبل أن يقعوا في الفخِّ، أمَّا الجيش التونسي فهو جيش دفاعي ومن ثمَّ فلا يرونه مخيفًا.

ومع أنَّ شعوب ثورات الرَّبيع العربي قد انعتقت من قيود الدِّكتاتوريَّات؛ فإنَّهم قُيِّدوا بكتائب ومليشيات مسلّحة خارجة عن الضَّبط الوطني هويَّة وسيادة.

ومع أنَّها خارجة عن القيد الوطني قيمًا وفضائلًا؛ فإنَّها ليست بخارجة عن التبعيَّة للغير، الغير الذي يمدّها بالدّعم سواء أكان لوجستيًّا أم أسلحة وأموالًا تبقيها على قيد الحياة حتى يتم التأكّد أنَّه لا بقايا لتلك الجيوش، ومن باب الحرص

عليها جاءت الفكرة فتنة أن تكون جميع الكتائب والمليشيات على خطوطٍ متوازية؛ حيث لا لُحمة بينها؛ وذلك بغاية استخدامها وفقًا لتلك الفكرة الملعونة فرّق تسد.

ومع أنَّ لكلِّ قاعدة استثناء فإنَّ قادت الكتائب والمليشيات أصبحوا أغنياء، ومع أنَّ البعض يشير إليهم بأنَّه لا غاية لهم إلَّا جمع المال فإنَّ البعض يقول: إنَّ جُلَّهم قد عرَّضوا أنفسهم إلى المخاطر من أجل الدِّفاع عن مدنهم وقراهم أو قبائلهم وأهاليهم، وقد قبلوا تحدّي الصِّعاب كلٌّ في دائرته، ومن هنا أصبح في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع كلّ شيء قسمة بين المغتنمين والمنتهزين.

ولأنَّهم يمتلكون خصائص المواجهة في أثناء الاقتتال؛ كونهم قبلوا دفع الثَّمن؛ فقد وضع أصحاب تلك الفكرة الأعين والأيدي عليهم انتهازيّة؛ بغرض الحفاظ على سلامتهم كقوى يعتمد عليها متى ما يشاءون وفقًا للفرصة المستثمرة، أو وفقًا لتلك الانتهازيَّة المستغلّة؛ كونها القوّة الخارجة عن إدارة الدّولة والقابلة للاستخدام؛ وبخاصَّة أنَّ أصحاب تلك الفكرة لهم مقدرة عالية على إحياء تلك الفتن النَّائمة؛ فأصحاب تلك الفكرة ما زلوا يظنّون أنَّ بقيا تلك الجيوش المخيفة ما زالت لم تقبر في بلدان ثورات الرَّبيع العربي، مع علمهم أنَّه لم يتبقى من تلك الجيوش إلَّا الشّيوخ والعجائز.

ولمتسائل أن يتساءل:

لماذا يري أصحاب تلك الفكرة أن تبقى تلك الكتائب والمليشيات المسلّحة على خطوطٍ متوازية؟

بالطّبع إذا توحّدت تلك الكتائب والمليشيات فإنَّه من المتوقَّع أن تحلُّ محلّ الجيش، وهذه بالنِّسبة إلى أصحاب تلك الفكرة الملعونة لا تُقبل بالمطلق.

وماذا يعني؟

يعني أنْ تبقى متعدّدة ومتخاصمة ومتعادية قدر الإمكان حتى يتم بلوغ ذلك اليوم الذي رسمته تلك الفكرة؛ إذ إنَّ تلك الكتائب والمليشيات كلَّها تأسَّست على عناصر فنائها فيها. أي لا شكَّ أنَّها ستتقاتل بعد ما يتم استخدامها في مقاتلة من لا يقبله أصحاب الفكرة، وهكذا ستكون المعارك سجالًا بينها، أو بينها وما تبقى من مشايخ وعجائز تلك الجيوش التي كسَّرتها الفكرة. وما تبقى من تلك الجيوش حتى وإن كانوا عجائز وشيوخ لا بدَّ أن تُخلق لهم المعارك، وتُدفع لهم الأموال، ويتم دعمهم بالأسلحة المتنوِّعة بغاية مفادها كما يقولون: (فُخَّار يكسّر فُخَّار). أي لا للجيش المقاتل وطنيًّا، ولا للكتائب والمليشيات المقاتلة في دوائر حواضنها الاجتماعيَّة؛ ولهذا فالمواجهات بينها أمرٌ محتومٌ وفقًا لما رسمه أصحاب تلك الفكرة الذين ينتهزون الكبيرة والصغيرة؛ ولذا فلا إمكانيَّة لإجراء الانتخابات في ليبيا التي من فوق الطَّاولات تعد المطلب الرَّئيس لأصحاب الفكرة، ومن تحت الطَّاولات هم الذين يعملون على تأخيرها في كلّ مرة وبأكثر من علّة.

ومع أنَّ مبعوثي الأمم المتحدة في اثناء لقائهم بي قد طلبوا مني في كلِّ مرّةٍ أن أقدّم لهم رأيًا ومشورة أو نصيحةً تجاه ما يخرج ليبيا من تأزُّماتها، فإنّني استشعرت منهم في كلّ اللقاءات التي جرت معي أنَّهم يريدون في الوقت الواحد الشَّيء ونقيضه: (يريدون رأيًا يمكّن من الحلِّ، ولا يرغبون الأخذ به)؛ ولهذا كانت مددهم دائمًا تنتهي بدون إيجاد حل؛ وهذا ما حدث مع السّيد كوبلر الذي جاء لمقابلتي في القاهرة؛ حيث كنت أقيم هناك في أثناء فترة بعثته إلى ليبيا. وبالتمام حدث مع السّيد الدكتور غسان سلامة الذي اتصل بي وكنت حينها في تركيا فطلب اللقاء معي فيما يخصّ الشأن الليبي،

وأينما أكون، واتفقنا أن نلتقي في تونس وكان كذلك، وقال في أثناء المكالمة الهاتفيّة إذا لم تستطع أن تأتي إلى تونس أنا أتي إليك أينما شئت، ثمَّ قال: لقد نصحت بأن التقي معك، وهذا ما قاله لي بالتمام السّيد كوبلر، وكذلك قاله لي السّيد الدّكتور عبد الله باتيلي الذي التقيت معه في طرابلس؛ حيث مكان الإقامة الرَّئيس، ولقد قدّمتُ إلى جانب المقابلات والمناقشات للسّيد الدّكتور غسّان سلامة، والسّيد الدّكتور باتيلي صفحات وفيها من الحلول ما فيها، وفيها من البدائل ما فيها، ومع ذلك ولأسف الشَّديد أرى ما زال الشيء ونقيضه هو الحل المطلوب للقضية الليبيَّة من قبل المبعوثين الأمميين؛ ذلك لأنَّ القضيَّة الليبيَّة مدوَّلة، ومن ثمَّ فلن يُحلّ المشكل الليبي إلَّا بحلٍّ مدوّل، ومتى ما شاء أصحاب الفكرة استغلالًا أو استثمارًا (انتهازيّة أو إعطاء فرصة).

أمَّا الذين يرون أنَّه لا حلّ للمشكل الليبي إلَّا (ليبي ليبي) فهم وللأسف الشّديد أصحاب نوايا وطنيّة طيّبة ونظيفة؛ وذلك لأنَّ رؤوس المشهد السِّياسي الليبي مع أنَّهم متخالفون؛ حيث لا وحدة رأي تجمعهم، فهم متّفقون على أنْ لا يصل الشّعب الليبي إلى حلٍّ؛ وذلك لمعرفتهم التَّامَّة أنَّه إذا وصل الليبيون إلى اتفاقٍ وحلٍّ سيكونون جميعًا خارج المشهد؛ ولهذا فهم مختلفون من فوق الطَّاولات، أمَّا من تحتها فهم متفقون.

وعليه: فلا حلّ إلَّا بقرارٍ دولي، وهذا لا شكَّ أنَّه سيتم وسيحدث، ولكن زمنه ليس بأيدي الليبيين، بل بأيدي أصحاب تلك الفكرة التي تقول: (الفخَّار يكسّر الفخَّار)؛ ومن هنا كان الهجوم على مدينة طرابلس الذي جُمِّع له المقاتلون مع وافر العتاد والعدّة؛ حتى بلغ مشارف العاصمة، بل وقد تمكّن من جزء من مداخلها، وعندما استشعر أصحاب الفكرة أنَّ الجيش سيحقّق نصرًا يعيد الرُّوح المعنويَّة لبقايا ذلك الجيش وإن كان

شائخًا؛ فكسّروه بضربات كادت أن تقضي عليه كاملًا لو لم ينسحب إلى الخلف؛ حتى وصل إلى تلك النِّقاط التي يراد له أن يتمركز فيها، شريطة أن يكون على حالة من التَّأهَّب لمواجهة العدو المفترض افتراضًا.

وكانت النتيجة المترتّبة على ذلك:

ـ إذكاء نار الفتنة والعداء بين المتقاتلين (جيشًا وكتائبًا ومليشيات)، ومع هذا فهناك من بينهم من يقف ضدّ ما جرى.

ـ إذكاء نار الفتنة بين السِّياسيين (رؤوس المشهد السِّياسي) في زمن الاقتتال الذي دار بين الليبيين فتنة، ومع ذلك بقي مجلس النّواب واحدًا، وبكلِّ ما فيه من علل فإنَّه العلّة الملتحفة برداء الديمقراطيَّة؛ حتى وإن كانت فاقدة للصّلاحيَّة، ومع ذلك فكل شيء في دائرة الممكن بين متوقّعٍ وغير متوقّعٍ، ولا استغراب إن أصبح مجلس النّواب أكثر من مجلسٍ أو حتى في خبر كان.

ـ إذكاء مشاعر الجهويَّة الإقليميَّة (شرقًا وغربًا وجنوبًا) ومع ذلك كان لرجالات الوطن كلمتهم (ليبيا واحدة لا تنقسم).

وحتى لا يقال أنَّني أريد للجميع مخرجًا موجبًا أقول: من بعد التغيير في السَّابع عشر من فبراير 2011م، هناك من السّلبيَّات الكثير، وعلى رأسها:

ـ سيادة لغة المغالبة والإقصاء لرجالات الوطن.

ـ العزل السّياسي لأهل الدِّراية والتجربة والخبرة.

ـ القضاء على وحدة الجيش الوطني الليبي.

ـ التفريط في السِّيادة الوطنيَّة والهويَّة الوطنيَّة؛ حيث لا وحدة رأي بين الليبيين، والحدود مفتوحة على مصارعها، ومخابرات العالم ترتع كما ترتع الذئاب مع الخراف.

ـ إنَّ جُل الذين تولوا مناصبَ في الدّولة الليبيَّة (في أثناء زمن الفتنة) جعلوا لأنفسهم أذرعًا تفرض بقائهم في مناصبهم وتحميهم، على الرُّغم من انتهاء مددهم التي أقسموا اليمين عليها؛ ومن ثمَّ بقوا كرهًا على الليبيين على الرُّغم من انتهاء صلاحيَّاتهم كما تبقى تلك الأدوية الفاقدة للصّلاحيَّة من غير صلاحيَّة صالحة للبيع.

ـ أصبح في الدّولة الواحدة حكومتان ولكلٍّ ميزانيَّة يتصرَّف فيها وبدون رقابة خاضعة لسيادة الليبيين، ومع ذلك التمس عذرا لمن كلّف أو عيّن في منصبٍ رقابيٍّ؛ كونه لا يمتلك القوّة الدَّستوريَّة والقانونيَّة المتفق عليها وطنيًّا، ثمَّ ليست له كتائب لبسط نفوذه على ربوع إدارات الدَّولة؛ ففي زمن الفتنة والفوضى ليست للأجهزة الرّقابيَّة إلَّا كتابة التقارير وفقًا لما يتوافر لديهم من معلومات، ومع ذلك فكثير من التقارير لا يستطيعون نشرها كونها تتعلّق بالحكومة الفاسدة، ولكن سيظل الزّمن كفيل بالتقصّي والتتبُّع وكشف الحقائق حتى تحين الفرصة لذلك وحينها الكلّ يعرف أنَّ قضايا الفساد الوطني لا تنتهي بالتَّقادم.

ـ أصبح في الدَّولة مجلسان يختلفان في المهام ويتخالفان على المصالح؛ وهذه بالنِّسبة إلى أصحاب تلك الفكرة الملعونة هما على صواب، بل ينبغي أن يظلان على ما هما عليه مع مزيدٍ من التمسُّك بهذه الاختلافات والخلافات من أجل أنْ لا تقوم الدّولة الوطنيَّة برؤية وطنيَّة.

ـ الدّولة الليبيَّة إلى يومنا هذا (ساعة الكتابة) دولة بلا دستور، وبلا حكومة وطنيَّة واحدة، وبلا جيش واحد، وبلا أمن داخلي واحد، وبلا أمن خارجي واحد، وبلا شُرطة وطنيَّة واحدة، ومع ذلك يطلب منها أن تجري انتخابات سريعة وديمقراطيَّة وشفَّافة، ألا يكون ذلك من أكبر أضحوكات العالم.

وفي هذا الشَّأن أود أن أقول شيئًا إيجابيًّا: إنَّه على الرُّغم ممّا ذكرناه فإنَّ الأمن يكاد أن يكون سائدًا، وبشكل لا يصدِّقه من يقرأ ما كتبناه في الأسطر السَّابقة. بطبيعة الحال الشّرق والجنوب الليبيين تحت سيطرة ما جُمِّعَ من الجيش وما أضيف إليه من حيويّة، أمَّا في العاصمة طرابلس فالأمن مريح جدًّا على الرُّغم من غياب الدّولة ومؤسَّساتها الوطنيَّة، وحتى إن وجدت أجهزة أمنية وشُرطيَّة فهي محميَّة بكتائب تحوطها من كلِّ جانبٍ، ولهذا المواطن لو سئل من أيِّ شخصٍ كان: أين تسكن، وتحت حماية مَن؟ سيجيب بلا تأخير ولا تردّد تحت حماية الشَّيخ (الفلاني) الذي هو رأس كتيبة من الكتائب المسلّحة المعترف بها في العاصمة، وله حدود مع أكثر من كتيبة مسلّحة هي الأخرى تخضع لحماية شيخٍ آخر معترف به أو أنَّه من المتمرّدين.

ومن مظاهر الاستغراب في المشهد الليبي أن توجد حكومتان لدولة واحدة:

ـ حكومة تمَّ اختيارها مِن قِبل لجنة الخمسة والسَّبعين، وهم الذين تمَّ اختيارهم من قِبل المبعوثة الخاصَّة للأمم المتحدة بالوكالة السيِّدة ستيفاني وليامز الأمريكيَّة، التي تولّت اختيار حكومة لليبيين، وفقًا لأسلوبها الخاصّ، وطريقتها الخاصَّة، التي أدارتها بعنايةٍ بين ترغيبٍ وترهيبٍ؛ وذلك في مناخٍ كان يسمح بالشّراء والبيع؛ حيث إقدام البعض على شراء

الأصوات من قِبل الذين ارتضوا أن يبيعوا كرامة أصواتهم على حساب كرامة الوطن. فهذه الحكومة تشكّلت بأصوات الذين ارتضوا أن تباع كرامة أصواتهم على حِساب كرامة الوطن (سيادة وهويَّة). حكومة تشكّلت وفقًا لاختيار تلك اللجنة المسماة على عدد أعضائها (75) الذين جميعهم لم يتمّ اختيارهم من قبل الليبيين لهذه المهمَّة التي فُرضت عليهم من قبل أصحاب تلك الفكرة الملعونة فرضًا.

ـ أمَّا الحكومة الثَّانية فقد تمَّ اختيارها مِن قِبل مجلس النّواب الليبي، وهي الحكومة التي لم تنل الاعتراف من قبل أصحاب تلك الفكرة؛ ذلك لأنَّ أصحاب تلك الفكرة لم يقبلوا بالحلّ الليبي ليبي، ولهذا فهم ما زالوا غير مقرّين بعد، متى سيكون الإعلان من فوق الطَّاولات عن الحلّ الليبي ليبي؛ ولهذا فلم يبق متاحًا لليبيين إلَّا قبول التعامل مع المبعوثين الأمميين الذين يُرسلون بغاية تقديم المساعدة، ولكن الذين بعثوا كانوا هم الذين في حاجة للمساعدة.

ومع أنَّ العالم كلّه وافق في العام 2011م على تغيير النِّظام في ليبيا وطي صفحة العقيد معمر القذافي، فإنَّه اليوم لم يعد قادرًا على إجاد توافق دولي يخرج الليبيين من تأزُّماتهم؛ ذلك لأنَّ الخلاف بين الرُّوس والغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكيَّة؛ فلا إمكانيَّة للاتفاق على كثيرٍ من القضايا الدّوليَّة وفي مقدّمتها الملف الليبي؛ حيث وجود قوَّات الفاغنر الرّوسيَة على الأراضي الليبيَّة وهي القوَّات التي تمّ استخدامها هجومًا على العاصمة حتى بلوغها مشارف المدينة وإيقافها عند أبوابها ومداخلها الرّئيسة؛ فكيف لها أن تخرج وقد ترى أنَّها قد دفعت الدّم على التراب الليبي من أجل الليبيين وإن كانوا منقسمين ولا يزالون. مع العلم هناك محاولات من أصحاب الفكرة بدفع الليبيين تجاه المواجهة مع قوات الفاغنر

ومقاتلتها، ولكن معظم الليبيين تدارسوا هذا الأمر، ولم يقبلوا مقاتلة الفاغنر، ليس حبّا فيها، بل مقاتلة الفاغنر ليس بالأمر الهين، وإنَّ الليبيين يرون بأمهات أعينهم كلّ يوم جنود القوات المتعددة الجنسيات تحت غطاءات متعدّدة بين خبراء داعمين، وأصدقاء مناصرين، وكتائب مأجورة، ومن ثمّ فأي قتال سيكون الليبيون فيه هم الضّحيَّة.

والليبيون الآن في حاجة لحكومة وطنيَّة؛ رئيسها وأعضاؤها غير قابلين للبيع ولا الاشتراء، ومحتاجون لمجلس نواب منتخب غير فاقد للصَّلاحيَّة، وجيش وطني يحمي الحدود ويصون الهويَّة ويحافظ على السِّيادة الوطنيَّة، ودستور وطني يؤسّس الدَّولة الليبيَّة على سُلطةٍ يتمُّ تتداولها سلميًّا؛ حيث لا معزول، ولا مقصي ولا مغيب بالإكراه. وهم أيضًا محتاجون إلى سيادة لا مركز لها إلَّا الشَّعب، وثروة لا احتكار فيها ولا حرمان، ومحتاجون إلى عِلمٍ ناهضٍ يمكِّن بدوره من إحداث النُّقلة، ويُمكِّن من رعاية صحيَّة، ويمكِّن من بلوغ جميع الغايات المأمولة ونيلها.

العقل بين الانتهازيَّة وإعطاء الفرصة:

مع أنَّ الانتهازيَّة مليئة بالمعيبات فإنَّها لا تكون إلَّا وليدة العقل الذي جُلّ النَّاس يظنّون أنَّه الميزة الرَّئيسة التي ميّز الله بها الإنسان عن بقيَّة خَلقه، وفي هذا الشّأن غفل البعض عن حاثة ذلك الغراب الذي بيّن للإنسان ما لم يتبيّنه من قبله؛ حيث اراه كيف يواري سَوْءَةَ أخيه: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي}[21].

[21] المائدة 31.

ولأنَّه العقل؛ فإنَّه لا يَعقل إلَّا ما يرى من مشاهداتٍ وملاحظاتٍ، ثمَّ يَعقل من بعده ما يسمعه من قولٍ، ولكن بعد إخضاعه للغربلة والتقييم، ثمَّ يقرأ ليعرف معارف النَّاس وعلومهم التي لم يكن شاهدًا عليها؛ ومن هنا لم يعد امام العقل إلَّا تذكّر الماضي، وتدبّر الحاضر، واستقراء المستقبل والتطلّع إليه. والعقل بين هذه وتلك يجد ذاته في حيرةٍ بين انتهازيَّة واستثمار واستغلال، مما يجعل الأبواب أمامه مفتَّحة استثمارًا وكسبًا حلالً، أو استغلالًا واغتنامًا وانتهازيَّةً لا خير فيها.

ولذا فالعقل لم يكن مزوّدًا بالعلوم والمعارف خَلقًا، بل العلوم والمعارف تُعلَّم؛ ولهذا فأبونا آدم عليه الصَّلاة والسَّلام ولد عقلًا قاصرًا إلى أن انبأه الله وعلّمه حتى أصبح بعلم الله يَعلم وينبئ: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[22].

وعليه: فإنَّ العقل في دائرة الممكن بإمكانه أن يفكّ التأزُّمات وفي ذات الدّائرة بإمكانه أن يزيدها تأزُّمًا؛ ولذا فالمظالم لا تكون إلَّا نتاج عقل؛ الذي مثلما ينتج الفكرة لصناعة المستقبل يمكنه أن ينتج فكرًا فيه من المظالم ما فيه؛ ولهذا كان مقصدنا بحثًا كيف يمكن للعقل الإنساني أن يصنع مستقبلًا ويغتنم فرصة يمكنه استثمارها أو أن يرتكب المظالم وبكل انتهازيَّة.

إذن ينبغي أن نميّز بين المفاهيم المتداخلة في عقول البعض؛ حتى لا تصدر العقول أحكامًا ليست موضوعيَّة: فمفهوم (اغتنم)، مضاد لمفهوم (أضاع)؛ ولذلك فالاغتنام لا

[22] البقرة 33.

يكون إلَّا أخذًا عن غير إعطاء، وفي المقابل الإضاعة لا تكون إلَّا لما يعطى، ومن هنا نقول: (ينبغي أنْ لا تضيع الفرصة عندما تعطى)، أي عندما تسنح لك الفرصة لا تستغلها، بل استثمرها؛ ذلك أنَّ الاستغلال لا يكون إلَّا على حساب جهد الغير، أمَّا الاستثمار فيه من النمو ما فيه ولا انتهازيَّة.

وعليه: فالفرصة لا تكون إلَّا بين أمرين: إمَّا أن تضيع، وإمَّا أن تُكتسب، وفي المقابل: الانتهاز لا يتم إلَّا والفرصة غائبة؛ كونه يتم بدون إعطاء فرصة؛ ولهذا فالفرصة تتاح وتكتسب، أمَّا الاغتنام فيؤخذ عنوة، أو عن غفلة، أي لا يتم الانتهاز إلَّا بغفلة الطّرف الذي تمَّ استغفاله، أو الذي تمَّ غزوه. فالغزاة لا يغزون إلَّا من أجل غنيمة (غنيمة سلاح أو غنيمة مال أو غنيمة وطن بكامله)؛ ولذا فإنَّ مفهوم الغزاة فيه من الأوجه ما فيه: (فيه الغزو اعتداء وظلمًا، وفيه غزو الغزاة حقًّا وعدلًا).

فمن غزا من أجل كلمة حقّ ينبغي أن تُقال وتُحقَّ في مرضاة الله فإنَّ خير غزوته يكمن في مغزاها خيرًا، وهكذا فمن غزا قاطع طريق فلا مكمن لشرِّ غزوته إلَّا وفي مغزاها شرًّا.

ويتضح الفارق المفهومي بين من غزا هاديًا ومُبشّرًا بواحديَّة الله ومصلحًا في الأرض ومستثمرًا فيها، ومن غزاها كافرًا أو مشركًا ومفسدًا فيها؛ أي الفرق كبير بين من غزاها هاديًا (قيمة وفضيلة)، ومن غزاها محتلًّا ومستغلًّا لثرواتها وناهبًا لها ومستعمرًا لمواطنيها.

ومن هنا فلا يمكن أن يستوي مغزى مَنْ يَرشُدك هاديًا، ومغزى من يضلّك عن سبيل الهداية والرَّشاد.

ومع أنَّه لا قيمة للشّيء ما لم يكن له مغزى؛ فإنَّه لا قيمة للمغزى إنْ لم يكن في سرّهِ حكمة؛ وهي التي لا تولد إلَّا عن دراية أو استنارة أو هداية؛ ومن هنا إذا لم يكن الغزاة على الدِّراية والهداية والاستنارة فلا سبيل لهم إلَّا الضَّلال.

وعليه: فعندما يكون الغزاة مغزاهم ضلالًا فلا إمكانيَّة للهدايةِ والرَّشادِ، ولا إمكانيَّة للعدالة والنزاهة، ولا إمكانيَّة لكفّ الأيدي عن ارتكاب المجرّم والمحرَّم؛ ولهذا كانت غزوات الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام على البيِّنة والدّراية والهداية؛ حيث لا ضلال ولا ارتكاب لمحرَّمٍ ولا مجرَّمٍ، ولا مكانة أمامه لقاطع طريق ينهب الأموال والمتاع أو يهلك الزَّرع ويظلم، ومن ثمَّ فلا مكان للانتهازيين بين صفوفه ومريديه.

وعليه: فإنْ كان الغزو فكرًا ساد الفكر الغازي على حِساب الفكر المغزو، وإن كان دينًا غازيًا ساد الدِّين الغازي على حساب الفراغ المغزو دينًا؛ ولهذا فالغزو انتشار وتمدّد على حساب انكماش وتقوقع؛ ومن هنا فإنَّ مفهوم الغزو يدلُّ على اتساع دائرة الامتداد من أجل حقّ يحقّ، أو على حساب إحقاقه انتهازًا.

ومن ثمَّ فالانتهازيون يمكن أن يحققوا نصرًا ولكن لا يمكن لهم أن يصنعوا مستقبلًا أو يرسوا عدالة؛ ولذا فكل الانقلابات العسكريَّة على الأنظمة الدّيمقراطيّة هي انقلابات غازية بغير حقّ، تسلب السُّلطة لتحتكرها، ثمّ تعمل على توريثها لمن خلفها من الأبناء، وهكذا هم الانتهازيون يظهرون ما لا يبطنون حتى يبلغوا غاياتهم التي لا تكون إلَّا على حساب الغير.

إنَّ انقلابات الانتهازيين لا تعمل على صنع المستقبل؛ ذلك أنَّ صُنع المستقبل يؤسّس وطنًا فيه المواطنون يسودون دون سيادة مظالم، الرّجل والمرأة والصّغير والكبير هم رأس مال الوطن، ممّا يجعل ثروة الوطن ملكًا للجميع، والتعليم حقًّا للجميع، والصَّحة حقًّا للجميع، والخدمات المتميّزة حقًّا للجميع، والأمن حقًّا للجميع، وأداء الواجبات حقٌّ على الجميع، وحمل المسئوليَّة عبئًا يحمله الجميع، وكلّ وفق قدراته واستعداداته ومهاراته وتخصّصه وتأهيله وصلاحيّاته واختصاصاته، مع تقديم أفضل رعاية للمعاقين والعجزة والمرضى ورعاية من لا عائل لهم ولا راعٍ.

وفي المقابل لا تكون الانقلابات الانتهازية إلَّا غازية للأوطان بغاية الغنيمة التي تمكّن الرّؤوس الغازية للسُّلطة والمنتهزة لها من التربّع على قمّة السُّلطان؛ فيصبح أولئك الانتهازيون وكأنَّهم وطنٌ على حساب الوطن؛ ومن ثمّ تُسن القوانين والدَّساتير التي تجعل الدّفاع عن المنقلبين (الغازين للسُّلطة والمنتهزين لها) وكأنَّه الدّفاع عن الوطن بكامله؛ ولذا فإنَّ الانقلابات لا تزيد عن كونها غزوات ينبغي أن تقهر في مهدها قبل أن يشتد عضدُ رؤوسها.

والانتهازيّون الذين ينتهزون تلك الشّفافيَّة التي بها تدار أمور النَّاس وشئونهم، وبها يقدّر النَّاس ويحترمون هم الذين ينقلبون على تلك السُّلطة الشّفّافّة؛ ومن ثمَّ لس لهم إمكانيَّة لتأسيس دولة ديمقراطيّة؛ فهم كونهم المستغلّون لذلك المغتنم (الاستيلاء على السُّلطة) ليس لهم إلَّا السيطرة بالقوّة على مقاليد الدّولة؛ ليحوّلوا الدّولة كلّ الدّولة إلى ما يشبه المزرعة الخاصّة، فيشكّلون حكومة لا تزيد عن كونها أداة للحاكم الانتهازي، حكومة لا علاقة لها بالنّهوض، ولا يمكن أن تعمل شيء إلَّا عن توجيهٍ من رأس ذلك النِّظام الذي انتهز ما أعطي

إليه أو كلِّف به فانقلب على السُّلطة؛ ولذا فالنّظام الانتهازي إذا وضع نفسه أو حكومته في كلّ مكان في الدّولة وغيّب النَّاس عن المشاركة الفعَّالة، فلن يجد له ولا لحكومته مكانةً ولا مكانًا بين النَّاس[23].

ومن ثمّ عندما يصبح الشَّعب مشاركًا في إدارة شئونه سياسةً واقتصادًا واجتماعًا فلن يعد لأجهزة الأمن ذلك الدّور التشكيكي في المواطنين، بل دورها يصبح كيف تغرس الثّقة بين أفراد الشّعب، وكذلك لم يكن دورها مطاردة المنحرفين لمعاقبتهم، بل دورها من أجلهم جميعًا بغاية الإصلاح، ثمّ إحداث النُّقلة في نفوسهم من أجل مستقبلٍ أفضل، وهكذا سيكون دور رجال البوليس احترام المواطنين وتقدير ظروفهم وتفهُّم أحوالهم، أي العمل بشكلٍ وثيق مع المواطنين لتحسين مستويات الجماعة المحليَّة والسُّلوك المدني واستخدام الثَّقافة والاقتناع والتشاور بدلًا من توجيه الاتّهامات بغير حقّ؛ ولذلك تسنّ القوانين التي ترشد إلى ما يجب وتنهى وتحذِّر وتحرّم ما لا يجب، ثم تعاقب دون مظالم؛ ومن هنا تصبح تقويّة القانون ضرورة من أجل ممارسة الحرّيَّة وبكلّ شفافيَّة.

وفي مقابل ذلك من أهم الأدوار التي يجب أن تمارس دون غفلة هو دور الأسرة في رعاية أبنائها؛ فتشرُّب القيم الحميدة والفضائل الخيّرة من مهام الأسرة أوَّلًا، وثانيًا التعليم الذي له من الأدوار ما يجعله المنقذ والمرشد؛ فلم تعدّ أهداف التعليم مقتصرة على تعليم الأجيال كيفيَّة المحافظة على الأعراف والتقاليد الحميدة، بل إنَّها تتجاوز ذلك إلى تعليم الأجيال كيفيَّة دخولهم مجالات الاقتصاد الحديث، وكيف يتمكّنون من التغيير؟ وكيف يفكّرون؟ وفيما يجب أن يفكِّروا؟

[23] المصدر السابق. ص 130.

أنَّه التعليم المؤسّس على المعرفة الواسعة التي من معطياتها (فكّر وأنت تفكّر فيما تفكّر فيه).

وعليه: فإنَّ الدّولة الدِّيمقراطيَّة هي دولة صناعة المستقبل الذي فيه الرَّفاهيَّة قصدًا، ولا مجال فيها للانتهازيين الذين إن مكّنوا من وظيفة استغلوها نهبًا وسرقةً وظلمًا؛ ولهذا فالدّول التي يتربّع الانتهازيّون على مقاليد أمرها السّياسيّة والاقتصاديَّة والاجتماعيّة والعسكريَّة لا يمكن أن تعيش مجتمعاتها الرَّفاهيَّة حتَّى إن ادّعت الدّولة بأنَّها دولة الرَّفاهيَّة. فدولة الرَّفاهيَّة هي الدّولة التي يمتلك مواطنوها أمر السِّيادة الوطنيَّة، ويمارسون حقوقهم بإرادة، ويؤدّون واجباتهم بإرادة، ويتحمّلون مسئوليَّاتهم بإرادة، ومع ذلك لا يمكن أن يعيش الأفراد حالة الرَّفاهيَّة إلَّا إذا كانت حاجاتهم مشبعة، ونفوسهم آمنة مطمئنّة؛ فالرَّفاهيَّة كما قال عنها أنطوني جيدنز هي: "في جوهرها ليست مفهومًا اقتصاديًّا ولكنَّها مفهومًا نفسيًّا يهتم بالحياة الأفضل"[24]. وبما أنَّها ذات مفهوم نفسي فلا يمكن أن يعيشها المرضى والشحَّاتون الذين يملؤون شوارع المدن في كثير من البلدان التي تدّعي أنَّها تمارس الديمقراطيَّة وتدّعي أنَّها تعمل من أجل ترسيخ السّيادة الوطنيَّة، ولا يمكن أن يعيشها التُّعساء الذين تسطير عليهم هموم ارتفاع مستوى المعيشة في مقابل فقدانهم لما يشبع الحاجات الضروريَّة.

ولأجل التغيير من حالة التّعاسة إلى حالة الرَّفاهيَّة ينبغي إلَّا يكون التركيز على تقديم المساعدات؛ فالاستمرار في تقديمها يجعل الاتكال والاستمرار في طلبها مستمرًّا.

---

[24] أنطوني جيدنز، الطريق الثالث " ترجمة مالك أبو شهيوة، ومحمود خلف". طرابلس: دار الرواد، 1999م ص 165.

ولذا فإنَّ الرَّفاهيَّة نسبيَّة، فما يمكن أن يحقّق الرَّفاهيَّة اليوم قد لا يكون عنصرًا أساسيًّا في تحقيقها مستقبلًا؛ فالحاجات متطوّرة ومتنوّعة ورغبات البشر كذلك متنوّعة ومتطوّرة، وهذه بدورها ذات علاقة قويَّة بمدى تحقيقها لمجتمع الرَّفاهيَّة من عدمه، ولهذا ستظل الرَّفاهيَّة أمل بالنّسبة إلى النَّاس كما هم يأملون بلوغ السّعادة[25].

ومن ثمَّ فإنَّ الانتهازيّون دائمًا هم العائق الذي لا يسمح للتّعساء بأن يطووا صفحات التعاسة، ولا يعترفوا بطي صفحات الجريمة، ولا بطي صفحات الاستغلال، ولا يمكن لهم أن يفكّروا في صنع المستقبل النَّاهض الذي فيه الحاجات تتطوّر وتشبع.

فالانتهازيون يعرفون جيّدًا أنَّه كلّما ازداد عدد المنحرفين في الدّولة كلّما استمروا وكأنَّهم الملائكة تمشي على الأرض؛ ذلك أنَّ غاياتهم أن يلهوا النَّاس في معاناتهم حتى لا يلهوا بهم ويطووا صفحاتهم.

العقل نُقلةُ استخلاف بلا انتهازيّة:

العقل وعيًا ليس له إلَّا العمل النَّاهض، والعقل غفلةً ليس له إلَّا السُّفليَّة والدّونيَّة، وبين هذه وتلك يستمدّ الانتهازيّون حيويّتهم تغفيلًا وتجهيلًا وتخلّفًا، ومع أنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم؛ ليكون خليفة في الأرض؛ فإنَّه لم يحافظ على حُسن خَلقه كلَّما ساءت أخْلاقُهُ؛ ولهذا بعث الله الأنبياء والرُّسُل مصطفين، ومرسلين لأقوامهم، ومدنهم، وقُراهم، وشعوبهم، وقبائلهم ليدعونهم إلى التوحيد، والهداية، ومع ذلك كفر من كفر إلَّا قليلًا منهم، وانتهز من انتهز إلَّا قليلًا منهم.

---

[25] عقيل حسين عقيل، ربيع الناس من الاصلاح إلى الحل، القاهرة، 2011م، ص 196 - 220.

أمَّا الخليفة فهو مَن يستمدَّ صفاته من صفات خالقه تعالى ليعمل بها في الأرض إصلاحًا، وفلاحًا، وإعمارًا، ولا يكون من المفسدين فيها، ولا سافكي الدِّماء بغير حقٍّ، ولا يكون من أولئك الانتهازيين الذين لا يرون أهميَّة للمعياريّة التي بها الشّعوب تنهض وتصنع مستقبلًا وتبلغ أملًا.

ومن الملاحظ أنَّ لفظة الخليفة في النّص القرآني وردت بصيغة التنكير التي تحمل دلالة الإطلاق المنفتح غير المتحقّق على اسم شخص بعينه؛ ولهذا كانت البداية لورود اسم الخليفة بداية لتشكل نمطًا معرفيًّا للصُّورة التي يكون عليها النسق المراد تحقّيقه في الاستخلاف في الأرض.

ولم يكن أمر الخلافة مرتبطًا بـ(آدم) فقد وردت في سياقات أخرى إنَّها مرتبطة بمن يعمل عملًا صالحًا كما جاء في النّص القرآني: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}[26].

أمَّا قوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[27]. يفهم من هذه الآية الكريمة أنَّ غايةً عظيمةً تأتي من وراء استخلاف داوود عليه الصَّلاة والسَّلام وهي: الحكم بين النَّاس عدلًا، ويحذّره الله تعالى أن يكون من أولئك الانتهازيين الذين إن حكموا ضلوا عن الحقّ وانتهاج سُبله؛ وبناء على ما جاء في هذه الآية الكريمة لا حكم عدلًا إلَّا بين

[26] النور: 55.
[27] ص، 26.

النَّاس، ومن ثمَّ فعلينا أن نميّز بين: (حكم النَّاس)، و(الحكم **بين** النَّاس):

الأولى: أنْ يتم حكم النَّاس وفقًا لما يرضي ربّ النَّاس.

والثَّانية: أنْ يتم الحكم بينهم كما هم يرتضون؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}[28]؛ ذلك لأنَّ العدل مُرضٍ لكلّ النَّاس، وهذه الآية الكريمة تؤكد على أنَّ الحكم بين النَّاس، وليس حكم النَّاس؛ ولذا فالذين يحكمون بين النَّاس بالعدل هم الخلفاء بارتضاء النَّاس.

وعليه: فالخليفة العدل هو الذي بحكمه العدل يصلح الأرض ولا يفسد فيها، ولا يسفك دمًا بغير حقّ؛ فقال: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاس)، ولم يقل: (إذا حكمتم النَّاس).

ولذا كان استخلاف داوود في الأرض ليحكم بين النَّاس بالحقّ دون انتهازيّة بها يتم انتهاز الظّروف السّاكنة واستغلالها في اثناء تحرُّك الرِّمال، وقد يتساءل البعض:

هل يمكن أن يكون الحكم بين النَّاس بغير عدل؟

أقول: نعم في دائرة الممكن قد يتم الحكم بين النَّاس باتباع الهوى الذي نهى عنه الله تعالى في قوله: (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى)، وهذه هي الانتهازية بعينها ذلك لأنَّ الانتهازيين بطبعهم الانتهازي يستغلون الهوى على حساب العدل.

وقد يقول قائلٌ:

بما أنَّ الحكم بين النَّاس في دائرة الممكن قد يميل بالهوى انتهازيّةً إذن فلا استغراب من أيّة سلوكٍ انتهازي أو عمل انتهازي، فالحاكم عندما يتولّى مقاليد الحكم في البلاد بإرادة

[28] النساء، 58.

النَّاس الذين أوكله أمرهم وائتمنوه عليه، ثمَّ يستغل ذلك المنح الذي أعطي إليه ويحيد به عن مراميه العادلة يعدُّ انتهازيًّا ووجب تغييره متى ما توافرت الإرادة والمقدرة والاستطاعة وإلَّا فسدت البلاد؛ ومن هنا فالفرق كبير بين من يحكم النَّاس، ومن يحكم بينهم، فالذي يحكم النَّاس يكون الأمر كل الأمر بيده، والذي يحكم بين النَّاس يكون الأمر كل الأمر بيد النَّاس؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[29].

وعليه: فمن يؤمن برسالة محمَّد: (الإسلام) يكون خليفة بما استخلفه الله به في الأرض ألا وهو القرآن، كما استخلف من قبل نوحًا، وقومه الذين آمنوا بما جاء به نوح عليه السَّلام، وهكذا كان من بعده الاستخلاف وفقًا لأمر الله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ}[30]، استخلاف جيلٍ بعد جيل، قال تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتا فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[31].

وعليه: فالمستخلفون هم الذين لا يفرّقون بين أحدٍ من رُسُله، فمثل عيسى كمثل آدم الذي اصطفاه الله على من خلق من ملائكة وجان وعلَّمه الأسماء جميعها؛ ولذلك يجب إلَّا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير.

ولأنَّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، فهو خلقه لرِسالة؛ ولأنَّ له رسالة؛ أُستخلف بها في الأرض ليُصلح فيها، ولا يفسد، ولا يسفك الدِّماء بغير حقّ؛ ولهذا اصطفى الله

---

[29] الشورى: 38.
[30] الأعراف، 69.
[31] الأعراف: 74.

الرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم برسالات الإصلاح المؤسّسة على قاعدة الاستخلاف في الأرض، التي استوجبت مخلوقًا في أحسن تقويم، وهكذا الاستخلاف من بعدهم لا يكون إلَّا برسالة، ولأنَّ رسالة محمَّد صلوات الله وسلامه عليه هي الرّسالة الخاتمة، إذن لا خليفة إلَّا ويكون على الرّسالة؛ ولهذا فمن أسلم وجهه لله كان خليفة، ومن لم يسلم فقدْ فَقَدَ شرطًا رئيسًا للاستخلاف وهو اتباع الرّسول والأخذ بالرِّسَالة.

ومع أنَّ محمَّدًا كان نبيًّا رسولًا؛ فإنَّه كان معلمًا ليُعلِّمَ، وليُفصِّل الآيات الربَّانيَّة بكيفيَّة تُمكِّن المهتدين من الممارسة، والعمل، والسُّلوك وتجنّبهم عن الرّكون إلى الانتهازيَّة.

وبالعودة إلى قراءة معطيات تلك العصور وعبر التَّاريخ كانت أمَّة الإسلام كلَّما انتكست أو انكسرت أعادت البناء نهوضًا، أمَّا في عصورنا هذه فقد ألمَّ البياد بها فوهنت، وشاخت. أي في تلك العصور كانت حضارة: (العرب عاد) لا مثيل لها: {لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}[32]، ومع ذلك أهلها طغوا، وكفروا بنعمة الله عليهم، فبعث فيهم رسولًا؛ ليرشدهم إلى التي هي أحسن فلم يهتدوا؛ فكانت الانتكاسة على رؤوسهم بأيديهم كفرًا، وطغيانًا: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا}[33]، إنَّها الانتكاسة من القصر إلى الخيمة، من الحضارة إلى فيافي الصَّحراء، إنَّها حضارة العرب التي كانت: (جَنَّاتٍ وعُيُونٍ)، والتي من بعد أصبحت في خبر كان، ولم يبق شيء في مركز الحضارة: (حضرموت) إلَّا الخيمة، التي نُسجت من شعر المعز، ووبر الإبل.

---

[32] الفجر: 8.

[33] هود: 58.

ولأنَّ العرب أهل حضارات فكلَّما انكسروا في حضارة بنوا غيرها؛ فهم من بعد حضارة: (عرب عاد في حضرموت) بنوا حضارة: (عرب ثمود في شمال الجزيرة العربيَّة)، {وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}[34] فأولئك العرب بلغوا من التقدُّم ما جعلهم ينقلون المياه في الصَّخر العظيم يجري وكأنَّه وادٍ؛ ليروي الأرض زراعة، حتى قُهرت الحاجة فيهم، وأصبحت الحضارة عنوانهم دون أيَّة انتهازيّة أو مروق من العدالة والحضارة النَّاهضة رفعةً.

وهكذا كان لحضارات العرب مراكز متقدِّمة في وادي النيل: أهرامات عملاقة تعدُّ من إحدى العجائب السَّبع التي ما زالت شاهدة على سيادة حضارة العرب: {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ}[35]، وكذلك حضارة عرب بابل ذات الحدائق المعلَّقة التي هي الأخرى تعدُّ إحدى عجائب الدُّنيا السَّبع في العالم القديم، ومع أنَّ حضارات العرب قد زالت فإنَّ بعض آثارها لا يزال شاهدًا على التَّاريخ الحضاري، فَسدُّ مأرب العظيم في اليمن، ومملكة سبأ التي ذُكرت ملكتها في القرآن لخير دليل على تقدُّم العرب ثقافةً، وعلمًا، وسياسةً، واجتماعًا، فالعرب قبل انتكاسات حضاراتهم سبقوا العالم في تبوَّء المرأة القمم السُّلطانيَّة؛ كونها لم تُعد عورة، وفي عهد تلك الملكة كانت الدِّيمقراطيَّة شورى: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرا حَتَّى تَشْهَدُونِ}[36] كما أنَّها، والملك سُليمان عليه السَّلام كانا عَلَمين من أعلام قِمم التقدُّم الحضاري للعربِ؛ مصداقًا لقوله تعالى: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا

---

[34] الفجر: 9.
[35] الفجر: 10.
[36] النمل: 32.

رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّة}[37] فقال لها النَّبيّ سُليمان: {إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ}[38].

تلك من شواهد حضارات العرب التي كلَّما انتكست لهم حضارة انكسروا خيامًا، والمرأة تُصبح عورة؛ ومن بعد تلك الحضارات عاش العربُ سنين الظُّلمة يتَّخذون من دون الله أربابًا، حتى بعث الله فيهم رسولًا منهم: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}[39].

جاء الدِّين الإسلامي منزَّلًا على رسولٍ من العرب، رسولٍ للكافَّة؛ غايته أن يعلِّمهم الكتاب والحكمة؛ لينهضوا مما هم فيه من تخلُّف، وعبوديَّة إلى ما هو أعظم تقدّمًا، وأكثر ارتقاءً، وحريَّةً؛ إذ: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[40].

ومع أنَّ محمَّدًا عربيٌّ من قريشٍ، فإنَّه الرَّسُول الخاتم وللكافَّة؛ ولهذا كانت المدينة المنوَّرة وجهته الحضاريَّة؛ لتأسيس الدَّولة على الشُّورى ديمقراطيًّا، لقد اختار رسول الكافَّة المدينة؛ لأنَّها المسمَّى الحضاري الذي يحتوي الكلَّ، ولا مغالبة، ولا عصبيَّة، وهذا يشير إلى ولادة سياسةً جديدة، حكمتها العدل، والبناء والإعمار، كما يشير إلى: (كفاية يا زمن الخيمة، كفاية يا زمن العصبيَّة، كفاية يا زمن الانكسار). إنَّه زمن الرِّسالة التي ربطت العلاقة بين السّماء والأرض عدلًا، لا مكان فيه للمنتهزين الذين كلّما تهيَّأت لهم الظّروف

---

[37] النمل: 44.
[38] النمل: 44.
[39] الجمعة: 2.
[40] البقرة: 256.

إعطاءً خانوا ذلك العطاء واستغلوا العباد وأفسدوا في الأرض سُفليَّة ودونيَّة.

في زمن الرّسُول الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام وفي المدينة بالتحديد كان الأمر بين النَّاس شورى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}[41]، أي: في عهدك يا رسول الله لا تقرّر أمرًا يخصَّهم نيابة عنهم، أمَّا من بعدك فالأمر بينهم لا يكون إلَّا شورى في كلِّ ما يتعلَّق بهم من أمر، فتأسَّست الدِّيمقراطيَّة بينهم على مبدأ: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[42]؛ ومن ثمَّ كان العِلمُ، والفلسفةُ، والحكمةُ جنبًا إلى جنبٍ مع الفتوحات هدايةً وعمرانًا، حتى الأندلس التي ما زالت شواهد الحضارة: (العربيَّة الإسلاميَّة) فيها على قيد الحياة قِبلة السَّائحين في العالم.

ولأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام، كان عازمًا على النُّهوض بالعرب بالإسلام، عمل على تأسيس مجتمع المدينة؛ ليكون أنموذجًا للحياة المدنيَّة، والحضاريَّة؛ وذلك بغاية التخلُّص من حياة القبيلة (العصبيَّة) فوثَّق ذلك في وثيقة المدينة (الميثاق الوطني)، التي ساوت بين سُكَّانها بمختلف أديانهم، وألوانهم، وأعراقهم، إنَّهم: (أمَّة واحدة)؛ إذ لا مكان لمستغلّ في زمن محمّد عليه الصَّلاة والسَّلام، وحتى الذين حاولوا في زمنه أوراقهم مزّقت أمام العدالة الربَّانيَّة التي جاء بها محمّد مرسلًا، وبها سيّر المدينة شورة فيما لم ينزل بشأنه أمرًا من السّماء.

وعليه: فإنَّ اختيار الرَّسُول: (للمدينة المنوَّرة) مقرًّا لتأسيس الدَّولة جعل التطابق بين: (اسم المدينة، وصفتها)، أي إنَّ اسمها المدينة، وصفتها المدنيَّة، ورسالتها التمدُّن بغاية

---

[41] آل عمران: 159.

[42] الشورى: 38.

التحضُّر؛ ولذا فاختيار المدينة في ذاته يدلُّ على روح القصد من الاختيار وهو الارتباط بالمدينة؛ كونه المحقق للرِّفعة، وتبوُّء المكانة؛ إذ لا تفريق فيها بين أهلها ولا عصبيّة جاهليّة وإن تفرَّقت عروقهم، وأديانهم. ولتبيان القصد من وجهة نظرنا أتساءل:

لماذا اختار الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام المدينة المسماة: (المدينة)، ولم يختر غيرها من المدن التي لم تسمَّ باسم: (المدينة)؟

أقول: الوثيقة الوطنيَّة وحدها تجيب نصًّا: "بسم الله الرَّحمن الرَّحيم هذا كتاب من محمَّد النَّبيّ: (رسُول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش، وأهل يثرب، ومن اتبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم. إنَّهم أمَّةٌ واحدة من دون النَّاس"[43]. في عهد الرَّسُول كانت الشُّورى بينهم وبينه عليه الصَّلاة والسَّلام، أمَّا من بعده فأصبح الأمر بينهم شورى كما سبق تبيانه؛ ومع أنَّ للشّورى أهميَّة ومغزى فإنَّ الانتهازيّين قد ينتهزنها في غير محلّها وبخاصَّة أنَّ أكثرهم لا يعقلون، ولا يفقهون، ومجرمون وكاذبون وفاسقون ومفسدون.

نُقلةُ الخلافة بلا انتهازيَّة:

ولأنَّه لا خلافة لرسول إلَّا برسالة أو نبأ عظيم؛ فإنَّه لا إمكانيّة لمنتهزٍ وإن ادعى النبوّة؛ ذلك أنَّ أبواب الانتهاز لا تكون إلَّا في دائرة الممكن بين النَّاس، أمَّا بين الخالق والمرسلين فلا إمكانيّة، فهذه العلاقة لا تكون إلَّا بين معجز ومستحيل.

---

[43] محمود بسيوني شريف، الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان، المجلد الثاني، دار الشروق، القاهرة، 2003.

ومن هنا يُظهر الله رُسُله على المعجز، ولا يظهرهم على المستحيل وإن عرّفهم عليه؛ ولذا فلا إمكانيَّة للانتهازيّة ولو كان رأس إبرة، أي لا إمكانيّة إلَّا إذا ولج الجمل في سَمِّ الخياط: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ}[44]؛ ذلك لأنَّ الرَّسُولُ عليه الصَّلاة والسَّلام لا يصطفيه إلَّا الله، والله تعالى لا يُخلِفَ رسولًا برسولٍ إلَّا بنبأٍ أو رسالةٍ، سواء أكانت رسالة للخاصَّة: (القوم، والمدينة، والقبيلة)، أم للعامَّة: (رسالة كافَّة)؛ ولهذا لا يخلفُ الرَّسُول إلَّا رسولٌ، ومن ثمَّ فقد انتهى زمن الاستخلاف باستخلاف الرَّسُول الخاتم: (محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام)، أمَّا من بعد الرُّسُل الكرام فلا خلافة لأحدٍ؛ أي: لا يمكن لعبدٍ أن يكون خليفة للرَّسول، والله لم يصطفه لذلك.

ولهذا فمسمَّى خليفة رسول الله لا ينطبق مفهومه مع مفهوم الاستخلاف، الذي يربط العلاقة بين السَّماء والأرض، فبعد انتهاء فترات بعث الرُّسُل صلوات الله وسلامه عليهم، أصبح الأمر بين أيدي بني آدم، وفقًا لرؤاهم، ومدى ارتقائهم، وأخذهم بالفضائل الخيّرة، التي أمر بها الخالق، ففي زمن الرُّسُل لا وجود للأنظمة الحاكمة؛ بل الأمر كان بين السّماء والأرض إنباءٍ ورسالاتٍ: (أنبياء ورُسُل)، أمَّا بعد الرّسالات والرُّسُل؛ فالأمر أصبح بين النَّاس شورى، وفقًا للإرادة، والحقِّ، والرّغبة، والمقدرة، والحاجة المتطوّرة عبر الزَّمن: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[45]، والشورى هنا: لم تكن خاصّة بالمسلمين، بل هي الحلّ؛ فمن شاء الحلّ فعليه بها ديمقراطيَّة بلا مكاره.

---

[44] الأعراف 40.

[45] الشورى: 38.

ومن هنا كان الخلاف في معظمه بين من يحكم من، ومن يأخذ بما أنزلت به الرّسالات الخالدة ارتقاءً، ومن يتخلّى عن ذلك دونيّةً وانحدارًا، ومن يرى الحريَّة حيث لا إكراه، وبين من يراها تمدّدًا خارج الحدود، ومن يراها لا تكون إلَّا وفقًا لما يفيد الأنا، أو طائفته، أو قبيلته، أو حزبه، أو مدينته، وفي المقابل هناك من يرى الحريَّة عدالة يستظل الجميع تحت مظلتها حقوقًا تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسئوليَّات تُحمْل، وبين هذا وذاك لا يزال بنو آدم مختلفين والانتهازيَّة بينهم لن تنقطع إلَّا بعد دراية وعلم واستنارة، وسيظلون هكذا مختلفين إلَّا من رحم ربّك: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّة وَاحِدَة وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[46].

ولأنَّ الخلاف لن ينتهي بين بني آدم، فبينهم سيظل حيثما بقوا على أرض الاعوجاج دُنيا، ولا استغراب أن يخالف بعض النَّاس بعضًا، ولا استغراب أن يتصادم بعضهم مع بعضٍ، ولا استغراب أن يصبح المنتهزون على قمّة السُّلم السُّلطاني، ولكن الاستغراب إلَّا تُصحّح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة، تدفع تجاه الحلّ دون هيمنة، ولا حرمان؛ أي لا ينبغي أن يُلغى الاختلاف، بل ينبغي أن يلاحق الاختلاف حلًا حيثما حلّ.

وعليه: في زمن الرّسالات والأنبياء الكرام كان الحلُّ يتنزّل على الأقوام والأمم والكافَّة من السّماء تنزيلًا، أمَّا في الزَّمن الذي بعد رسُول الكافَّة، فلا نبي، ولا رسالة بعد الرّسالة الخاتمة، كلّ شيء قد أُنزل، وبقي الأمر بين النَّاس شورى، سواء أكان أمر النَّاس سلمًا، أم حربًا، أم سياسةً داخليَّة، أم سياسةً خارجيَّة؛ فما يتّفق عليه من يتعلّق الأمر بهم يُقدَّر

[46] هود: 118، 119.

ويحترم ويعتبر؛ فَيُقر ويؤخذ به عملًا وفعلًا وسُلوكًا، وفي المقابل لا يؤخذ بما يخالفه؛ لكونه معوجًّا.

ولذلك فالخلاف والخصام والجدال والصِّدام في زمن الرُّسُل، تأسّس على الفضائل الخيّرة، التي لا تستمدّ إلَّا ممّا أنزل من عند الله؛ إذ: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[47]، و{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[48]، و{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[49]، وقوله تعالى: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[50].

فهذه الفضائل ارتقاءً جاءت إنسانيَّةً، وستظل بين من يأخذ بها ارتقاءً إنسانيَّةً؛ لأنَّها فضائل طي الهوة، التي تُختلق في بعض الأحيان بين بني آدم عِلّة.

أمَّا بعد اختتام الرّسالات والرُّسُل، فأصبح للقيم الاجتماعيَّة تقديرًا ومكانةً، إلى جانب تلك الفضائل الإنسانيَّة، فأصبح للخصوصيَّة الاجتماعيَّة أهميَّة ومكانة، ولتنوّع اللغات أهميَّة ومكانة، ولما يختاره ويقرّه النَّاس أهميَّة وضرورة، ومن ثمّ أصبح للدّساتير والقوانين المنفّذة لها أهميَّة مقدّرة بين الأمم والشّعوب؛ ولذلك فالأخذ بالقيم الحميدة يؤكّد أهميَّة تلك الفضائل الخيّرة في ترسيخ قيمة الإنسان، وحفظ كرامته من خلال عدم إكراهه بأيَّة عِلّة، ومن خلال مشاورته في كلّ أمر يتعلّق به وبمصيره، وفي المقابل من يغفل عن أهميَّة ذلك، سيجد نفسه شريكًا في كلِّ ما يؤدّي إلى الفتن، والانقسامات، والصّدمات المؤلمة، التي لا تكون إلَّا على أيدي المعوجّين عمَّا يجب أن يكون بين النَّاس محبَّة، ومودَّة.

---

[47] البقرة: 256.
[48] الشورى: 38.
[49] الكافرون: 6.
[50] يونس 99.

وهكذا كان الخلاف من بعدهم بين سيادة القيم، وانتهازيّة المنتهزون الذي يستغلّون المعطيات والظّروف كما هو حال تلك المحاولة التي كان البعض يود انتهازها واستغلالها بعد وفاة رسول الله مباشرة؛ فحادثة سقيفة بني ساعدة؛ التي حاول البعض أن ينتهزها ويستغل ذلك الانشغال الذي حدث بعد وفاة رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام لولا فطنة عمر وجرأته وقوّة شخصيّته؛ إذ جعل عمر رضي الله عنه من ذلك الاجتماع منطلقًا لممارسة الشورى من بعد رسول الله؛ حيث دارت بين الصَّحابة (مهاجرين وأنصار) مفاوضات، انتهت في النهاية باختيار أبي بكر كأوَّل من يتولى إدارة الأمر بين المسلمين.

وقد تعددت الرِّوايات حول ما حدث تحدِّيدًا في هذه الحادثة، واختلفت الرؤى على صحّة الاختيار، أو الشّورى في المفاوضات؛ فبعد وفاة نبي الإسلام محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، ورشحوا سعد بن عبادة للخلافة، ولكن حينما سمع عمر بن الخطاب بهذا الأمر، أخبر أبوبكر الصدّيق وأسرعا إلى السَّقيفةِ، وأكدا أحقيَّة المهاجرين في الخلافة كما يعتقدان.

دار جدال بين أبي بكر وعمر من جهة، والأنصار من جهة أخرى؛ فاقترح الأنصار أن يكون من المهاجرين أمير، ومن الأنصار أمير، فاختلف معهم عمر بن الخطاب في هذا الأمر، ورشح أبا بكر للخلافة، وانتهى الأمر باختيار صاحب رسول الله أبي بكر الصدِّيق أوَّل من يدير شئون المسلمين بعد رسول الله.

ومن هنا أقول:

لا يمكن أن يكون لرسول الله خليفة، ولكنَّ العرب المسلمون في ذلك الوقت اتخذوا عنوان الخلافة لإدارة شئونهم

المدنيَّة، ولا اعتراض على مسمى الخليفة، ولكنَّ الاعتراض على إلصاق الخلافة بخلافة رسول الله؛ ذلك لأنَّ الرَّسُول لا يخلفه إلَّا رسولٌ من عند الله، وليس من عند العباد.

ومع أنَّ الاختلاف بين النَّاس من نِعم الله التي بها تتنوَّع أساليب الحياة، وتُكسَر أطواق الملل، ففي المقابل الخلاف بين بني الإنسان نقمة، به تُقطع علاقات المحبَّة والمودَّة، كما قُطعت العلاقات بين الذين يؤمنون بربٍّ واحد، ونبيّ واحد، كما هو الحال بين طائفة أهل الشِّيعة، وطائفة أهل السنّة؛ فطائفة الشِّيعة كانت ترى أنَّ آل بيته أولى النَّاس بالخلافة، وأولى آل بيته عمّه العبّاس، وابن عمه علي، وعلي أولى من العبّاس؛ لأنَّه أسبق إلى الإسلام، كما أنَّ له نسلا من ظهر الرّسول، ثمّ إنَّ العبّاس نفسه لم ينازع عليًّا في أولويَّته للخلافة.

وعليه أقول: لا صراع على النبوَّة؛ لأنَّ أمرها لا يكون إلَّا من عند الله، ولكن الصِّراع كان على أشُدِّه بين النَّاس على من يحكم من، وسيظل على أشدّه بين مَنْ سيحكم مَنْ؛ وذلك إنْ ما لم يقرّ الجميع إنَّ الأمر (كلّ أمر) يتعلّق بالنَّاس وينبغي أن يكون بينهم شورى.

وهكذا في كلِّ مرحلة من مراحل الدَّولة الإسلاميَّة، الخلافات تتجدّد؛ والخلفاء يُقتلون؛ فقُتل عمر، ومن بعده قُتل عثمان، ثمّ قُتل علي. وقد ظهر بأسباب الخلاف المرتدّون في زمن أبي بكر، والخوارج الذين خرجوا على الإمام علي بن أبى طالب عندما قبل التحكيم في موقعة صفِّين؛ ذلك لأنَّ الخوارج رأوا أنَّ عليًّا قد أخطأ بقبوله التحكيم؛ فقالوا جملتهم الشّهيرة: (لا حكم إلَّا لله).

ومن بين أهم المعارك الخلافيَّة موقعة الجمل التي وقعت في البصرة عام 36ه بين قوّات أمير المؤمنين علي بن أبي

طالب، والجيش الذي يقوده الصحابيَّان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام إضافة إلى أم المؤمنين عائشة التي ذهبت مع جيش المدينة في هودج على ظهر جمل وسمّيت المعركة بالجمل نسبة إلى الجمل الذي عليه هودج أمّنا عائشة رضي الله عنها.

فبعد حدوث الفتنة، ومقتل الخليفة عثمان بن عفَّان عام 35هـ، بَايَعَ كبار الصّحابة الإمام علي بن أبي طالب لخلافة المسلمين، وانتقل إلى الكوفة ونقل عاصمة الخلافة الإسلاميَّة إلى هناك، وبعدها انتظر بعض الصّحابة أن يقتصّ الإمام من قتلة عثمان، لكنَّه لم يأخذ بهذا الأمر، ومن هنا أُنتهزت الفتنة بين صحابة رسول الله وأوقدت نيرانها.

ومن هنا كان الخلاف بين علي ومعاوية حتى بلوغ حالة الاقتتال بين صحابة رسول الله؛ فكانت معركة صفّين في محرّم سنة 37هـ؛ حيث أراد الخليفة علي أن يعزل معاوية مِن على الشَّام؛ فخرج إليه بجيشه، ودار الاقتتال عند صفّين، وعندما شعر جيش معاوية أنَّه على مقربة من الهزيمة، طلبوا التحكيم مع علي وجيشه: (أهل العراق) فرفعوا شعار: (كتاب الله بيننا وبينكم)؛ إنَّه شعار أهل الشَّام تحت رئاسة معاوية؛ شعارٌ باسم كتاب الله ومع ذلك فقد انتهز في غير محلّه.

ومع أنَّ الطَّرفين قد اتفقا على وقف الاقتتال والقبول بالتحكيم، فإنَّ الرَّفض كان على أشدّه من قبل طائفة من جيش علي بن أبي طالب، ومع ذلك تمّ الاتفاق وخُتم بختم علي بن أبي طالب على أعلى صحيفة التحكيم، وخُتم بختم معاوية بن أبي سفيان على أسفل الصّحيفة.

ومع أنَّه الاتفاق المختوم، فإنَّ الرَّافضين من أهل العراق بقوا على رفضهم، بل زادوا على رفضهم الخروج عن طاعة

علي، ورفعوا صوتهم بقولهم: (لا حكم إلَّا لله) وطلبوا من الخليفة علي نقض العهد، ولكنّه رفض. شعارات ترفع باسم (كتاب الله بيننا وبينكم) وأنَّه (لا حكم إلَّا لله) ثم تنتهز على غير ما يرضي الله؛ إنَّها الفتنة التي لم تعد نائمة.

وفي تلك المفاوضات بين صحابة رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام كان أبو موسى الأشعري مفاوضًا وممثلًا لعلي وجيشه، وكان عمرو ابن العاصّ مفاوضًا وممثلًا لمعاوية وجيشه؛ فقام الأشعري بخطبته قائلًا: "أيّها النَّاس إنَّا نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح، ولم الشّعث، وحقن الدِّماء، وجمع الألفة خلعنا عليًّا ومعاوية، وقد خلعت عليًّا كما خلعت عمامتي هذه"[51]، وخلع عمامته.

وقام عمرو وقال: "أيّها النَّاس إنَّ أبا موسى عبد الله بن قيس قد خلع عليًّا وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب، وهو أعلم به، ألَّا وإنّي خلعت عليًّا وأثبِّت معاوية عليَّ وعليكم"[52].

فقال الأشعري: كذب عمرو، ولم نستخلف معاوية، ولكنَّا خلعنا معاوية وعليّا! فقال عمرو: بل كذب عبد الله بن قيس، قد خلع عليًّا، ولم أخلع معاوية.

ووفقًا لصحيفة التحكيم عاد علي ومَن معه من جيشه إلى الكوفة، وتحرّك معاوية وجيشه إلى الشَّام.

ولأنَّ الخلاف يشتدُّ مع شدّة الصِّدام؛ فكان على أشدّه بين علي ابن أبي طالب، والذين انشقوا وخرجوا عنه انتهازيَّةً وفتنةً، وكان أكثر شدّة عندما اجتمع الخوارج في النّهروان

[51] سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ج 3، ص 7.
[52] المصدر السابق.

سنة 38هـ، فقاتلهم علي، وقتل منهم من قتل، ثم اختلفوا وتخالفوا؛ فانشقوا بعد ذلك إلى 20 فرقة.

ثم قُتل علي بن أبي طالب انتهازيَّةً وفتنةً على أيدي الخوارج في 16 رمضان 40هـ، وهو يُصلِّي الفجر في المسجد.

بعد عصر الخلفاء الرّاشدين: (أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي) أخذت الخلافة لونا آخر، كان التوريث فيها هو العنوان، بدلًا من تلك التجربة التي سبقت؛ ولهذا كان الاقتتال على أشدِّه بين الأخوة والأعمام، وبين الأقارب والأباعد؛ وبهذا انتهى عصر الخلافة خُلفاء، وجاء من بعدهم عصر الخلافة خلافًا.

ومع أنَّ في الاختلاف السِّياسي التنوّع الممكّن من الاختيار؛ فإنَّ العصبيّة ظلت وستظل من معيبات السَّاسة، ومع أنَّ الاختلاف قيمة عظيمة فإن الانتهازيين مثل الطّحالب لا ينشطون إلَّا في المستنقعات والمياه الرَّاكدة؛ أي كلّما استقر النّظام على رتابة معينة فكَّ الانتهازيون شفراته واخترقوه.

العقل انتهازيَّةً وخلافًا من بعد الخلافة.

العقل له من الملكات ما له، وله من المقدرة ما له، وله من التوظيفات ما له، وله من حُسن التدبُّر ما له، وفي المقابل له من الانتهازيَّة والاستغلال ما له، فالعقل إن ثار مثل الرّياح إن كنت في مواجهتها تعيقك، وإن كنت مع اتجاهها تدفعك إلى الأمام، ولكن قد تكون على غير وجهة؛ ومن هنا يولد الانتهاز من الانتهازيين استغلالًا وعواصف.

وبالعودة إلى زمن الخلافة نلاحظ أنَّه لم يكن هناك فصل بين صلاحيَّات من يتولَّى رعاية الإسلام: (الدِّين) ومن يتولَّى إدارة شئون المسلمين: (الرَّعيَّة)؛ أي إنَّ نظام الخلافة كان

راعيًا للدين وكأنَّه لا فرق بينه والدَّولة: (وكأنَّ الدِّين هو الدَّولة).

أمَّا بعد زمن الخلفاء: (أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية)؛ فقد كان الصِّراعُ داخل الأمَّة - على الخلافة - صراعُ وراثة دمويَّة، وفي المقابل كان الصِّراع مع الخارج فتح دِّولٍ وأمصارٍ، وفي كلّ هذه الأحوال عشعش الانتهازيّون عصبيّة وفتنة، ومع أنَّهم عشعشوا في الصّراع الدّاخلي؛ فإنَّهم كانوا مطفأين في الصّراع من أجل الفتوحات؛ ذلك لأنَّ الانتهازيين لا يقبلون بدفع الثّمن إلَّا من أجل نيل مكانة أو وظيفة أو مكسب مادِّي، ولكن من أجل الفتوحات فليس لهم مع الأمر علاقة.

ولأنَّ الخلاف يفرِّق ولا يجمِّع، كان الخلاف بين الذين يؤمنون بربٍّ واحد، ورسولٍ واحد، ولا يفرِّقون بين أحد من رُسله؛ فكان المرتدّون (منتهزون) بأسباب حداثة الإسلام، وضعف الإيمان، والاختلاف على من يأتي من بعد الرّسول؛ فكان الخوارج، وكان الاقتتال بين هذا وذاك قتالًا بلا شفقة؛ كلّ ذلك كان بأسباب الانتهازيّة وعدم قبول الاختلاف: (عدم قبول الرَّأي الآخر). إنَّه الاقتتال من أجل السُّلطة، وليس الاقتتال من أجل الهداية، ونشر الإسلام، والعدالة، وإحقاق الحقّ.

ولأنَّه الخلاف المؤدّي إلى الاقتتال؛ كان الخلاف بين أهل الدِّين الواحد لا يختلف عن الخلاف مع من هم على دين آخر.

وعليه: فإنَّ الاختلاف والخلاف عبر الزَّمن متلازمان مترافقان في أيِّ مكان، وفي كلِّ دولة؛ وقد بدء الخلاف من بعد وفاة رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، واشتد في عهد

الدَّولة الأمويَّة (662م – 750م)، ثم من بعدها الدَّولة العباسيَّة[53].

أمَّا في الدَّولة الفاطميَّة فكان الاختلاف منذ البدء مع مؤسّسها عبيد الله الفاطمي (909 – 934م)؛ وذلك بعد قضائه على دولة الأغالبة، واتخاذه مدينة المهديَّة بتونس عاصمة له، التي من بعدها زحف الفاطميّون وحلفاؤهم إلى المشرق وأسّسوا القاهرة مع رابع خلفاء العبيديين المعز لدين الله الفاطمي، وبأسباب الخلاف لم يتبقَّ منهم ي الجزائر والمغرب وتونس إلَّا القليل. وتوسعت الدَّولة الفاطميَّة على حساب الخلافة العباسيَّة، واستولى الفاطميّون على شرق الجزائر ثمَّ تونس، ثمَّ ليبيا ومن بعدها صقليّة التي بقيت في حكمهم حتى 1061م[54].

ولأنَّه الخلاف على السُّلطة والحكم، دخل الفاطميّون في صراع مع العباسيين للسيطرة على الشَّام، كما أنَّهم تنازعوا السَّيطرة على شمال إفريقيا مع أمويي الأندلس؛ وكذلك تمكَّنوا من السَّيطرة على الحجاز والحرمين ما بين سنوات 965 – 1070م؛ ولكن صلاح الدين الأيوبي انقلب على الدَّولة الشّيعيَّة، وتولَّى الوزارة منذ 1169م وأعاد الخلافة العباسيَّة سنة 1171م. وفي أثناء حكم الدَّولة العباسية تكونت فرقة دينيَّة متعدِّدة عارضت الحكم العبّاسي، وكان محور الخلاف بين هذه الفرق والحكّام العبّاسيين (الخلافة) أو إمامة المسلمين،

---

[53] سامي المغلوث، أطلس تاريخ الدولة العباسية، الرياض: العبيكان، صفحة 72 – 94.

[54] محمد سهيل طقوش، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، القاهرة: 2007م، ص 66 _ 97.

وكان لكلّ جماعة منهم خصوصيَّاتها السِّياسية في إقامة الحكم الذي تريد[55].

جعلت هذه الفرق النَّاس على خلافًات بين طوائف وأحزاب، وأصبحت المجتمعات العباسيَّة ميادين تتصارع فيها الآراء وتتناقض، فوسَّع ذلك من الخلاف السِّياسي بين مواطني الدَّولة حتى تصدَّعت وحدتها، ومن العوامل الداخليَّة التي شجّعت على انتشار الحركات الانفصاليَّة، اتساع رقعة الدَّولة العباسيَّة، وبُعد المسافة بين أجزاء الدَّولة، وصعوبة المواصلات في ذلك الزَّمن، هذه جعلت الولاة في المدن النائية يتجاوزون سلطاتهم، ويستقلّون بشؤون ولاياتهم، دون أن يخشوا الجيوش القادمة من عاصمة الخلافة لإخماد حركتهم الانفصاليَّة، والتي لن تصل إلَّا بعد فوات الأوان، ومن أبرز الحركات الانفصاليَّة عن الدَّولة العباسيَّة، حركة الأدارسة وحركة الأغالبة والحركة الفاطميَّة.

انتهى الحكم العباسي في بغداد سنة 1258م على يد هولاكو خان التتري، الذي قتل من قتل إلى جانب قتله الخليفة وأبناءه؛ فانتقل من بقي على قيد الحياة من بني العبّاس إلى القاهرة بعد تدمير بغداد؛ حيث أقاموا الخلافة مجدَّدا في سنة 1261م[56].

واستمرت الخلافة العباسيَّة حتى سنة 1519م عندما اجتاحت الجيوش العثمانيَّة بلاد الشَّام ومصر وفتحت مدنها وقلاعها، فتنازل آخر الخلفاء عن لقبه لسلطان آل عثمان (سليم

---

[55] المصدر السابق.

[56] سامي المغلوث، أطلس تاريخ الدولة العباسية، الرياض: العبيكان، صفحة 131 – 143.

الأوَّل) فأصبح العثمانيون خلفاء المسلمين، ونقلوا مركز العاصمة من القاهرة إلى القسطنطينيَّة.

هكذا هي نتائج الخلاف، بداية: استيلاء على السُّلطة، ثمّ صراعات وفتن وانتهازيَّة بين الفرق والطوائف التي حياتها لهو، وفساد، وكيد، ومكر، إلى أن تأتي النِّهاية سقوط وسُفليَّة.

ولأنَّه الانتهاز والخلاف فإنَّهما لا يقتصران على شعبٍ أو دينٍ، أو أمَّةٍ، أو حضارةٍ، بل يمتدّا بين النَّاس كلّما توافرت معطيات ظهورهما؛ فالانتهازيَّة والخلاف كما يجريان بين المسلمين؛ يجريان بين المسيحيين الذين تقسّموا بأسبابه إلى:

- كاثوليك.
- أرثوذكس.
- بروتستانت.

فبأسباب الخلاف في القرن الخامس الميلادي، حدث انشقاق كبير نتج عنه أنْ أصبحت بعض كنائس الشّرق تحت قيادة كنيسة الإسكندريَّة، وكنائس الغرب تحت قيادة كنيسة روما، وسميت الأولى بالكنائس الأرثوذكسية، والثَّانية بالكنائس الكاثوليكيَّة إلى أن جاء الخلاف في القرن الحادي عشر الذي بأسبابه انفصلت كنائس القسطنطينيَّة، واليونانيَّة، وبعض الكنائس الأخرى عن الكنيسة اللاتينيَّة، وسميت أيضًا بالكنائس الأرثوذكسية.

وبأسباب الخلاف، يؤمن الكاثوليك والبروتستانت أنَّ الأب أعظم من الابن والرُّوح، والأرثوذكس يؤمنون أنَّهم متساوين.

أمَّا بالنسبة إلى روح القدس: فيؤمن الكاثوليك والبروتستانت أنَّه منبثق من الأب والابن معًا، والأرثوذكس يؤمنون أنَّ الرّوح منبثق من الآب فقط.

أمَّا بالنسبة إلى الابن: يؤمن الكاثوليك والبروتستانت بأنَّه مكوَّن من طبيعتين ومشيئتين، ويؤمن الأرثوذكس أنَّه طبيعة ومشيئة واحدة.

وبالنسبة إلى مريم عليها السَّلام، يؤمن الكاثوليك أنَّها أمّ المسيح، وزوجة الرّوح القدس بالفعل، وأنَّها الآن في السّماء، فوق المسيح ابنها، ويؤمن الأرثوذكس أنَّها أم الإله، وأنَّها الآن في السّماء عن يمين المسيح، ويؤمن البروتستانت أنَّها إنسانة عاديَّة مسيحيَّة؛ وهكذا هو الاختلاف والخلاف يتلونان ويتنوّعان ويمتدّان مع الحياة امتدادًا بلا انقطاع.

ومع أنَّ جمال الحياة في التنوّع، فإنَّ الخلاف والانتهازيّة على رأس المفسدات لهذا التنوَّع، ولا سبيل من بعد الخلاف للنَّاس إلَّا التفاهم، والتفهُّم، والاستيعاب، والتكيُّف، والتوافق، ومن لم يقبل بذلك، سيجد نفسه في الطريق المخالف، أمَّا الانتهازيَّة مكيافيليّة ولا تنجم إلَّا عن رؤية شخصانيّة (أنا ومن بعد الطّوفان).

ومن ثمّ فعلى بني آدم أن يميّزوا بين ما يجب ويتّبعونه إرادة، وما لا يجب ويجتنبونه وينتهون عنه، وبعد التبيّن لا ينبغي أن يكره أحد على شيءٍ هو لا يرغبه: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيّ}[57]، وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جميعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[58]، وقال عزَّ وجلَّ: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ

[57] البقرة: 256.
[58] يونس: 99.

شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[59]، {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}[60].

هذه الآيات الكريمات بأسباب الاختلاف والخلاف الإنساني مأمورٌ الأخذُ بها أمرًا من عند الله تعالى؛ فلا داعي للإكراه، والإجبار، والإقصاء، والسَّيطرة بغير حقٍّ. بل ما يجب اتباعه: قبول الآخر المختلف، واستيعاب المخالف، وتفهّم ظروفه، والعمل معه من حيث هو، من أجل أهداف وآمال مشتركة تستوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة؛ حتى يَتمكَّن الجميع من بلوغ المأمول الأجود مع وافر المحبَّة والتقدير، وفي المقابل فإنَّ الانتهازيين لا يقبلون التمترس بالمبادئ والقيم، مع أنَّهم في كثيرٍ من الأحيان يستخدمونها شعارات لتضليل العامّة من النَّاس.

ومع أنَّ الدِّين لا إكراه فيه، فإنَّ البعض يُكره النَّاس قهرًا على ما لا يرغبون، حتى أصبح اللبس وعدم المقدرة على التمييز بين الدِّين الإسلامي الذي لا إكراه فيه، وبعض المسلمين الذين يسلكون ما يخالف ذلك استغلالًا وانتهازيَّةً.

ومن ثمَّ أصبح الخلاف على أشدِّه بين المسلمين الذين لا يرون الدِّين إلَّا كما أُنزل، وكما عمل وفعل وسلك رسُول الله محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، ومن يميل إلى ردة فعلٍ، أو تفسيرٍ لا اتقاف عليه، وقد يتعارض مع سُبل وأساليب الهداية والدِّعاية والتبشير.

ومع ذلك فقد انتهى عصر الخلافة، والإمامة، والولاية، ولم يبق شيئًا منه إلَّا مع من تبقَّى من الذين يسخِّرون العناوين لحكم العباد باسم الدِّين انتهازيَّةً، والدِّين منهم براء.

---

[59] الكهف: 29.

[60] الغاشية: 21، 22.

الانتهازيَّة القبليَّة:

مع أنَّ القبيلة رابطة اجتماعيَّة أصلًا وانتماءً، فإنَّ روابطها لا تتمركز إلَّا على العصبيَّة، ورأسها الشّيخ، وحميّتها: (أنا وأخي على ابن عمّي، وأنا وابن عمّي على الغريب)، والسّياسة في عصرها: لا للاستقرار، وأحكامها عرفيّة، وقِصاصُها الثّأرُ، ولها مِن مكارم الأخلاق مع الكرم مكانة، وقواعدها القتاليّة الدّفاع عن القبيلة ومراعيها والأودية التي تحرثها.

أمَّا في عصرنا فلم تعد تلك القبيلة مثل القبيلة هذه؛ فتلك القبيلة لم تستظل يومًا تحت مظلّة الدّولة ودساتيرها المشرّعة، وقوانينها الضّابطة، أمَّا القبيلة هذه فمظلتها الدّولة، إدارة ورعاية وضبطًا وانتهازيَّةً.

ومع أنَّ تلك القبيلة لم تعد كما كانت، فإنَّ الصَّفاء المعرفي لبعض أفراد القبائل لم يكن كما يقولون ذهبًا خالصًا؛ ولهذا عندما تَحدُث تأزُّمات على مستوى الوطن فإنَّك ترى الواهمين من الذين تعود جذورهم إلى تلك الخيمة التي صُنعت من شعر المعز، أو من وبر الإبل يعودون إليها خوفًا؛ ليستظلو تحتها، وإن كانت بِقِدمِ الزّمانِ قد رَثَّت.

إذن فمن يعتقد أنَّ القبيلة هذه ستحمي الدّولة إذا ما سقطت مؤسّساتها فهو واهم؛ لأنَّ العقل القبلي الموَرَّث من تلك القبيلة يقول: إنَّ أفراد القبيلة يحمون قبيلتهم ويذودون عنها إذا ما تعرّضت لعدوان من أيِّ قبيلة، أمَّا الدَّولة فلا يدافع عنها إلَّا المجنّدين.

وعليه: عَبر التَّاريخ لم تسقط دولة وأعادتها قبيلة، أو حتى مجموعة من القبائل؛ فالقبائل لو أنَّها تعيد الدّولة، أو حتى تحافظ على النّظام فيها لأعادت دولة الكويت عندما احتلتها

جيوش صدام حسين، ولو كانت القبيلة تعيد الدّولة والنِّظام لأعادت العراق، وليبيا، واليمن. وهنا وجب القول: إنَّ كلمة وطن بالنِّسبة إلى العقل القبلي هي أوديتهم وجبالهم التي ورّثهم فيها الأجداد قبل أن تقوم الدّولة وتُصبح وطنًا؛ ولهذا فهم يهبّون للدِّفاع عن أوطانهم ولا يهبّون للدّفاع عن الوطن.

ومع أنَّ تلك الأنظمة، وتلك الرّؤوس قد والتها معظم القبائل في أوطانها انتهازيَّةً؛ فإنَّها في أيَّام سقوطها لم تقف قبيلة واحدة صفًّا واحدًا مع أيِّ نظام من تلك الأنظمة التي سقطت وطويت صفحات نظامها، وبما فيها تلك القبائل التي تنتمي إليها تلك الرّؤوس التي سقطت من القمم السُّلطانيَّة؛ ومن ثمَّ سيكون واهمًا من يعتقد أنَّ القبيلة ستوالي نظامًا آيلًا للسّقوط، أو نظامًا لم يستقرّ بعد؛ فحسابات العقل القبلي تختلف عن حسابات العقل المدني؛ لأنَّ العقل القبلي كما يخشى على نفسه يخشى على القبيلة، أمَّا المدني فلا يرى له عبئًا على المدينة؛ ذلك لأنَّه يعرف أنَّ مسئوليّة المدينة وتحقيق أمنها لا تكون إلَّا على عاتق أجهزة الدّولة، ومع ذلك يعرف أنَّه لا وطن له إلَّا الدّولة.

وفي كل الأحوال عندما تسقط الدَّولة يتزلزل الأمن فيها، وتُفقد مفاتيح السَّيطرة، وتنكسر منظومة الفضائل الحميدة والقيم الخيرة، ثم تعقبها هزَّات ارتداديَّة متتالية فتتكشف الأقنعة كما قالها ابن خلدون: "ويختلط ما لا يختلط، ويضيع التقدير، ويسوء التدبير، وتختلط المعاني والكلام، ويختلط الصّدق بالكذب، والجهاد بالقتل، ويسود الرُّعب، ويلوذ النَّاس بالطّوائف، وتظهر العجائب، وتعمّ الإشاعة، ويتحوّل الصّديق إلى عدو، والعدو إلى صديق، ويعلو صوت الباطل، ويخفق صوت الحقّ، وتظهر على السّطح وجوه مريبة، وتختفي وجوه مؤنسة، وتشحّ الأحلام، ويموت الأمل، وتزداد غربة

العاقل، وتضيع ملامح الوجوه، ويصبح الانتماء إلى القبيلة أشد التصاقًا، وإلى الأوطان ضربًا من ضروب الهذيان، ويضيع صوت الحكماء في ضجيج الخطباء"[61].

ومع كل هذه الحقائق التي قالها ابن خلدون عندما تسقط الدّولة أو تنهار أقول: إنَّ الوشايات وكتابة التقارير والإعطاء بالظهر كما تكونُ بين الأباعد شديدة وموجعة؛ فإنَّها بين الأقارب أكثر شدّةً ووجعًا، ولا استغراب إن قال أخيك فيك ما قال، ولا استغراب إن تبرَّع ابن أخيك أو جارك بمعلومات تقتلك وأنت مما قيل فيك بريًّا، ولا استغراب إن وجدت المنحرفين قد أصبحوا مُلتحين وأيديهم تُقبَّل وكأنَّهم مشايخ موقَّرون، وهكذا يدّعي المشيخة من ركب جواد الشيخ وهو راعيه، وهكذا تصبح المرأة الجاهلة مرجعيَّة ومفتية بين نساء القبيلة أو القرية، وعندما يلتقي الحاقدون، وأهل الفوضى، وقطَّاع الطُّرق، والسُّراق، وأهل الوشايات يشكلون مجلسًا وطنيًّا لإدارة الفوضى الخلاقة، ومن ثمَّ لا استغراب إنْ تمَّ تبنيهم من قبل الدّول الدَّاعمة لاستقرار الفوضى.

وعودٌ على بدء فإنَّ العقل القبلي استعراضي تضخيمي، يميل ميلًا كبيرًا لتعظيم شأن القبيلة التي ينتمي إليها حتى ولو كان على حساب القبائل الأخرى، وهكذا بالتمام هي نظرة كل قبيلة بأنَّها الأقوى، والأشجع، والأكرم، مع تضخيم عدد القبيلة بغاية تخويف الأعداء والخصوم، وهذه العقليَّة أو هذه النظرة تعود إلى تلك السّنين التي طويت صفحاتها اقتتالًا، ومع أنَّ تلك الصَّفحات قد طويت فإنَّ الوهم ما زال حيًّا في عقول الوارثين وهمًا.

---

[61] مقدّمة ابن خلدون - موسوعة المورد، منير البعلبكي، 1991، وكتاب المقدمة، لعبد الرحمن بن خلدون، حقق نصوصه: (عبد الله محمّد درويش، 2012م.

والعقل القبلي في عصرنا الحاضر وأيَّامنا هذه (ماضوي)؛ يتغنّى ببطولات في معظم الأحيان وهميّة (من نسيج الخيال وصُنعه)؛ ذلك لأنَّ أصْحاب العقل القبلي في عصرنا لم تُسجل لهم بطولات على مستوى الدّولة المعاصرة؛ ولهذا يتغنّون ببطولات الأجداد التي لو بحثنا عنها لم نجد منها إلَّا ما نذر في سجلَّات التّاريخ وصفحاته، وقد لا نجد شيء منه.

ومع أنَّ صفحات التّاريخ لا تحمل في طياتها إلَّا ما نذر مما يتغنّى به شعراء القبائل، فإنَّ شعراء القبائل اليوم مخيلاتهم الشّعريَّة ملاحم وملاطم وبطولات، وكأنَّهم المشاركين في خوض تلك الملاطم زمن بني عبس، وبني كليب، وبني سليم، وبني هلال.

ونظرًا لوجود هذه العلّة فمعظم الحكّام ذوي الأصول القبليّة يتبنّون الشّعراء الشّعبيين ولا يتبنون شعراء الفصاحة إلّا استثناء، فتكون البداية تظاهر الحاكم بحب الاستماع إلى تلك البطولات الوهميّة لأجداد الشّعراء الشَّعبيين؛ ليصل بعقولهم انتهازيَّةً إلى أن تصبح تتغنّى به دون غيره، بل ويسخّر بعضهم لهجاء الخصوم أو من تسوّل له نفسه ما تسول، ولو كان ظنًّا واهمًا في ظنه؛ وذلك اعتقادًا منه أنَّه بهذه المنهجيَّة يستطيع السّيطرة على عقول العامَّة من النَّاس، أمَّا شعراء الفصاحة فأغلبهم أهل معرفة وعلم ومدنيَّة، ولهم من الآراء الخاصّة ما لهم، فهم كما يقبلون يمتنعون أو ينسحبون؛ تجنّبًا للخطر وتفاديه، وهذا ما لا يرغبه الحاكم، بل ما لا يقبله.

فشعراء القبائل مع أنَّهم بسطاء فإنَّهم أذكياء، والحكمة في بيتٍ من شعرهم تملأ كتابًا لو أردنا الكتابة عنه، ومع أنَّ العاطفة القبليّة تملأ قلوبهم فإنَّ قصائدهم الشّعريَّة لا تتوقّف

عند سُلطانٍ بعينه وإن بايعوه في زمنه أكثر من مرَّةٍ، ومن ثمَّ فهم كما سبق وأن تغنّوا بمن تغنّوا، سيتغنون بمن يأتي من بعده حاكمًا للدّولة وبأيَّة طريقة؛ وذلك لمعرفتهم أنَّ عجلة التَّاريخ لا تتوقَّف.

ولذا فكثير من الشّعراء عندما يقرضون شعرًا تراهم أهل فن، وأهل حكمة وأهل سياسة، وفي المقابل مع أنَّهم يظلون شعراء وفحول فإنَّ بعضهم عندما يتغنّى بالحاكم فلا يصفه إلَّا عادلًا مع أنَّه أكبر الدّكتاتوريين.

وعليه: فإنَّ الحاكم الذي يتّخذ الخيمة شعارًا له، لم يكن واردًا في قاموسه السّياسي مكانٌ أو معنى للاستقرار والمدنيّة، بل بالنّسبة إليه، الخيمةُ والرّحيلُ هما المحرِّكان الأساسيَّان للتَّاريخ، ولأنَّهما المحركان للتَّاريخ فبالضّرورة ستكون المواجهة مع من يحاول إن يحرك التَّاريخ بغيرهما؛ ولذا فالنسبة إليه لا سيادة إلَّا للخيمة، ولا مكانة إلَّا لشيخها، ومن ثمَّ فلا شيءَ يتبدَّل خارج الخيمة التي تتبدَّل اتجاهاتها وهي الخيمة التي لا تتبدَّل.

ولهذا ثروات البلاد وخيراتها لا توجّه إلى ما يُمكّن من الاستقرار والاطمئنان، والنُّهوض، وإحداث النُّقلة إلى المأمول الذي يجعل من الإرادة قوّة بيد الشَّعب ويرسّخ السيادة والهويّة الوطنيَّة.

ومع أنَّ القبيلة تُجرُّ لخدمة السُّلطان إذا ما اتكأ عليها انتهازيَّةً، فإنَّها لا تقبل التهلكة في سبيله ومن أجل نظامه حتى وإن تغنى شعرائها به وعدله (دكتاتوريّته)، ولا يمكن أن تتحمّس للدّفاع عنه إذا ما آل نظامه للسّقوط، بل فوق ذلك ستبايع خصمه عندما ينقلب عليه أو يثور، حتى وإن احتفظ من أفرادها من احتفظ بشيء من الوقت قليلًا، وسيكون واهمًا

من يعتقد أنَّ العقليّة القبليّة ستقاتل الدّولة، أو أنَّها ستقاتل من أجلها.

فالقبيلة في عصرنا دخلت على المدنيّة، والمدنيّة دخلت عليها، فعلى سبيل المثال: معظم أبناء القبائل الليبية أصبحوا متعلِّمين، ويتكلّمون اللغات الأجنبيَّة، وهمُ اليوم إن لم يسكنوا المدن فقُراهم أصبحت تمتلك ما تمتلكه المدينة؛ فتلك الخيام قد طويت، وصفحاتها تطوى.

وبعد أنْ عُرِّفت القبيلة، فماذا تعني القبيلة؟

تعني: أنَّ مجموع القبائل وفي أيِّ دولة هي كتلٌ وتعصُّبات بشريَّة متفرِّقة، ولا يكونون على رأيٍ واحد أبدًا؛ ولهذا فهم عصبيَّات متخالفون، أي لو لم يكونوا متفرِّقين ما كانوا قبائل، ومن ثمَّ حتى في زمن السّلم واستقرار الدَّولة وأمنها لا يمكن لأحدٍ أن يتحدّث باسمهم عصبيّة واحدة، فما بالك في زمن الخلاف والشّقاق الذي فرَّق بين أبناء كل القبائل؛ فليبيا على سبيل المثال: لم يبق فيها قبيلة واحدة ولا عشيرة واحدة ولا حتى أسرة واحدة ممتدّة على رأيٍ واحد؛ ولذا فلا قبيلة تمثل قبيلة، ولا أحد من أيِّ قبيلة يمثل القبيلة التي ينتمي إليها إلَّا وهمًا أو انتهازيَّةً.

ومع أنَّ القبيلة على المستوى الاجتماعي ما زالت عنوانًا له من الاحترام ما له، وتستطيع أن تحلّ المشاكل والتأزُّمات إذا ما حدثت بين قبيلة وأخرى، فإنَّها لا تستطيع أن تحلّ مشكل الوطن إذا ما وقع في مشكلة وطنيَّة؛ أي: بإمكان رؤوس ووجوه من القبائل أن يتدخَّلوا لحلّ مشكل بين قبيلتين، وفي المقابل سيكونون عاجزين أمام حلّ المشكل الوطني؛ وذلك لمعرفتهم بمفاتيح الحلّ القبلي، وعدم معرفتهم بمفاتيح الحلّ الوطني؛ وهذا يعني: أنَّ لمعرفة العلاقات الاجتماعيَّة مشايخ

ورجالات، وأنَّ لمعرفة العلاقات الوطنيَّة رجالات وساسة وأهل خبرة ودراية.

وهؤلاء جميعهم عندما ترتفع أصوات البنادق والمدافع لا يرفعون صوتهم؛ ذلك لأنَّهم يعرفون جيدًا أنَّ صوتهم مع صوت البنادق لا يُسمع؛ ولهذا يأخذون خطوة إلى الخلف حتى تقف الأصوات التي رُفعت على أصواتهم.

انتهازيّة الدّولة القوميَّة:

الانتهازيّة صفة لمن لا يقف عند حدِّه صلاحيّة واختصاصًا؛ وهي تجاوز للمسموح به واستغلاله في أثناء الغفلة، أو في أثناء تجاوز الفرصة، أو انتقائها؛ ولذا لم تكن الانتهازيَّة للفرصة كما يظن البعض، بل الانتهازيَّة لما بعد الفرصة؛ ذلك لأنَّ الفرصة تعطى فتستثمر، أمَّا الانتهازيَّة تفك وتغتصب ولا تعطى؛ فعلى سبيل المثال: إذا وافق البنك على منحك قرضًا لتستثمره كرأس مال لك؛ فعليك باستثماره كسبًا لا خسارة من بعده، ولكن أن استغليت هذا المبلغ في أوجه غير قانونيَّة وتخالف اشتراطات منح القروض فأنت هنا قد انتهزت هذا المنح واستغللته في غير أوجهه.

ولذا علينا أن نميّز بين الفرصة التي تتاح وفقًا للمسموح به، والانتهاز الذي لا يكون إلَّا على حساب إعطاء الفرصة، والقول بأنَّ الفرصة تتاح يعني أنَّها تُعطى فتؤخذ، وأخذها لا انتهازيّة فيه، ولكن يحدث الانتهاز بعد تجاوز الفرصة التي أتاحت لك وقتًا، أو فسحت لك مجالًا، أو اعطتك إذنًا. ومن هنا فالانتهازيَّة لا تكون إلَّا في مواجهة مع ما تسمح به المبادئ والقيم، وفي كثيرٍ من الأحيان تلد الانتهازيَّة من رحم الثّقة عندما تغرس في أناس غير أهلٍ لها، ولهذا لا تكون الانتهازيَّة

ثمرة تقطف إلَّا عندما يكون قطفها على حساب من ينتظر جنيها.

وفي دلالة أخرى نجد الانتهازيَّة نتاج المغالبة، وأسوأ المغالبات مغالبة العصبيَّة، فالدّولة عندما يكون العرق (الأصل دمًا) هو الغالب على شعبها تصبح الأقليَّات فيها مغلوبٌ على أمرها، وعندما يكون الرّئيس على سبيل المثال من الغالبيّة العصبيَّة قد يزداد انتهاز المغالبة إلى مغالبة قهريَّة.

وعليه: فإنَّ القوميَّة رابطة دم وعلاقات اجتماعيَّة، تلتحم مفرداتها قوَّة كلَّما شعرت بخطرٍ يهدد كيانها ووجودها، وفي المقابل تتفكك مفرداتها عندما تسترخي وتستكين، وتستسلم للشّهوة والرَّغبة واللذة؛ فتنكسر وتتفرَّق، ثمَّ تتفكَّك شيعًا وأحزابًا.

وفي زمن القوميَّات كان للزَّعيم دلالة ومعنى، وكان للقائد دلالة ومعنى، وبخاصَّةٍ بعد أنْ تمّ احتلال بلدان المسلمين من قِبل المستعمرين، فكانت دائرة التَّاريخ تعصف قتالًا، وجهادًا، واستشهادًا في سبيل الدِّفاع عن الدِّين، والوطن؛ ومن هنا بدأ التفاخر بالشهيد، والقائد المغوار، والزَّعيم المرشد، والمجاهد البطل؛ حتى حرّرت الأوطان من المستعمرين وتكونت الممالك، والإمارات، والسّلطنات، وتأسّست الدِّول.

ومن ثمَّ أصبح البحث عن الزَّعيم: إمامًا، وملكًا، وأميرًا، وسُلطانًا، وقائدًا، وبدأت الولاءات، والمبايعات للأشخاص، الذين يُعتقد أنَّهم قد خصُّوا بهذه الخاصيَّات؛ ولكن هنا اختلطت صفة القدوة الحسنة مع المصطنع لها اصطناعًا؛ فكان الفساد، والظُّلم، والقهر؛ فبدأت الانقلابات، والثّورات تتفجَّرُ على أيدي العسكريين والانتهازيين معًا، وهم الذين اتخذوا شعارات

تناغي المواطنين حتى تمكّنوا من السّلطة فانتهزوها وفقًا لمشيئتهم وبلا دساتير.

إنَّه عصر القوميَّات الذي تزامن مع عصر الدِّيمقراطيَّات المتنوِّعة، والمتباينة في الدِّول المتقدِّمة سياسةً واقتصادًا وعلمًا ومعرفةً؛ فكان الحلم الواسع يدفع أصحابه إلى التمدّد على حساب حريَّات الغير؛ ما جعل لكلِّ بداية نهاية.

ولقد عاشت معظم دول العالم عصر القوميَّات، وسادت قوميَّات على حساب أخرى، ولكن التَّاريخ سجَّل في صفحاته انكسارات كبيرة وكثيرة؛ أنهت عصر القوميَّات، وعصر الزَّعيم، والقائد المغوار، والرَّمز، وحلَّ محلَّه عصر الوطنيَّات.

ولأنَّ عصر القوميَّات عصر وكانت له رؤوس تتزعمه وتتصدّره، فإنَّ شأن تلك الزّعامات في الدّولة القوميَّة كان شأن هويّةٍ اجتماعيَّة، ولذا فإنَّ الزّعامة القوميَّة لا توهب، ولكنَّها تُنتزع انتزاعًا؛ فأصحابها يَظهرون في الكلمة حُجَّة، وفي القول حكمة، وفي الموقف صوابًا، وفي الحركة تأنّ، وفي المواجهات صبرًا، وميزان عدل. ويذكّرني في ذلك مطلب الفرنسيين من شارل ديجول الذي تولى قيادة فرنسا عقب الحرب العالميَّة الثَّانية؛ فكان سؤاله الوحيد: وكيف حال القضاء؟ فأجابوه إنَّه بخير، ولم يصبه الدّمار الذي أصاب البلاد من جراء الحرب، فقال: إذن يمكننا إعادة بناء فرنسا"[62].

وفي مقابل هذا القول، قال غوساف لوبون: "إنَّ الشَّيء الذي يهيمن على روح الجماهير، ليس الحاجة إلى الحريَّة، وإنّما إلى العبوديَّة؛ وذلك أنَّ ظمأها للطَّاعة يجعلها تخضع

[62] الأهرام الرقمي، الأهرام اليومي، أحمد البري.

غرائزيّا لمن يعلن أنَّه زعيمٌ[63] " ومع ذلك بقي الزّعيم الفرنسي شارل ديجول على قوله: "إنَّ القبور مليئة برجال لا يمكن الاستغناء عنهم؛ فالزّعماء يرحلون، ويتركون وراءهم انطباعًا: بأنَّه لا يمكن تعويضهم[64].

وعليه: فالتَّاريخ لا يصنع الزُّعماء، ولكن الزُّعماء يصنعون التَّاريخ؛ ذلك لأنَّ الزُّعماء هم من يحدثون فارقًا يُمكِّن من تجاوز الأزمات، وإحدًاث النُّقلة إلى ما هو مأمول دون تردُّد.

فالزَّعيم يتميَّز بحنكته، وسِعةِ أفقه، وامتلاك زمام أمره، وأمر من تربطه بهم علاقة، ويجيد حسن التدبُّر في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ فيحسم موقفه، وأمره بما يطمئن الأنفس، ويمكِّن من نيل التقدير والاعتبار.

وفي مثل هذا الشأن، قال كارل ماركس: "إنَّ الرِّجال يصنعون تاريخهم، ولكنَّهم لا يصنعونه في الظروف التي يختارونها بأنفسهم، بل بفعل أمور فرضت عليهم من تبعات[65]".

ومن ثمَّ فالزَّعيم: مَنْ يتمكّن من التفكير وهو يفكّر فيما يفكّر فيه؛ فلا يقف عند حدود الفكرة، بل يتعدّاها إلى العلل التي جعلته يفكّر فيما يفكّر، ومع أنَّه الزَّعيم الذي يفكر في هموم قومه، وما يفكّرون فيه، فإنَّه قادر على مواجهتهم فيما يفكّرون فيه إن رآهم على غير غاية.

---

[63] غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم: هاشم صالح، دار الساقي، ط2، 1997م، ص 127.

[64] الأهرام الرقمي، الرئيس بين الزعامة وسجن التاريخ، المصدر :الأهرام اليومي، بقلم: عزّة إبراهيم.

[65] الأهرام الرقمي، الرئيس بين الزعامة وسجن التاريخ.

إذن فالزّعيم قادر على تحقيق أفعال وأعمال التحدِّي، التي لا تكون إلَّا بالحقِّ وعلى الحقِّ؛ فلا ينسب زعيم لنفسه حقًّا أُمر بأن يفعله، بل ينسبه للحقِّ تعالى؛ ولهذا فالأنبياء جميعهم عليهم الصَّلاة والسَّلام يردّون كلّ شيء يحقّقونه للحقِّ تعالى، ومن هنا؛ فجميعهم كانوا زعماء حقّ من خلال عملهم على إحقاقه تبشيرًا، ودعوةً، وتحريضًا، وإنذارًا، ووعظًا، وإرشادًا، وهدايةً، إنَّهم الرُّسُل الكرام: (الزُّعماءُ العظماءُ).

أمَّا القادة والرُّؤساء وغيرهم؛ فينسبون كلّ شيء لشخوصهم، وبرامجهم السِّياسية؛ ومن ثمّ لا تجد الزَّعامة فيهم مكانًا تستأنسه، أو تستقر وتحلّ فيه، ومن هنا كانت الانتكاسة على دولة الزَّعيم، التي من بعدها جاء عصر الدَّولة الوطنيَّة.

وعليه: في دوائر التَّاريخ عناوين تبدَّلت وتغيَّرات؛ إذ لكلِّ عصرٍ من العصور رموزه، وعناوينه الموضوعيَّة، وحُججه المنطقيَّة، والعُرفيَّة، والحضاريَّة؛ ولذلك كان لكل عصر رموزه وزعاماته؛ ففي عصر الدَّولة الإسلاميَّة كانت الرموز، والعناوين متعدّدة، منها: (النَّبيّ، والخليفة، والإمام، والعالم، والفقيه، والشيخ، والقدوة الحسنة)، وكان في زمن الدَّولة القوميَّة: (الشعارات، والهتافات لمقولات القائد، والبطل)، وهكذا كان الأمر في زمن الدَّول الأيديولوجيَّة، الولاء: (للحزب، ورئيس الحزب، والمرشد، والقائد، والزَّعيم)؛ ولذا كان التداخل في هاتين الفترتين من التَّاريخ بين الولاء للأحزاب، والولاء للأشخاص، أمَّا في هذا العصر فالولاء للدَّولة الوطنيَّة بدلًا من الانتماء للرموز، والانتماء للمشاريع المتنافسة على أحدَاث النُّقلة إلى المأمولات، بدلًا من الوعود الزَّائفة، التي كانت لا تزيد عن كونِها لحنَ قولٍ.

الانتهازيّة باسم الوطن:

مع أنَّ الوطن ملكٌ لجميع مواطنيه؛ فإنَّ البعض لم يكن له من الوطن إلَّا الشّعار البرّاق، فيتخذه انتهازيّةً عنوانًا لمسيرته الذاتيّة وكأنَّه الوطن دون سواه، ولكنَّه إذا ما استشعر أنَّ للمواطنة ثمنٌ وتستوجب الفداء نزل عند أوَّل محطة من محطات قطارها.

وعلى الرّغم من الاختلافات السِّياسيَّة التي تجري وتحدث بين شعوب العالم وفي كلّ دولة منه؛ فإنَّ الشّعوب كلَّها تتفق على أنَّه لا رأس مال لها إلَّا الوطن؛ ولذلك يجد السِّياسيون الانتهازيّون أكتافًا وظهورًا قابلة بوضع الأقدام عليها، فيضعون أقدامهم على أكتاف شعوبهم صعودًا باسم الوطن، ولما يبلغوا القمَّة يزيحون تلك الاكتاف والظهور بعيدة عنهم.

ويقول برنشتاين وهو ينظّر للانتهازيَّة: (الانتهازيَّة في النظريّة والتطبيق) "إنَّ النَّظريَّة الماركسيَّة تشكّل صرحًا متماسكًا، وأنَّ الانتهازية تأمل أن تهزّ هذا الصّرح من الأساس حتى الرّأس"[66].

وفي كلّ الأحوال إذا تتبعنا التَّاريخ محطّة من بعدها محطّات نجد أنَّ في كلّ محطّة من محطَّاته الشّعوب أكتافًا وظهورًا مثل السّلالم والانتهازيّون يصعدون عليها قممًا.

ولهذا فإنَّ كل النظريّات السّياسية التي يدّعي أصحابها بأنَّها مجمع الحلول لكل القضايا؛ هي ليست كذلك، بل هي القضيّة التي ينبغي أن تدان؛ كونها جعلت من أحذية الأطفال

---

[66] روزا لوكسمبورغ، الانتهازية في النظريّة والتطبيق، دار الطليعة، 1970م، ص 37 – 82.

تلاميذ لها؛ ذلك لأنَّ الأطفال هم العملة الذّهبيَّة القابلة للتصريف في كلِّ الأسواق؛ ومن هنا تمَّ تصريف هذه العملة الذّهبيَّة في مصارف البروليتاريا، ومصارف الاشتراكية بأنواعها، ومصارف الرَّأسماليَّة بأشكالها، وكذلك في مصارف الجماهيريَّة.

ومع أنَّ المنظَّرين يريدون الوصول إلى الحلول، فإنَّ الانتهازيين الصّاعدون على الأكتاف والظّهور المنحنية لا يريدون حلًّا يزيحهم من تلك القمم التي بلغوها باسم الشَّعب (الشّعب المستخدم اسمه في كلِّ الانقلابات)؛ كونه الاسم الذي يؤسّس لقاعدة القبول في مقابل كتم الرّفض انتظارًا. ومع أنَّ الانتظار لا يكون إلَّا للضّرورة، فإنَّ زمن الانتظار عندما يطول لا شيء من خلفه يُجنى إلَّا اليأس؛ إذ لا أمل؛ فتثور الشّعوب غضبًا على تلك القمم الانتهازيَّة، ومع ذلك تقع في الفخ الانتهازي في حالتين:

الحالة الأولى: عندما يمتصّ الانتهازي غضبها بالدّعوة إلى إصلاحات وطنيَّة، لا غاية من ورائها إلَّا إضاعة الفرصة على الغاضبين.

الحالة الثَّانيَّة: عندما يتم إسقاط الانتهازي من على القمّة السُّلطانيَّة ويصعد انتهازي بدله باسم الشَّعب على ذات القمَّة.

وعليه: فلا حلَّ لقطع الطّريق أمام الانتهازيين إلَّا صناديق الانتخابات، ومع ذلك فإنَّ الانتهازيين عندما يجدون مناخًا متأزِّمًا ينشطون؛ ففي ليبيا على سبيل المثال: بعد أن أسقط نظام معمر القذافي بثورة الشّعب الليبي المؤيّدة بقرار من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم 1973 بتاريخ 17 مارس 2011م، فكانت البداية بتشكيل مجلس انتقالي ليبي لمدة عامٍ؛ ولكونه مجلس ضعيف يخلو من تلك الرّؤوس السِّياسيّة

الفاعلة وطنيًّا؛ كانت الفُسحة واسعة أمام الانتهازيين الكبار؛ فركبوها فتنةٌ من بعد فتنةٍ إلى عامنا هذا 2023م، وهي لم تفكّ بعد من مخالبهم الانتهازيَّة؛ فأعضاء مجلس النّواب ُنْتُخِبُوا مِن قِبل الشّعب الليبي ولمدّة عامٍ واحدٍ، ولكنَّهم ظلّوا متخندقين بكراسيّهم كرهًا على رؤوس الليبيين، وهكذا حال الحكومة الانتهازيَّة (حكومة عبد الحميد الدبيبة) المنتهية الصّلاحيَّة؛ كونها اختيرت لمدّة سنة واحدة فقط من قِبل لجنة 75، اللجنة التي تمّ اختيارها بمعرفة المبعوثة الأمميَّة للأمين العام للأمم المتحدة؛ ولذا فبعد أن تولّى السّيد عبد الحميد الدبيبة رئاسة الحكومة وهو لا يحسن إدارة الدَّولة استخدم كلّ قوّته من (كتائب وميليشيات وبقيا من مشايخ الجيش الليبي الذين قبلوا الانضواء تحت إمرته نظرًا للحاجة والاضطرار)؛ وبهذه المعطيات قد أضاع رأس المال الوطني الليبي؛ ذلك لأنَّه استطاع بانتهازيَّته أن يُفسد الذّمم، ويُضيع الثَّروات، ويبعثر الأموال الوطنيَّة في غير أوجهها.

وعليه أقول: إنَّ الحاكم الانتهازي متى ما وصل إلى سُدّة الحكم حاكمًا فلا يقبل التماثل معه من أحدٍ، فحتى الشّعب الذي أحنى ظهره من أجل صعوده حاكمًا لا يراه يزيد عن كونه ظلًّا له، فإنْ وقف ليس لظلّهِ إلَّا التوقّف، وإن تحرّك فعليه بالتحرّك مرّة أمامه إن كان الخطر يأتي من هناك، ومرة من خلفه خوفًا من وخزة بعوضة، وأخرى من جانبيه حراسة عن أهل اليمين، وحراسة عن أهل الشّمال، وأخيرًا ساعة الظهيرة فلا يرى الشّعب إلَّا مثل ظلّه تحت قدميه.

ومع أنَّ زمن الانتظار مُملٌّ فإنَّ النتائج من بعده في معظم الأحيان تأتي سارّة؛ فلا داعي للقلق فكلّ شيء سيأتي سارًّا؛ حيث تطوى فيه صفحات الانتهازيين في ساعة من دائرة الممكن غير المتوقّع، وهنا لا أقل: (انتظروا)، بل أقل:

(أعملوا) فسيرى الله عملكم؛ ومن ثمَّ فلم يبق أمامكم إلَّا صخرتين: صخرة الرّكون إلى الانتهازيَّة والفوضويّة العبثيَّة، أو صخرة القبول بدفع الثّمن الذي لا يكون إلَّا من أجلكم وليس من أجل الوطن؛ ذلك لأنَّ للوطن ربٌّ يحميه، ولكن أنتم من الذي سيحميكم من الفقر والذل والعبث بثرواتكم، وتبذير أموالكم، وكسر هيبتكم، وطمس هويَّتكم الوطنيَّة؛ ومن ثمَّ ليس للانتهازية إلَّا أن تتكلّم لتبرهن أنَّه ليس لديها ما تقول.

وعليه: كان في عصر القوميَّات الانتماء المجتمعي للقوم، أينما حلَّوا، أمَّا في عصر الوطنيَّات فالانتماء الشَّعبي للوطن، أي إنَّ العلاقة بين بني القوم علاقة اجتماعيَّة، والعلاقة بين بني الوطن علاقة شعبيَّة؛ ذلك لأنَّ الشَّعب متنوِّع الأعراق؛ ولذا فالعلاقة بينه لم تكن علاقة دم كما هي العلاقة بين بني القوم الواحد.

فالدَّولة القوميَّة دولة مُغالبة، ولا معنى فيها للأقليَّات، أمَّا الدَّولة الوطنيَّة، فهي: دَولةُ الجميع؛ إذ إنَّ معطيات العلاقة بين أبناء الدَّولة الوطنيَّة دستوريَّة قانونيَّة، ومن هنا فهي أكثر من كونها علاقة اجتماعيَّة عُرفيَّة عاطفيَّة.

ولسائلٍ أن يسأل:

ما هو الوطن؟

أقول:

الوطن هو المكان الذي تُبذر فيه الإرادة بين الشَّعب، فتنمو محبَّة، وثمارها تتدلَّى بين أيدي النَّاس تيجانًا فوق رؤوسهم قِمَّة، وأصواتهم رفعةُ عدلٍ، وسلوكهم قدوة، والحُسنُ في ألوانهم قُزُحٌ، والشَمسُ مظلَّة النَّاس، والأمن والقُرَّة، والملك بيد الله ثروةُ الوطن، لا عبث ولا ضُرَّة، والحقُّ صوت

الشَّعب يمارسه على أرضه الحرَّة، والحِمْلُ إن ثقل على كاهل أحدٍ؛ كالريش خفَّ على الكلِّ والجُلَّة، والواجب مثل الصَّلاة والسَّلام على النَّبيّ في الشَّرع والملَّة، والموت من أجله وطنٌ، يحيي البهاء كلَّه[67].

فالوطن بهذه الصَّورة أنموذج لإنتاج العلاقات مودَّةً واحترامًا وتقديرًا وتفهُّمًا واستيعابًا ومشاركةً؛ إذ لا إقصاء ولا تهميش ولا حرمان ولا مظالم، والملكيَّة حق لا قيود وطنيَّة عليها.

وعليه: لا شهداء للوطن إنْ لم يكن الوطن للجميع سكنًا، وعيشًا رغدًا، وعدالة وملكيَّة، وممارسة حقٍّ، وأداءٍ واجبٍ، وحمْلَ مسئوليَّة؛ أي عندما يمتلك الشَّعب الوطن كلَّه تُصبح التضحيات كلُّها من أجلهم (من أجل الشَّعب)، وعندما يمتلكه الحاكم فلا تضحيَّات إلَّا من أجل الكاهن؛ ولذا علينا أن نؤكِّد أنَّ الشَّعب هو من يمتلك الوطن، وليس الوطن من يمتلك الشَّعب، ومن هنا تصبح التضحيات واجبة الأداء، والموت من أجله يخلق الحياة، ومع ذلك علينا أن نميِّز بين: أيُّهما أولى الموت من أجل الشَّعب؟ أم الموت من أجل الوطن؟

ومن ثمَّ ينبغي أن نميِّز بين، ثلاثة مفاهيم: (الإيمان، الولاء، الانتماء)، وهنا أقول:

ـ الايمان تسليم مطلق لا نسبيَّة فيه: (ومنه المستحيل، والمعجز)، وهذه لا تكون إلَّا بيد الله تعالى: (الإيمان بالله تعالى).

---

[67] عقيل حسين عقيل، الشَّخصيَّة الوطنيَّة الليبيَّة (سيادةً وهويَّةً)، دار النخلة للنشر، طرابلس: 2023م، 59.

ـ الولاء نسب إلى أصلٍ لا خيار في النسب إليه؛ كالولاء للعائلة والقبيلة.

ـ الانتماء انتسابًا عاطفيًّا تُغذِّية منظومة القيم الحميدة بحيويَّة التمسُّك بالمنتمى إليه؛ كما هي العلاقة بين المواطن ووطنه.

أمَّا حال الزَّعامة في الدَّولة الوطنيَّة؛ فهي: زعامة الشَّعب بأسره: (إرادة ووعيًا)؛ أي: إنَّ الزّعامة في الدَّولة الوطنيَّة (الدَّولة الحلّ) هي التي تحمل في مضمونها ومحتواها وضوح رؤية، وتلك الرُّؤية في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع تُمكّن من بلوغ الحلّ المأمول حقًّا وعدلًا.

والزّعامة المثلى في الدَّولة الوطنيَّة هي: الزَّعامة التي تجسّد القدوة الحسنة، حسنة الحُجَّة، وحسنة القولِ، وحسنة الفعل، وحسنة العمل، وحسنة السُّلوك، وحسنة المظهر.

ولهذا لا زعامة إلَّا بقوَّة، ولا قوَّة أعظم من قوَّة الحقّ، ومن يتّبع الحقّ لا بدَّ أن يكون زعيمًا على القوَّة المقدّرة بين الأنا والغير؛ ومن هنا تأخذ الزّعامات مجموعة صور، منها:

ـ زعامةُ رسالة ونبوءة: وهي زعامة اصطفاء ووهب وجعل، وهي لا تكون إلَّا من الله تعالى، الذي اصطفى، ووهب، وجعل من الأنبياء والرُّسُل من جعل على النبوَّة زّعامة مثلى.

ـ زعامةٌ استخلافيَّةٌ: كما هو حال زعامة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وهم: أبوبكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفّان، وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم جميعًا.

ـ زعامة إمامة مذهبيَّة: كما هو حال زعامة الحنيفيَّة، والمالكيَّة، والشَّافعيَّة، والحنبليَّة، والإباضيَّة. التي تزعّمها كلّ من الإمام أبي حنيفة، والإمام مالك، والإمام الشَّافعي، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام عبد الله ابن إباض رضي الله عنهم؛ ومن بعدهم جاء الخلف من السَّلف كما جاء توليد الجديد من الجديد.

ـ زعامة علميَّة.

ـ زعامة فنيَّة وأدبيَّة.

ـ زعامة اجتماعيَّة.

ـ زعامة سياسيَّة.

إذن: الزّعامة تتجدَّد وتتولَّد قدوة من قدوة حسنة، وتعد الزَّعامة مقامًا متقدّمًا، به يتمّ تبوء المكانة بعد المكانة، وهي لا تكون إلَّا عن مقدرة واستطاعة ومهارة عالية، ولا تكون إلَّا عن حُسن معرفة، وحُسن تصرُّف، ودراية واعية بما يجب والإقدام عليه، وما لا يجب وتجنبه، والنهي عنه مع أخذ الحيطة والحذر.

وعليه: فالزّعامة في دولة المواطنة لا تكون إلَّا على أساس المعرفة والدّراية التّامَّة بالأمر الدِّيني، والاجتماعي، والسِّياسي، والاقتصادي، والعلمي، الذي له علاقة مباشرة بحاجات النَّاس المتطوّرة والمتجدّدة، وكيفيَّة إشباعها، وحلِّ تأزُّماتها.

فالنَّاس دائمًا تقودهم الحُجَّة، التي تُجيب عن تساؤلاتهم، وتُسهِم في إشباع حاجاتهم المتطوّرة، سواء أكانت حُجَّة رسالة، أم نبأ، أم أنَّها حُجَّة فكريَّة، أم علميَّة، أم أخلاقيَّة، أم سياسيَّة، ومن هنا يلتفّ النَّاس حول من يتزعَّمُ أمورهم، ولكن

بعد أن يتعرّفوا على مقدرته وسداد رأيه، وعظمة رسالته، أو حُجّته، وسلامة أسلوبه، ومدى تطابقه فعلا، وعملًا، وسُلوكًا.

ولذا فمن يفرض نفسه رئيسًا، أو قائدًا، أو زعيمًا، أو ملكًا، أو خليفة، أو إمامًا؛ وهو لا يمتلك مقوّمات الزّعامة الوطنيَّة فلن يكون ذا قيمة مقدَّرة على أيٍّ منها.

ومن ثمَّ فمن أراد أن يُصبح زعيمًا في الدَّولة الوطنيَّة؛ فعليه بالقدوة الحسنة، التي تُجسّد الشّخصيَّة الوطنيَّة التزامًا بسيادة الشَّعب، وإرادته الحرَّة، وفقًا للعقد الاجتماعي: (الدَّستور الشَّعبي)، مع حُبِّه التام لقيم: العفو، والتسامح، والصفح، والتصالح؛ من أجل حياة حاضرة مطمئنة، ومستقبل مأمول يكون أكثر اطمئنانا وجودة.

وعليه: فالزَّعامة الوطنيَّة لا عصبيَّة فيها؛ فهي تختلف عن الرّئاسة والقيادة اللتين قد تمتلآن بالعصبية امتلاء، ممّا يجعل الانحياز والتعصُّب في البلاد قيمًا فاسدة لا تنتج للنَّاس إلَّا المظالم، والمفاسد، والطغيان، والفتن. ومن ثمّ تفسد العلاقات الاجتماعيَّة، والسِّياسية، والاقتصاديَّة، والأخلاقيَّة، والعلميَّة، وتتأخر البلاد عن مواكبة التقدّم والتطوّر إنسانيّا، وتقنيّا، ومعرفيّا، وعلميّا، وثقافيّا، وحضاريّا؛ ولذلك فللزّعامة صفات منها:

- صفة الاقتداء: قال سبحانه: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كثيرًا}[68].

[68] الأحزاب: 21.

- صفة الأخلاق: قال تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاس بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[69].

- صفة المشاورة: قال عزَّ وجلَّ: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[70]، وقال تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}[71].

- صفة المحبّة: قال تباركت أسماءه: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[72].

- صفة الإرادة: قال جل وعلا: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[73].

وهكذا تتعدّد صفات الزّعامة بما تتركه من أثرٍ طيّبٍ على الأنفس، وبما يحفّز على المزيد من العمل النَّافع، والعمل المبدع والمنتج، من أجل إشباع الحاجات المتنوّعة.

ومن هنا فالزَّعامة تؤدِّي بأصحابها إلى عرض ما لديهم من رسالة، أو فكرة، أو حُجَّة، أو رأي، أو رؤية؛ لتكون بين النَّاس شورى، وعن إرادة حرّة؛ إذ لا إكراه.

أمَّا الرِّئاسة والقيادة فإنْ لم يصرّح أصحابها بوجوب اتباع الغير لهم؛ فيبطنونه إبطانًا؛ ومن ثمّ فالحقّ وإحقاقه يتمّ تزعمه، أمَّا الباطل والظلم فأصحابهما يقودون النَّاس إليهما قيادة قهريَّة (إكراهيَّة)؛ إذ لا قيمة للإنسان في قواميسهم السِّياسية.

---

[69] البقرة: 44.
[70] الشورى: 38.
[71] آل عمران: 159.
[72] آل عمران: 31.
[73] البقرة: 256.

وعليه:

فالزَّعامة في الدَّولة الوطنيَّة لا بدّ وأن يكون أصحابها محقّين للحقّ؛ وإنْ لم يُحقّ الحقّ تُصبح الفرقة والفتنة دليل الحكم السَّائد؛ فتظهر الرِّئاسات والقيادات المتعصّبة قبليًّا، أو طائفيًّا، أو حزبيًّا، أو أسريًّا، أو أيِّ شكل من أشكال النظم الدِّكتاتوريَّة، التي لا ترى طاعة إلَّا لمن هم على رأسها، وفي المقابل زُعماء الوطن هم دائمًا لا يرون طاعة إلَّا للحقِّ الذي يأملون أن يرونه سائدًا بين النَّاس في الوطن، وفي أيّ مكان من العالم.

الزَّعامة قيمة حميدة لا تورّث، والهوة بينها والرئاسة والقيادة تتّسع؛ كونهما قابلتين للتوريث؛ ممّا يجعل ابن الشيخ شيخا متعصِّبا، وابن الملك ملكا متحكِّما، وابن القائد الظالم قائدا أكثر ظلما، وابن الدِّكتاتور دكتاتورا، وهكذا، يكون ابن الرّئيس سيء السُّمعة أكثر من أبيه في سوء السمعة.

أمَّا الزَّعامة كونها قيمة حميدة؛ فهي لا تورّث، بل يُقتدى بها اقتداء؛ ولهذا ينتهي الزعماء، ولا تنتهي رسالاتهم، ممّا يجعل قدوتهم وسُننهم الحسنة باقية للاحتذاء بها، وفي المقابل لا تسود رئاسة، ولا قيادة، ولا تسود قدوة لأصحابها.

وعليه:

ـ لقد انتهى زمن إرسال الرُّسُل واصطفائهم بالرَّسُول الخاتم صلوات الله وسلامه عليهم، وبقيت رسالة الكافَّة خالدة مصدرا للفضائل الخيِّرة كافَّة.

ـ لقد انتهى زمن الخلفاء الرَّاشدين، وبقي استخلاف الإنسان في الأرض خليفة.

ـ لقد انتهى زمن الدِّول القوميَّة والزَّعامات القوميَّة، وبقيت الأقوام في الأوطان مندمجة.

ـ جاء زمن الدَّولة الوطنيَّة: (زمن زعامة الشَّعب) الذي فيه الانتماء للوطن قيمة وطنيَّة.

وعليه:

فمن يرى نفسه خليفة؛ أقول له: لقد انتهى زمن الخلافة، كما انتهى من قبلِهِ زمن اصطفاء الأنبياء والرُّسُل الكرام، الذين ربطوا العلاقة بين السَّماء والأرض: (بين المستحيل والمعجز، وبين الممكن)، وهكذا لن يعود زمن الخلفاء أصحاب رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام؛ إذ لا وجود لنبيٍّ أو رسولٍ على قيد الحياة المشاهد، ولا وجود حيٍّ لخليفة صاحب رسول الله، كما هو حال: (أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية)؛ ولهذا فإنَّ أحزاب وتنظيمات الإسلام السِّياسي التي تدَّعي بأنَّها الخليفة، أو إنَّها قادرة على إعادة نظام الخلافة الإسلاميَّة، هي كمن يرى نفسه قادرا على إيقاف التَّاريخ عند دائرة من دوائره دون غيرها؛ وذلك من خلال إدارة عجلته إلى الخلف، حتى يقف عند ذلك العصر، الذي كان فيه نظام الخلافة مناسبا في دائرة النسبيَّة، وهو ذاته النِّظام الذي لن يكون مناسبا لعصرنا، والعصور القادمة.

وعليه: لكلِّ دائرة من دوائر التَّاريخ خصوصيَّة ينبغي أن تُقدَّر، وتُعتبر، وتُحترم، ومِن ثمَّ ينبغي أخذ العِبر منها؛ بتجنُّب ما يجب أنْ نتجنّبه، والأخذ بما ينبغي أخذه، أو الأخذ منه.

ومع أنَّ شعوب العالم ترتقب المزيد من التقدُّم، والرُّقي الحضاري، والثَّقافي، والعلمي، والسِّياسي، والاقتصادي، والإنساني فإنَّ تنظيم الإخوان المسلمين ما زال يأمل بسيادة

نظام الخلافة الذي كان في دائرة النسبيَّة صالحا لذلك الزَّمن دون غيره، وهو الذي لن يكون صالحا لزماننا.

ومن هنا أقول: لا إمكانيَّة لمن يريد أن يعيد نظام النبوَّة؛ حيث لا تطابق، ولا تماثل مع (محمَّد)، ونظامه، وزمانه، ومن يريد إعادة نظام الخلافة الرَّاشدة فعليه بإعادة أبي بكر الصّدِّيق، وعمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما أحياء على قيد الحياة، وفي المقابل من يريد أن يكون خليفة فعليه بالدَّولة الوطنيَّة خليفة؛ حيث الحقوق تمارس عن إرادةٍ، والواجبات تؤدَّى عن رغبة، والمسئوليَّات تُحْمَلُ مع تحمُّل ما يترتَّب عليها من أعباء جسام، أي: لا خليفة في الوطن إلَّا سيادة الشَّعب؛ إذ لا سيادة لسواه[74].

انتهازيَّة التكنوقراط.

التكنوقراط أصحاب النظرة المهنيَّة، وهم من حيث المهنة لا ينبغي أن يسبقهم رأي تجاه ما يجب مهنيًّا، أمَّا تجاه ما ينبغي سياسة لإدارة الدّولة، وترويض جموح شعبها فلا علاقة لهم بذلك وإن ركب منهم من ركب جواد الانتهازيَّة، وهنا تكمن العلّة والوهم إن أديرت الدّولة مترامية الأطراف بعقول التكنوقراط؛ لإنَّ التكنوقراط معياريون بحسابات كميّة فلا ينظرون إلى ما يجنّب الدّولة تأزمات اجتماعيّة أو وطنيّة؛ ولذا إن أردنا تخطيطًا ونهضة فلا إمكانيّة لتغييب عقول التكنوقراط المتخصّصين دون أن تؤخذ على علّتها لرسم السّياسات الوطنيّة، التي لا تكتمل إلَّا بآراء السياسيين الذين لا يرون الشَّعب كمًّا فقط، بل يرونه على الأهميّة كيفًا في حاجة

[74] عقيل حسين عقيل، الخلاف (في دائرة التاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020، ص 21 – 56.

إلى كمٍّ من الخيارات والبدائل المشبعة للحاجات المتطوّرة، والمحققة للأمن، وتحسن العلاقات الاجتماعيّة والوطنيّة.

والعقل التكنوقراطي كونه معياريًّا يتحفَّز إلى فرض المعياريّة المهنيّة وفقًا لمعطيات التخصّص والمهنة، وليس وفقًا لمعطيات الواقع الاجتماعي والإنساني للمواطنين؛ ولذا فالتكنوقراط نظريُّون (حسابات وأرقام وتجرّد)، وكأنَّه لا علاقة بينهم وما يجري بين النَّاس، فهم يميلون إلى المثاليّة وكأن أحوال الشَّعب منضبطة مع حركة عقارب السَّاعة دقائقٍ وثوانٍ.

وهنا فالمهني لا يهمه رأي الشَّارع، ومن ثمَّ فرأيه قد يكون مسبِّبًا في كسر العلاقات بين الرَّاعي والرّعيَّة، ولأنَّهم معياريون فهم لا يرون للتنفيذ أهميَّة ما لم يكن وفقًا للمعياريَّة، أي إنَّ التكنوقراطيين يتمسَّكون بأخذ المعياريَّة، حتى إنَّهم كما قالت رئيسة وزراء بريطانيا: لو تولّى المهنيون قمّة السِّيادة في الدّولة لتحوَّلوا إلى دكتاتوريين، أي إنَّ الأمر عندهم قابل إلى أن يتغيَّر من المهنيّة المتمسّكة بالأخذ بالمعياريَّة إلى الدكتاتوريَّة الفارضة للرأي انتهازيَّةً.

انتهازيَّة النّفعيّين:

النّفعيّون هم الذين يميلون انتهازيَّةً مع كلّ هبّة ريح؛ فإن كانت الرّياح جنوبيَّة كانوا جنوبيّين، وإن كانت شماليّة كانوا شماليّين، وهكذا إن كانت الرّياح غربيّة كانوا غربيّين، وإن كانت شرقيّة كانوا شرقيّين. فمثل هؤلاء دائمًا قيمهم تتبدّل وتتغيّر انتهازيَّةً مع تبدّل وتغيّر اتجاه الرّياح في الفصول الأربعة.

وأوهام النفعيّين ترتبط بالمصلحة والطّمع؛ فهم إن تمكّنوا من أخذ المكاسب أخذوها ولو كانت مخالفة للمبادئ والقيم

والأخلاق والقانون، ومثل هؤلاء يوجدون في كلّ مكان وزمان، وحتى في المعارك يوجدون، ولكن لم يكن وجودهم في ميادينه من أجل خوضها، بل من أجل اغتنام الفرص ولو كانت على حساب أرواح القتلى وجروح المصابين.

وعليه: فهؤلاء النفعيّون الواهمون بعد انتهاء المعارك فمنهم من يجعل من نفسه بطلًا، ويدّعي أنَّه كان قائدًا شُجاعًا، وفي المقابل إن كانت الهزيمة هي العنوان في المشهد فستجد من خسروا المنفعة يتلونون بألوانٍ حرباويَّة وكأنَّهم لم يكونوا راضين عمَّا جرى، أو أنَّهم نادمون على ما فعلوا، وفي كلّ الأحوال لا استغراب؛ فهذه لا تزيد عن كونها معطية نفسيّة من معطيات الشَّخصيّة النفعيَّة الواهمة والمنتهزة. فمثل هذه الشخصيّة إن تمكّنت وتصدّرت مع المتصدّرين المشهد السّياسي فستكون عبئًا ثقيلًا على الدّولة، وهنا وجب أخذ الحذر، وإلَّا في دائرة الممكن سيكون غير المتوقّع أقرب بكثير ممّا هو متوقّع.

ومع أنَّ المنفعة شيء موجب وينبغي ألَّا يتم الإغفال عن أهميّتها فإنَّ النفعيّين ليسوا على هذا المفهوم، وليسوا على دلالته، بل هم الذين ارتبطت أطماعهم بما ينفع فقط ولو كان على حساب الغير، وهنا تكمن العلّة التي تستوجب إيقاظ النّفس الواهمة من هذا العلّة الانتهازيَّة؛ وذلك بإيقاظ الذّاكرة لعلّها تتعظ.

فالذّاكرة محفظة المعلومات والمعارف والمخزن الحصين الذي لا تكون مفاتيحه بيد الغير، إنَّها مكمن الأسرار والصّندوق الأسود للعقل البشري، الذي منه تستدعي المعلومة وفقًا للطلب أو الأمر المرغوب.

ولأنَّ الذّاكرة مكمن الأسرار، ومخزن المعارف والخبرات والتجارب الإنسانية، فهي قابلة لأن تُنشّط بمزيدٍ من الانتباه والدّراية؛ ولذا ينبغي على الإنسان أنْ يفكّر عن انتباه إذا أراد ألَّا تضمر ذاكرته، وعليه بتنشيط ملكات عقله من خلال المران الذّهني، وإجراء عمليَّات المقارنة التي تمكّنه من التمييز بين المنفعة كونها بيّنة حقّ، والنفعيّة كونها مظلّة وهم وانتهازيَّة.

ومن ثمّ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذّاكرة ويخضعها للتقييم، ثمّ يقوّم حالته حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجل نفسه وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد ارتقاء فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الآخرين؛ حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح وكسر الوهم، ثمَّ يتحدّى عقله تفكيرًا في نفسه؛ حتى يدرك أسرارها وخفاياها، ومن ثمّ يعرف أنَّ قوّة البصيرة بقوّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلَّا إذا دخلتها الغفلة وسيطر عليها وهم النفعيّة.

ولهذا فتفطين الذّاكرة لا يكون إلَّا نتاج الوعي بأهميتها للإنسان الذي له من الآمال ما له، وله من المأمولات ما يُحدث النُّقلة إلى الأنفع والأفيد موضوعيًّا، فتفطين الذّاكرة ضرورة تستوجب حُسن التدبّر الذي يصنع المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة دون أن تكون على حساب الغير كما يفعل النفعيّون.

ولأنَّ الإنسان يولد اجتماعيًّا حيث لا إمكانيّة للعيش منفردًا، فهو في حاجة لمن يذكّره ويعلّمه كيف يتعلّم، وكيف ينتفع بجهده الفني، والعلمي، والبدني ليتدبّر أمره وأمر من

تربطه بهم علاقات، ومع أنَّ هذه قاعدة فإنَّه كما يقولون: لكلّ قاعدة استثناء؛ فالنفعيّون يستغلون الفرص الجاهزة بجهود الغير لينهبوها حتى وإن خسر الغير؛ ولهذا وجب العمل على تفطين الذّاكرة من خلال تمرينها تدبّرًا، وتنشيطها تذكّرًا وتفكّرًا حتى تتمكّن من كسر الوهم، وإن لم نفعل ذلك تصبح الذاكرة حيّزًا يعشعش الوهم فيه[75].

ومع أنَّ للذاكرة علاقة بالتَّاريخ من حيث إنَّها محفظة أحداثه وقضاياه، فإنَّ التّاريخ دائمًا وما يحتويه من أحداث فيها من التشابه ما فيها، وفيها من الاختلاف ما فيها، وفيها من المتوقّع وما لم يكن متوقّعا، ونتيجة لما تحمله الذّاكرة من متناقضات تاريخيَّة؛ فهي دائمًا في حاجة للتفطين والتنشيط حتى لا يكثر الواهمون ويسرق النفعيُّون جهود النَّاس وينتهزونها[76].

انتهازيَّة التفويض:

التفويض من حيث المفهوم هو: إعطاء صلاحيّة في دائرة الممكن، وليست كما توهَّم البعض أنَّها إنابة وإحلال محل، وكل ما يُعمل تفويضًا وفقًا للقانون المتعاقد عليه لا تلحقه الانتهازيَّة، ولكن أي شيء أو عمل مترتب عليه أو من خلفه فلا يكون إلَّا انتهازيَّةً.

ومع أنَّ التفويض لا يكون إلَّا عن إرادة، فإنَّ بعض التفويضات في ظاهرها الإرادة وفي باطنها الوهم، فالدّول التي تُحكم بالقوّة كما هو حال الدّول التي حدثت فيها الانقلابات

---

[75] عقيل حسين عقيل، من الفكر إلى الفكر، القاهرة: مكتبة الخانجي، 2017م، ص 105 – 111.

[76] [76] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، القاهرة: شركة الملتقى للطباعة والنشر، 2011م، ص 124 - 127.

العسكريّة، فإنَّ بقاء الحاكم فيها على رأس السُّلطان هو بقاء بلا إرادة من المحكومين؛ وبعد تمكّنه من الحكم أمنًا، وسياسة، واقتصادًا يفتح أمام المحكومين أبواب تأييده، ومناصرته، ومبايعته حتى يتوهّم وكأنَّهم الذين انتخبوه إرادة؛ ومن ثمَّ يتوهّم أنَّ الشَّعب هو من فوّضه لإدارة زمام الدّولة، وينسى أنَّه جاء مفوضًا لنفسه بالقوّة، ومنتهزًا لسيطرته وقوّة قبضته الأمنيَّة.

وعليه: فإنَّ التفويض يأخذ أوجهًا ثلاثً:

الوجه الأوَّل: التفويض من الخالق إلى المخلوق: كما هو حال الرُّسُل والأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم الذين اصطفاهم الله وأيّدهم بنصره؛ لربط العلاقة بين السَّماوات والأرض، ومع أنَّهم المفوضون من الله فإنَّهم لا ينوبون عنه أبدًا؛ قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ}[77]. أي ما آتاكم به الرَّسُول من الله فخذوه، وما نهاكم عنه الرّسول المفوض من عند الله فانتهوا، وَاتَّقُوا اللَّهَ في هذين الأمرين: (الأخذ، والانتهاء).

ولهذا فمن يعتقد أنَّ الله تعالى قد فوّض رُسُله بالمطلق فهو واهم، ومن ظنّ أنَّ الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام ينوبون عن الله فهو واهم، وفي المقابل من ظن أنَّ الله لم يعط محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام صلاحيّةً، فهو واهم: (وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا).

الوجه الثَّاني: تفويض البعض للبعض: وهو التفويض من قِبل الذين يتعلّق الأمر بهم إلى من يولُّونه على الأمر، حيث يختارون أو ينتخبون شخصًا يرونه أهلًا للتفويض وحَمْل المسئوليَّة، فينتخبونه رئيسًا للدّولة، أو ممثلًا عنهم في أحد مجالسها أو مؤسّساتها، ومع أنَّه المفوض لتمثيلهم فإنَّه لا

[77] الحشر: 7.

يمثلهم إلَّا في الأمر الذي هو منهم (تمثيل نسبي)، وإلى جانب هذا التفويض هناك تفويض الأشخاص لمن ينوب عنهم في مرافعة قانونيَّة، أو حضور اجتماع، أو لقاء من اللقاءات الاجتماعيّة أو الفكريَّة والسّياسية والاقتصاديَّة؛ ولهذا فلا انتهازيَّة فيما يقومون به وفقًا للعقد الاجتماعي أو الدستوري، أو الصَّلاحيَّات والاختصاصات، ولكن الانتهازيَّة فيما لم يرد بشأنه موثقًا أو نصًّا قانونيًّا.

ومع أنَّ من يولّى أمرًا ينبغي أن يُطاع فيه فإنَّه لا طاعة لبشرٍ في غيره؛ إذ لا طاعة مطلقة إلَّا لله تعالى ولرسوله الكريم، أمَّا ما دون ذلك فالتفويض مقيّدٌ، والتقييد هنا لم يكن للحريَّة، بل جاء من أجلها.

والطَّاعة في دائرة الممكن هي للأمر المفوّض به، وليس لوليٍّ لم يفوّض من قِبل الذين يتعلّق الأمر بهم، فالذين يقولون طاعة أولي الأمر واجبة، نقول نعم: ولكن دون انتهازيَّة؛ لتكون الطَّاعة وفقًا للأمر السّيادي الذي لا يكون إلَّا ممن يتعلّق أمر السّيادة بهم، وفي غير ذلك فلا طاعة لأحدٍ إلَّا بما يرضي الله؛ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}[78].

ومن دون شكّ إنَّ طاعة الله جلَّ جلاله بالنسبة إلى المؤمن طاعة توحيد وعبادة، وتسليم مطلق، وطاعة الرّسول عليه الصَّلاة والسَّلام من طاعة الله تعالى.

أمَّا طاعة أُولي الأمر منكم؛ فهي طاعة للأمر الذي هو منكم، أي عندما يقرّر الشَّعب قرارًا: (سواء في حالة السّلم، أم حالة الحرب)، أو أنْ يصدر الشَّعب دستورًا؛ فلا ينبغي لأولي الأمر مخالفته، وكذلك لا ينبغي لمواطنٍ قرّره أن يخالفه؛ ذلك

[78] النساء: 59.

كونه قرارًا وطنيًّا، وليس قرارًا فرديًّا، إنَّه قرار الشَّعب بأسره، ومن دون إكراه؛ ولهذا فلا طاعة لولي أمر في غير ما ولّي عليه من أمر: (من المواطنين الذين أصبح تفويضهم حُجَّة لهم، وحُجَّة عليهم)، وفي المقابل من تقوده الانتهازيَّة تُسلب إرادته ولن يكون إلَّا مأمورًا.

وعليه: قال تعالى: (وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)، ولم يقل: (وأولي أمركم) فالأولى: تعود على من يتولّى أمركم إرادة مع وضوح الأمر المكلّف به ولايةً منكم، أمَّا الثَّانية: فتخصّ ولي أمركم: (الوالدين، أو من يتولّى رعايتكم، وبخاصّة رعاية القصّر)، ومع ذلك فإنَّ الوالدين لا طاعة لهما في معصية الله عزَّ وجلَّ؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا}[79].

إذن طاعة أُولي الأمر في مرضاة الله لا يمكن أن تكون فيما يرتكبه أُولي الأمر من مفاسد، ومعاصٍ، بل الطّاعة فقط في مرضاة الله؛ حيث لا مفاسد، فإن كانت المفاسد سائدة في سياسة أُولي الأمر منكم فلا طاعة لهم في معصيةٍ وإفسادٍ في الأرض؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}[80].

ومن ثمَّ فطاعة ولي الأمر واجبة بما أنَّه لم يخالف الأمر، ولكن إنْ حاد عن الأمر؛ فلا طاعة له، بل يجب إعادته إلى الأمر المستوجب الطّاعة، كما هو حال إمام الصَّلاة عند المسلمين الذي يصطفُّ المصلون وراءه يركعون ويسجدون لله طاعة؛ فإن أخلَّ، أو أخطأ في غفلة عن قراءة القرآن

---

[79] العنكبوت: 8.

[80] البقرة: 11، 12.

المصلّى به، وجب على المصلّين أن يصحّحوا له ما أخطأ فيه قراءة، وإنْ أخطأ في أداء سجدة أو ركعة فلا يطاع، بل ينبّه لما أخطأ فيه؛ حتى يعود إلى الأمر، وفي حالة لم يعد؛ فلا يتبعه المصلُّونَ فيما ذهب إليه خطأ، بل عليهم تنبيهه حتى العودة إلى صحة الأمر وصوابه، وسلامة أدائه أمرًا (هو كما هو)، ومن هنا يتضح الفارق بين طاعة الأمر وطاعة أولي الأمر؛ ولذلك فلا طاعة لوليّ أمر خرج عن الأمر الذي كُلّف به من قِبل النَّاس، ولكن إن كان وليّ الأمر قد استلب الأمر استلابًا فلا وجوب لطاعته، بل مقاومته واجبة من أجل إعادة المسلوب والمستولى عليه.

ولذلك فإنَّ الخلاف مع من يخالف الشَّرع حقٌّ شرعي، ومع من يخالف الدّستور حقٌّ دستوري، ومع من يخالف العرف حقٌّ عرفي، ومع من يخالف القيم الحميدة حقٌّ قيمي، وفي المقابل يجب احترام المختلفين وتقدير دينًا؛ إذ {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[81].

الوجه الثَّالث: تفويض الشَّخص لنفسه على حساب حقوق الآخرين وإرادتهم كما هو حال من ينقلب على نظام الحكم مثلما سبق تبيانه، ويتولّى كرسي الرِّئاسة عنوة، ثم يدير الدّولة ودواليب السّياسة فيها دون أن يُشرك أحدًا في رسم السّياسة العليا للبلاد، أو أنَّه لا يشرك أحدًا إلَّا من اشترك معه في انقلابه على السُّلطة بقوّة السِّلاح.

ومثل هذا التفويض عبر التَّاريخ عمره قصير لأنَّه لا يزيد عن كونه عمر الانتهازيَّة، التي أرضها بورٌ فلا تُعمر، فمثل هؤلاء الانتهازيون لا بدَّ وأن تكون نهاياتهم لا تختلف عن بداياتهم؛ حيث أنَّ بداياتهم كانت قتل، أو سجن مع سلبٍ

[81] البقرة: 256.

وهيمنةٍ وإقصاءٍ، ونهاياتهم بالتمام لا تخرج عن القتلِ والسّجنِ والسَّلبِ والنَّهبِ والإقصاءِ والعزل.

لا نهوضَ والانتهازيَّة على قيد الحياة:

مع أنَّ الانتهازيَّة وليدة التفكير العقلي فإنَّها ليست بنظريّة، بل هي سلوك يُفعل في مناخٍ فيه من التلوثِ ما فيه؛ ذلك لأنَّ بذور الانتهازيَّة غير صالحةٍ للنمو في البيئة الخاليّة من الآفات والأمراض.

ولأنَّ الانتهازيَّة لا يمكن لها أن تنمو في البيئات المتحصّنة علمًا وديمقراطيّة شفَّافة؛ فإنَّ شعوب هذه البيئات في سباق لغزو الفضاء وفكّ شفرات التقنية الدّقيقة والمعقدّة، أمَّا شعوبنا ما زلت أحياء كأموات.

وعليه: إن أرادت شعوبنا أن تنهض وتستنير عقولها فعليها بمقاتلة الانتهازيّة ومحوها من الأذهان، وإلَّا ستورّث مِن بعدنا إلى الأحفاد فتنة، وحينها سنكون أمام الله مسائلين ومحاسبين على عدم مقاتلها: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ}[82].

ولذا فلا استنارة للعقول والانتهازيون على قمم المنابر، ولا نهوض للشّعوب والانتهازيّون على القمم السُّلطانيَّة. ومع أنَّ الاستنارة عقليَّة ونفسيَّة وفكريَّة، فإنَّه لا قيمة لها إن لم تمتد قيمًا، حتى يتمّ تجسيدها في الأفعال والأعمال، وبها تدار الحياة سيادة، حتى يتمدّد المواطن بحيويَّتها إلى النِّهاية دون أن يتمدَّد أحدٌ على حسابِ حقوقهِ وواجباتهِ ومسئوليَّاتهِ؛ ومن ثمَّ يُصبح المواطن راية الوطن التي يستظل جميعُ المواطنين بها.

[82] البقرة 193.

وعندما تسود السِّيادة الوطنيَّة يُصبح الشَّعب تحت راية الوطن دستورًا منظمنًا للعلاقات وضابطًا لها، وليس هكذا عبثًا تحت رحمة السُّلطان وتحت رحمة الحكومة؛ ممّا يجعله قادرًا على اتخاذ قراراته بلا ضغوطٍ، وقادرًا على تنفيذها نُقلة من أجل الوطن؛ وعيًا ودرايةً وإرادةً ومسئوليَّةً، ولا مخاوف.

ولأنَّها السّيادة؛ فبسيادتها بين النَّاس هويَّةً يستقرُّ الشَّعب وينهضُ وعيًا ودرايةً واستنارة، ويستقر النِّظام وتنهض الدِّيمقراطيَّة سلوكًا وممارسةً، وتستقرُّ الدَّولة وتنهض بناءً وإعمارًا، وفي المقابل إذا انكسرت السِّيادة بأيَّة علَّة فلا استقرارَ، ولا ديمقراطيَّةَ، ولا أمنَ، ولا نهضةَ؛ ولذا فلا قيمة لأيّة دولة ما لم تكن السِّيادة فيها رفعةَ شأنٍ عند مواطنيها وعند الغير.

ومع أنَّ لاستردادِ السِّيادة الوطنيَّة قيمةً فإنَّه لا سيادة إلَّا بامتلاك الإرادة الوطنيَّة التي تعني: امتلاك الشَّعب لزمام أمره؛ حيث ينتفي الإكراه والتَّوجيه وفقًا لمسار سياسات وأفكار خاصَّة، أو شخوصٍ بعينهم.

ولهذا يُعَدُّ امتلاك الإرادة امتلاك حريَّة اتخاذ القرار الممكِّن من تحقيق مصلحة الوطن العليا مع قبول تحدي الصِّعاب؛ من أجل ترسيخ السِّيادة الوطنيَّة، وفي المقابل فقدان الإرادة يلغي كل ما من شأنه أن يجعلَ الشَّعب حرًّا ذا سيادة.

ومن هنا في دائرة المتوقَّع لا استغراب أن تسترد السِّيادة المسلوبة إذا امتلك الشَّعب إرادته بعد أن سُلبت منه تحت ظروف استثنائيَّة، ومن ثمَّ فالقوى التي تظن أنَّها قد قضت على إرادة الشَّعب فستفاجأ بما لم تكن تتوقَّعه، مما يجعل التخويف بالموت والتلويح به هو وحده المشجّع على حب الموت، والمطالبة به، والإقدام عليه من أجل السِّيادة.

وعليه: فمن أجل استرداد السِّيادة الوطنيَّة ستلاحق الشّعوب الموت أينما كان حتى لا يلاحقهم حيثما يكونوا؛ كونهم واثقين أنَّ الموت لا يخيف، بل الاستسلام للقتلة وحده المخيف، مع إيمانهم التَّام أنَّ الموت لا يأتي إلَّا مرَّة واحدة، ولا يتكرر أبدًا، كما أنَّهم يؤمنون أنَّ من يطلب الموت دفاعًا عن الدِّين والشَّرف وسيادة الوطن تكتب له الحياة الدَّائمة التي لا موت مِنْ بعدها.

ومن ثم فالجبناء وحدهم لا ينعمون في الحياة الدنيا، ولن ينعموا بالحياة الباقية؛ ولهذا دائمًا الخوفُ رحمةٌ، والجبنُ عارٌ.

ولذا فإنَّ الشّعوب التي تطلب الموت من أجل الحياة قادرة على استرداد السِّيادة الوطنيَّة متى ما سلبت منها بغير حقٍّ، ولكن أي إرادة يمكن بها أن تسترد السّيادة؟

إنَّها الإرادة المستقلة (غير التَّابعة) التي تجعل من مالكيها لاعبين أساسيين في المشهد الوطني، وليسوا دُمًا بأيدي الغير.

وعليه: عندما تُفقد الإرادة الوطنيَّة لا يمكن أن يكون للوطن سيادة؛ فالوطن الذي تستباح حدوده لا يمكن لأهله أن يقال عنهم: إنَّهم سادة.

فليبيا على سبيل المثال: بعد 17 من فبراير 2011م أَسْقَطَتْ العقيدَ معمر القذافي ونظامَه، ثمَّ من بعده سَقَطَتْ الدَّولة برمَّتها، وبالتَّالي أصبح في ليبيا حكومتان متخالفتان، ومجلسا نوابٍ متخالفان، وجيشان يتقاتلان، وعدد كبير من الكتائب والمليشيات المسلَّحة الموازية لكل المؤسَّسات العسكريَّة والضّبطيَّة والأمنيَّة التي هي الأخرى متوازية خلافًا بين شرق وغربٍ وجنوبٍ؛ فهذه الدَّولة وما يمكن أن يكون على مثلها هل يمكن أن توصف بأنَّها دولة ذات سيادة؟

دولة فُرض على شعبها مجلسٌ رئاسيٌّ برؤيةٍ واختيارٍ أجنبيٍّ كما جرى بالتمام تحت إشراف المبعوث الأممي (مارتن كوبلر) مبعوث الأمم المتحدة إلى ليبيا؛ وذلك بعد لقاءات أجراها في مدينة الصُّخيرات المغربية بتاريخ 17 من ديسمبر 2015م؛ حيث اجتمع بمجموعة من الليبيين الذين فُرِزُوا برغبةٍ واختيارٍ أجنبيٍّ، وليس برغبةٍ واختيارٍ ليبيٍّ؛ إنَّه المجلس الرِّئاسي الليبي الذي لم ينتخبه الليبيون، ومع هذا أصبح ذلك المجلس كما يمثل الليبيين في الدّاخل يمثلهم في المحافل الدوليَّة أيضًا، مجلسٌ هذا حاله، فهل يمكن له أن يكون خيرَ ممثلٍ للسِّيادة الوطنيَّة؟!!

وكذلك تمَّ اختيار مجلسٍ رئاسيٍّ ورئيس حكومة بعد ذلك المجلس المنتهي الصَّلاحيَّة، فهذا المجلس ورئيس حكومته قد تم انتخابهم يوم 5 من فبراير 2021م بمدينة جنيف السويسريَّة من قِبَل 75 شخصًا ليبيًّا، ومع أنَّ الخمسة والسّبعين (75) ليبيون فإنَّ اختيارهم جميعًا لم يتم من قِبَل الليبيين رغبةً وإرادةً، بل تم اختيارهم جميعًا من قِبَل الأجانب، وعلى رأس مَنْ انتخبهم نائبة المبعوث الأممي لليبيا: (ستيفاني وليامز) الأمريكيَّة؛ ولذا فالذين تم انتخابهم للمجلس الرِّئاسي البديل والحكومة البديلة على الرَّغم من أنَّهم لا يمثلون الإرادة الليبيَّة والرَّغبة الليبيَّة، فإنَّهم بلا شكٍّ سيكونون الممثلين لليبيا في جميع المحافل الدّوليّة، ومن ثمَّ أقول: أين السيادة الوطنيَّة الليبيَّة؟!!

ولأنَّ الْمُخْرِجَ الأجنبي (ستيفاني وليامز) تريد أن تُبعد عنها تهمة اللاديمقراطيَّة فبعد أن اختارت (75) ليبيًّا مع فقدان شخص منهم بعد موته من إصابة كورونا 19، حيث أصبح العدد المشارك في الانتخابات 74 شخصًا، وهم الذين من قِبلهم تمَّ انتخاب المجلس الرّئاسي البديل وانتخاب رئيسٍ

للحكومة، بعد ذلك قرَّرتْ (ستيفاني وليامز) من خلال 74 شخصًا: (أن يتمّ عرض المنتخبين على مجلس النَّواب الليبي؛ لاعتمادهم والتصديق على اختيارهم وبكل شفافيَّة)، ثمَّ أقرَّت قرارًا آخرَ ملزمًا: (إنْ لم يتمَّ الاعتماد من قِبل مجلس النُّواب الليبي المنتهي الصَّلاحيَّة-كونه المنتخب لسنة واحدة فقط وما زال مستمرًّا في عامه التَّاسع حتى الآن- يعاد عَرْض المنتخبين من قِبل الأربعة والسبعين (74) إلى الأربعة والسبعين(74) أنفسهم؛ لاعتمادهم والمصادقة على انتخابهم) فيا لـها من ديمقراطيَّة وشفافيَّة!!!، ومن هنا فهل يمكن لنا أنْ نصف هذه اللعبة الدِّيمقراطيَّة بلعبة ترسيخ الشَّفافيَّة لسيادة الليبيين؟!!

وعليه: فمن لا يُنتخب من قِبل الشَّعب وإن ادّعى بما شاء له أنْ يدَّعيه فلا يمكن له أن يكون ممثِّلًا لسيادة الشَّعب والدَّولة، وهنا بالتمام تكمن العلَّة التي لا تنفكُّ إلا باسترداد السِّيادة الوطنيَّة، والتي لا تكون إلَّا عن رغبة وإرادة مع وافر الاستنارة؛ حيث لا إكراه.

ومن هنا سيظل أمر السِّيادة في خبر كان إلى أن تُسترد بعد أن تُطوى صفحات الاختيار والانتخاب بالرَّغبة الأجنبيَّة كرهًا؛ فالشَّعب الذي حُكم ولا رأي له في مَن نُصِّب عليه حاكمًا تحت مظلة الأجنبي فبرفضه وقبوله التحدِّي مع قبول دفع الثَّمن يستطيع أن يسترد سيادته ويكون حاكمًا ولا رأيَ ولا قرارَ إلَّا بيده.

ومن ثم لا حوار وطني، ولا مصالحة وطنية، ولا أمن سياسي واقتصادي واجتماعي من دون إرادة وسيادة وطنيّة مستنيرة؛ ولهذا وجب استرداد السِّيادة التي تقسَّمت بين مجلس

نواب ومجلس دولة ومجلس رئاسي، وكلها هياكل منتهية الصلاحيَّة، وليس لها وحدة رأي أو قرار.

وعليه: فإنَّ السِّيادة الوطنيَّة عنوان الشَّعب الذي له دولة مستقلَّة ذات سيادة على ترابها وقرارها، ولها جيشها الوطني ومؤسَّساتها الوطنيَّة التي لا تتبع الغير، ولا سلطان عليها بغير حقٍّ، سواء أكان من الدَّاخل أم من الخارج، أي: لا يعلو على سيادتها أي كيانٍ سياسيٍّ أو اجتماعي، وبالتالي: السِّيادة الوطنيَّة عندما تكون إدارتها عن دراية واستنارة فلا تستثني من الشَّعب أحدًا، سواء أكان فردًا أم جماعةً، وهي واحدة لا تتجزأ وغير قابلة للتصرُّف فيها، ولا يُتَنَازَلُ عنها أبدًا، حتى وإن نُزعت بعلَّة من العلل، فالعلَّة لا بدَّ أن تزول، والسِّيادة لا بدَّ أن تسترد عن وعيٍ واستنارةٍ.

ولأنَّ هذا القرن الواحد والعشرين هو عصر الدَّولة الوطنيَّة فلا إمكانيَّة لعودة رؤى العصور الوسطى التي كانت لا ترى سيادة إلَّا لمن يندرجون تحت عنوان الكنيسة؛ حيث بقيت هذه الرُّؤية سائدة إلى أن جاء عصر اليقظة الذي تزعمه المفكِّر الفرنسي (جان بودان) عام 1576م بقوله: (السِّيادة هي السُّلطة العليا التي يخضع لها جميع المواطنين وهي التي تعمل القانون)، أي إنَّه جعل أمر السِّيادة متعلِّقًا بالمواطنة، وليس بالدين؛ ولهذا دائمًا كلُّ من يحاول أن يربط مفهوم السِّيادة بالأديان ليس له إلّا الفشل، لأنَّ الدين لله، والله -جل جلاله- ربّ الكل، ولا إمكانيَّة لسيادة شعب على شعب أو دولة على دولة، والشَّعب يمتلك إرادته الحرَّة.

ولهذا فالأوطان التي تؤسَّس عن إرادة تكون ذات سيادة، أمَّا الأوطان التي تُرغم شعوبها المختلفة على الانصهار وفقًا لرؤية عقائديّة فليس لها إلَّا التفكك والانقسام، وانطلاقًا من

هذه المعطيات فليبيا في دائرة الممكن لن تُقَسَّم؛ كونها ثقافة واحدة، وديناً واحداً، وعلاقات اجتماعيَّة متداخلة النسيج والمخاطر تحوطها من كل جانب دون أن تفرّق، وتاريخًا فإن لها رمزًا وطنيًّا يتغنى به كل الليبيين اعتزازًا وهو الشَّيخ الشهيد (عمر المختار)، الذي كان جِهادهُ من أجل السِّيادة الليبية فقطع الطريق أمام كل من يأتي من بعده مدعيًا أنّه رمزٌ لسيادة الليبيين، وهذا لا يعني ألَّا تأتي الرّموز من بعده، بل الرّموز سيادة من بعده لا تأتي إلَّا سيادة شعب بأكمله.

ولذا فمن أجل استرداد السّيادة الوطنيّة من حقّ الشّعوب أن تقرّر نظام دولها، وألوان راياتها، وأناشيدها الوطنيّة، وعليهم أن يختاروا إرادةً أيَّ نوع من أنواع الإدارة يفضّلون؛ بغاية تخلّصهم من المركزيّة المقيتة، وتمكّنهم من السّيادة على أرضهم، وسيطرتهم على مقدّراتهم، وتؤهّلهم إلى قبول التحدّي؛ من أجل صناعة المستقبل المأمول وطنيًّا وحضاريًّا (قيم حميدة، وعلم متقدّم، وتقنية عالية الجودة، وبيئة صحيّة خالية من الآفات)؛ لتكون دولهم ذات سيادة وطنيّة؛ تعرف ما لها وما عليها، ويكون مسئولوها قادرين على التمييز بين ما يجب الإقدام عليه وما يجب الإحجام عنه، ومن ثم تصبح الإرادة فيها: إرادة شعب ودولة وحكومة، ولكل صلاحيّاته واختصاصاته ومسئوليّاته وحقوقه وواجباته الدَّستوريّة والقانونيّة، وإلّا ستظل الدّول تتبدّل بين انتكاسة وأخرى، والشّعب ضحيَّة بين هذا وذاك بلا سيادة.

وعليه فإنَّ السّيادة الوطنيّة سيادة إرادة، وليست نتاج قرارات فوقيّة يتخذها السَّاسة الذين تميل ولاءاتهم إلى الأحزاب المنتمين إليها على حساب مصلحة الوطن وولائهم إليه؛ ولذا فالسّيادة الوطنيّة رفعة منزلة وهي الصّفة القانونيّة

الملازمة لصفة الدَّولة، والتي متى ما زالت عنها هذه الصفة زالت.

ومن ثم علينا أن نميِّز بين السِّيادة الوطنيّة والسِّيادة السِّياسية؛ فسيادة الوطن سيادة الشَّعب، أمَّا السِّيادة السِّياسية فهي سيادة الحاكم في شخصه أو سيادة الحكومة التي تكون في كثير من الأحيان تحت ضغوط لا تجعل لديها إرادة حرّة، سواء أكانت ضغوطًا داخليَّة أم خارجيَّة؛ ولذا فلا قرار وطني من دون سيادة وطنيّة وشعبها على الدراية والاستنارة.

ومن هنا عندما تنفلت الإرادة السِّياسية عن السّيادة الوطنيَّة فإنَّها تضعفها وتعطّلها، وقد تنقلب عليها وتكون على حسابها وهذا بالتمام ما يجري في معظم بلداننا وأوطاننا، ويا ليته لم يجرِ ولا يتكرر.

وعليه: فإنَّ تحقيق السّيادة الوطنيّة الليبيّة في ظل وضعها الـمُدَوَّل أمرٌ صّعبٌ، ولكنّه لن يكون مستحيلًا إذا امتلك الليبيون إرادتهم الحرّة، وانفكوا من التبعيَّة؛ سواء أكانت إقليميَّة أم دوليَّة، ثمّ انفكوا من قادة الفوضى الذين سادوا عليهم بقوَّة السَّلاح كرهًا، وهذا الأمر هو الآخر ليس هيّنًا ما لم يتوحّد الجيش على مبادئ سيادة الوطن لا على سيادة الانتهازيين الذين امتلكوا السِّلاح وسطوا على السّلطة سطوًا.

ومن هنا فلا إمكانيَّة للسّيادة الوطنيّة في ظل مليشيات تمتلك السِّلاح، وتمتلك المال، وتهيمن على السُّلطة في البلاد مع مساندة من قوى إقليميّة ودوليّة، مع العلم أنَّ هذه القوى السّائدة على حساب سيادة الوطن ستعمل كل ما في وسعها لإعاقة إي اتفاق توافقي بين الليبيين أو على الأقل تعطيله؛ ذلك لأنَّ اتفاق الليبيين يعني نهاية الانتهازيين المتغوّلين على حِساب سيادتهم وإزاحتهم من المشهد، وهذا الأمر بالنسبة

إليهم أمر حياة أو موت؛ ولذا فلا سيادة لوطن تسود فيه المليشيات والكتائب المسلّحة، ولا إمكانيّة لاسترداد السّيادة بما أنَّ مليشيات الانتهازيين ما زالت متغوِّلة.

وهكذا الحال في بلاد اليمن التي سادت فيها الفوضى حتى كسرت سيادة اليمنيين كما كسرت الفوضى سيادة الليبيين والسّوريين والصّوماليين والعراقيين، ومن ثمَّ أصبح الجيش اليمني منقسمًا، والكتائب المسلّحة منقسمة، والمليشيات تمتلك السّلاح ولا مرجعيّة لها إلَّا رؤوس عصاباتها، والثّائرون على المظالم لم يتمكّنوا من حسم الصّراع، والحكومة اليمنية قراراتها لا تنفّذ يمنيًّا وإن قَبِلَ البعض بها.

في بلاد اليمن الجرح عميقٌ جدًّا؛ حوثيون ثاروا على المنظومة السَّابقة، والدَّعم يأتي إليهم من الخارج، وحكومة باسم اليمن لا تستطيع أن تقف على قدميها في بلاد اليمن على الرَّغم من الدَّعم والمساندة الإقليميّة والدّوليّة، وبنوك الدّم بين هذا وذاك تطالب بالمزيد، ورائحة الموتى في أنوف كل اليمنيين، وكل فريق يصف موتاه بالشُّهداء، وفي المقابل يصف موتى الفريق الآخر بأنَّهم من أهل النَّار، يمني يقتل يمني، وليبي يقتل ليبي، وسوري يقتل سوري، وعراقي يقتل عراقي، ولبناني يقتل لبناني، وجميعهم أخوة يتقاتلون، وكل فريق يدَّعي الشهادة لموتاه؛ وكأنَّ الشهادة في دولنا فرضت بغاية قتل الأخ لأخيه.

ومن هنا فأمر حسم الصّراع في بلاد اليمن لا يمكن أن يكون إلَّا بثمنٍ آنٍ، وثمنٍ لاحقٍ؛ فالثّمن الآني: لا إمكانيَّة لحسم الصِّراع يمنيًّا وإن رغب اليمنيون؛ ذلك لأنَّ قضية اليمن مدوَّلة، وإلَّا ماذا يعني المبعوث الأممي إلى اليمن؟ يعني: لا إمكانيَّة لحلٍّ في بلاد اليمن من دون قرارٍ دوليٍّ من الأمم

المتحدة، وهنا أصبح حالها كحال ليبيا وسوريا، ومن قبلهما حال العراق والصُّومال.

أمَّا الثَّمن اللاحق: فهي تلك الخطةُ الملعونةُ والمستهدِفة إضعاف العرب وفقًا لقاعدة: (فرق تسد)؛ فالعرب كونهم أمَّة لها تاريخ فهم أمَّة مُخيفة؛ إذ صنعوا الحضارات منذ زمن عاد، وثمود، ودولة سبأ، وحضارة الأهرامات، وحدائق بابل المعلقة، وحضارة الأندلس، وفوق ذلك إنَّهم أمَّة ولها دين جعل منهم أمَّة لا تركع ولا تسجد إلَّا لله، وشعارهم: (الله أكبر)؛ ولأنَّهم أمَّة تقبل الجوع ولا تقبل بكسر الكرامة والسِّيادة فعبر التَّاريخ والخطة الملعونة: (فرق تسد) تلاحقهم، حتى كسروها وفتَّتوا وحدتها وجعلوها شعوبًا ودولًا، ومع ذلك ما يزالون يلاحَقُون؛ خوفًا من أن تلتئم الشّعوب وتعود الحضارة التي سيكون عنوانها: العرب (الأمَّةُ والدِّين).

ولذا فإنَّ اليمن هي البوابة الرَّئيسة التي إن حُسم الصِّراع فيها مغالبة ستكون أرض الخليجِ كلُّها مباحةً لكسر سيادات الشّعوب فيها، وبقراءة خريطة العرب يلاحظ أنَّ الخطة الملعونة: (فرِّق تسد) مركَّزة على إيقاد نيران الفتن بين المكوِّنات الاجتماعيَّة والجهويَّة في المغرب العربي، ومركزة على قلب العروبة مصر مسلمين ومسيحيين، فالسُّودان بعد أن كان جزءًا من مصر أصبح دولة ذات سيادة مستقلة، ثمّ بعد تلك السِّيادة الواحدة أصبح مقسّمًا بين دولتين (دولة مستقلة في الجنوب ودولة مستقلة في الشّمال)، ومع ذلك ما زالت الفكرة الملعونة تعمل على تقسيم السّودانيين إلى مزيدٍ من الدّول؛ ولهذا ادخلوا السّودان في صراع أهلي ويا ليته ينتهي قبل أن تنتهي دولة السّودان.

أمَّا الخليج والشَّام الكبير فإنَّ التركيز على إيقاد نار الفتنة بين السُّنَّة والشِّيعة، والمسلمين والمسيحيين، والعرب والأكراد، ومع أنَّ الخطة الملعونة مستهدِفَة استخدام إيران في دعم الشِّيعة على حساب أهل السُّنة أينما كانوا، وفي بلدان الخليج على وجه الخصوص؛ فإنَّ إيران هي الأخرى مستهدَفة مثلها مثل العرب؛ أمَّة ويراد لها أن تكسر.

ومع أنَّ الأمَّتين مستهدفتين بالكسر وعدم النُّهوض الحضاري فإنَّ الأمَّة الفارسيَّة متيقظة بالخطورة؛ ولهذا فهي تعمل، وقد بلغت من إنتاج السِّلاح ما يخيف الخصم، ومن ثمَّ فأهل الغرب (أوروبا وأمريكا) يميلون إلى التفاوض معها؛ بغاية إحداث التوازن في المنطقة؛ ذلك لأنَّهم يعرفون قيمة الخسارة إن لم يُفَاوِضُونَهَا وهم معترفون بها قوّة.

إذن: إيران إن لم يتم استيعابها فستشكل خطرًا على الخصم الموجود في المنطقة، عربٍ وغير عربٍ، وأهل الخطة الملعونة يعرفون ذلك ويقفون دونه تفاوضًا، وفي المقابل يعملون ما في وسعهم على ألا يتصالح العرب مع الإيرانيين؛ لأنَّ أهل الخطة: (فرِّق تسد) لا يرون العرب والإيرانيين إلَّا فخارًا يجب أن يُكَسِّرَ بعضُه بعضًا.

ومع أنَّ أهل الغرب مواقفهم تتبدَّل مصلحةً ولا ثوابت من أجلها، فإنَّ فكرة: (فرّق تسد) عندهم ثابتة؛ ولذا وإن اختلف الرّئيسان (ترامب وبايدن) فإنَّ السّياسةَ الأمريكيَّة في زمن الرَّئيس السَّابق ترامب لن تختلف عنها في زمن الرّئيس الحالي بايدن تجاه تلك الفكرة: (العرب أمَّة مخيفة، ولا إمكانيَّة للتخلّص منهم جملة واحدة، وأنَّ الإيرانيين أصبحوا أمَّة مخيفة، ومن ثمَّ فليس لنا إلَّا إيقاد نيران الفتنة بينهم).

ومع أنَّ الخلاف يبدو ظاهرًا بين الإيرانيين والغرب فإنَّ إمكانيَّة جنوح دول الخليج وإيران إلى التحالف الأسيوي بزعامة الصّين وروسيا سيريح العرب والإيرانيين الذين بهذا الجنوح سيتمكنون جميعًا من الحصول على أريحيَّة لتنفس مزيد من الأكسجين. ومع ذلك فإنَّ الولايات المتحدة الامريكيَّة ستعمل كلّ ما في وسعها إن استطاعت لإفساد التقارب والتلاحم السعودي الإيراني الصّيني الرّوسي؛ ومن ثمَّ ستكون في دائرة المتوقَّع ضاغطة سياسيًّا على الأنظمة في دول الخليج، أمَّا في دائرة غير المتوقّع فكل شيء ممكن ولا استغراب من حدوث المفاجئات.

ولذا فمع أنَّ في السّابق كانت مؤشِّرات إدارة الرَّئيس جو بايدن تشير إلى إيجاد تفاهمات ومفاوضات سلميّة بين أهل اليمن بمختلف ألوان طيفهم من جهة، والمملكة العربيَّة السعوديَّة والإمارات من جهة أخرى، فإنَّ التقارب والتفاهم السّعوديّ الإيراني الصيني الرّوسيّ سيكون متغيّرًا دخيلًا يسبب اختناقًا للولايات المتحدة الأمريكيَّة.

ولهذا فأهل تلك الفكرة الملعونة سيعملون كل ما في وسعهم إلى أن يتبيَّن لهم مخرجٌ بأقل الخسائر، أو أن يكسبوا مواليين من بين الصُّفوف المتقاتلة حاليًا في اليمن؛ إنَّه اليمن الذي فقد السَّعادة بعد أن كان سعيدًا، ويا ليته يستعيد سعادته سيادةً وطنيَّةً.

وعليه: يا ليت أهل اليمن يتوافقون قبل أن يُحسم الأمر مغالبة، وقبل أن ينحاز الأجنبي إلى طرف على حساب وجود طرفٍ آخر، ومع ذلك فإنْ حدثت المغالبة يا ليتها تكون من أجل وحدة اليمن دولة من الحدود إلى الحدود، وقبل أن يفكِّر

أحدٌ ويتمدَّد على حساب حرِّيَّات الآخرين أو على حساب سيادة أوطانهم.

ومع أنَّنا ضدَّ المغالبة بشكلها المطلق فإنَّنا بالمطلق مع مغالبة الحقِّ للباطل، ومع أنَّنا نأمل أنْ يُحسم الخلاف توافقًا ومصالحة بين اليمنيين، فإنَّنا نعرف أنَّه لا حلَّ للمشكل المدوَّل إلَّا بما يرضي أهل تلك الفكرة الملعونة: (فرق تسد)؛ ولذا وللأسف الشَّديد فأيّ حلّ لا يرضيهم لا يعدُّ إلَّا وقودًا لإدارة عجلة الفوضى في بلاد اليمن كما هو وقودٌ لإدارتها في ليبيا والعراق وسوريا ولبنان والصُّومال.

وعليه: كلّما سادت الفوضى في دولنا ساد رؤوسها انتهازيَّةً وفوضى، وسادت مصلحة الأجنبي من خلفهم على حساب مصلحة شعوبنا وسيادتنا، ومن هنا تنشط الطَّائفيَّة في لبنان الذي لن تُستعاد سيادته ما لم تطوَ صفحات الطَّائفيَّة والتحاصص الطَّائفي الذي ساد على حساب سيادة اللبنانيين ومصالحهم.

وهكذا بالتمام الحال في سوريا التي انكسرت سيادتها على أيدي أبنائها اقتتالًا؛ ولذا فلا إمكانيَّة لعودة السِّيادة الوطنيَّة في سوريا ما لم تطوَ صفحات الاقتتال وصفحات احتكار السُّلطة، التي يجب أن تطوى في كل الدِّول بغاية استرداد السِّيادة الوطنيَّة، التي إنْ لم تُسترد فلا إمكانيَّة لنهاية الصِّراع والاقتتال حتى وإن توقَّف الاقتتال مؤقَّتًا تحت أيِّ ضغط من الضُّغوط الإقليميَّة والدّوليَّة.

وعليه: فلا سيادة لأيّة دولة شعبها يتقاتل، أو يتربَّص بعضه ببعض تحت أيّ عنوان من العناوين الحزبيَّة المتأدلجة، أو الطبقيَّة المقللة لشأن البعض من النَّاس، أو الطَّائفيَّة والقبليَّة التي تتمركز حيويَّتهما على العصبيّة وإن اختلفت كيفيَّةً

وأسلوبًا؛ ولذا فأيّة دولة تسيطر عليها هذه العناوين ستكون فاقدة للسِّيادة الوطنيَّة التي تستوجب الاسترداد بطي كل الصَّفحات التي فُتحت على حساب صفحة الوطن وسيادة شعبه.

وإذا نظرنا إلى خريطة العراق نلاحظ أن الدَّولة ذات سيادة، ولكن إنْ عبرنا الحدود ودخلنا بغداد فنلاحظ أنَّ البعض متربص بالبعض؛ سنَّةً وشيعةً، وعربًا وأكرادًا، وديانات أخرى وأعراق متعدِّدة الصِّفات، وولاءات بعضها داخلي وبعضها خارجي، والكل لم يرضه الآخر، ممّا جعل حيويَّة السِّيادة الوطنيَّة العراقيَّة بين هذا وذاك في مهب الرِّيح؛ ولذا فإنْ أراد العراقيُّون استرداد سيادتهم الوطنيَّة كرامةً وهويَّةً فعليهم بطي هذه الصَّفحات، وفتح صفحة الوطن الذي فيه الحقوق تمارس، والواجبات تؤدّى، والمسئوليَّات تحمل، ولا إقصاء ولا عزل سياسي، ولا تغييب مع وافر الاحترام لحريّة الاستقرار والتنقل، مع ضمان حريّة التملك بلا استغلال، ومن ثم فلا ضابط للتداول السّلمي على السُّلطة، ولا ضابط للعلاقات بين الشَّعب إلَّا الدَّستور المستمدّ سيادة من الشَّعب العراقي؛ حيث لا إقصاء ولا عزل سياسي.

ولسائل أن يسأل:

وكيف حال تونس رأس حربة الرَّبيع العربي؟

أقول:

مع أنَّ تونس بعد ثورتها في دائرة غير المتوقَّع قد فاجأت أصحاب الفكرة الملعونة وضربت مثالًا لممارسة الحريَّة بأسلوب ديمقراطي، فإنَّ أصحاب تلك الفكرة بدأوا يلتفتون إليها تشويشًا؛ ولذا فإنْ لم يلتفت التونسيّون إلى بعضهم البعض

محبَّة ومودةً فسيادة تونس وأنموذجها الدّيمقراطي سينتكسان لا محالة.

أمَّا بقيَّة بلدان المغرب العربي فسياساته مختلفة؛ منها السَّاكن، ومنها المتحرك؛ فالجزائر -أكبر كتلة سكَّانيَّة فيه- والمغرب بينهما نيران الفتنة باستفزازات أصحاب تلك الفكرة ما زالت توقد بين الحين والحين، والأمر لم يحسم بعد؛ ذلك لأنَّ أصحاب الفكرة يعوِّلون تشويشًا على الدَّاخل المغربي والدَّاخل الجزائري وإن طال زمنه أو تأخَّر قليلًا، وهكذا بالتمام الحال الموريتاني؛ أحزاب مختلفة وأحيانًا تتخالف إلى أن يحسم الأمر وتصبح الدِّيمقراطيَّة بشفافيَّة هي العنوان.

ومع أنَّ أصحاب الفكرة التي لعنَّاها مرات عدَّة لم ولن يسمحوا لوحدة رأي بين العرب، فإنَّهم بحقٍّ يأملون قيام الدَّولة بلا دكتاتوريَّة قامعة للحريَّة، أي: مع أنَّ صدورهم في بعض الأحيان تضيق من التعدد غير المنضبط بقواعد اللعبة السِّياسية، فإنَّ لنا في صدورهم مساحة واسعة غايتها أن تمارس شعوبنا الحريَّة بأسلوبٍ ديمقراطي وشفَّاف؛ فعلى سبيل المثال: مع أنَّهم اتفقوا على طي صفحة صدام حسين، وزين العابدين بن علي، وحسني مبارك، ومعمر القذافي، وعلي عبد الله صالح، وكذلك طي صفحة الرَّئيس بشار الأسد الذي انقضَّ الأسد عليه لولا مقاومة الجيش مع أيدي الرُّوس والمناصرة الإيرانيَّة.

ولذا فإنْ أراد العرب كرامة وهويّة وسيادة لشعوبهم فعليهم بطي صفحات الخلاف والفُرقة، وعليهم بقبول الآخر هو كما هو لا كما ينبغي أن يكون عليه من وجهة نظرهم الخاصَّة، وعليهم بالتَّداول السِّلمي على السُّلطة، وطي صفحات الشَّخصنة، والآراء المتأدلجة وفقًا لرؤية شخص

دون سواه، وعليهم بالدَّولة الوطنيَّة التي لا سيادة فيها إلَّا للشَّعب، وعليهم بتحدِّي الصِّعاب علمًا ومعرفةً؛ بغاية البناء والإعمار وإحداث النُّقلة إلى مأمولات عظيمة تجعلهم قمّة.

ومن ثمَّ فعليهم بطي صفحات التبعيَّة والاعتماد على الأجنبي والاستئساد به على بعض من بني الوطن، أي عليهم بالعودة إلى عقولهم بوصلة؛ لعلَّهم بها يُرشدون، وعليهم بمد الأيدي إلى أهل العلم الذين سبقوهم في هذا المضمار، وعليهم بأخذ المعونة العلميَّة الممكِّنة من النهوض؛ بغاية المستقبل المشترك إنسانيًّا، وعليهم بإعادة قراءة التَّاريخ؛ ليتمكَّنوا من تصحيح ما قرأوا منه مشوّهًا برؤية الأنظمة والحكومات التي زوَّرت تاريخهم وتاريخ كثير من الشّعوب والأمم، ومن ثمَّ فعليهم بمعرفة أنفسهم إذا شاءوا أن يغيروها، ويجعلوا لها هويَّة وسيادة[83].

الهويَّةُ والانتهازيّة باسمها تُروّج:

مع أنَّ الترويج تسويق وتزيين، وفيه من المبالغة الدّعائية ما فيه، فإنَّ حقيقة المزيّن ليس بتزيينه، بل بمعطياته التي هو عليها حقيقة بلا تزيين، فمفهوم زيَّن الشيء (أظهره على البهاء) وهو في حقيقته ليس كما تمّ إظهاره تزينًا.

ومع أنَّ الهويَّة عنوانٌ لمن يتعلّق أمرهم بها، فإنَّ البعض من أولئك الذين ينتمون إليها وينتسبون يتزيَّنون بها ويتفاخرون، ولكن ليس بغاية تعظيم شأنها، بل بغاية انتهاز عنوانها لتسويق مآربهم الشّخصانيَّة؛ ولهذا جاء القول: إنَّ الانتهازيَّة باسم الهويَّة تروّج؛ ومن هنا فالترويج لا يزيد عن كونه انتهازيَّة شخصانيَّة على حساب معطيات الشّخصيَّة

[83] عقيل حسين عقيل، استرداد السيادة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م، ص 7 – 25.

الوطنيَّة (سيادة وهويَّة)؛ ولذا في دائرة الممكن ليس بغريب أن يدّعي البعض بما ليس فيهم؛ وذلك بغاية الصعود على أكتاف الغير وظهورهم.

ولأنَّ السِّيادة لا تكون إلَّا نتاجًا لتعظيم الإرادة؛ فإنَّ الهويَّة لا تكون إلَّا عنوانٌ لأهل السِّيادة، وفي المقابل الانتهازيّون وحدهم قادرون على تقليل شأن السِّيادة الوطنيَّة، وهكذا يكونون قادرون على طمس عنوان مواطنيها إذا ما سادوا على ظهورهم سادة.

ولذلك فالعلاقة قويَّة بين من اتخذ عنوان الوطن انتهازيَّةً، والذي رفع شعار الانتهازيَّة من أجل السّيادة والهوية؛ ذلك لأنَّ الذين ليس لديهم ما يقدّمون من حلولٍ لمنتخبيهم في اثناء فترة الانتخابات يتخذون الوطن والسِّيادة والهويَّة الغام لترويج ما يأملون بلوغه انتهازيةً. فعلى سبيل المثال: في ليبيا بعد أنْ فتحت أبواب التقديم للانتخابات الرئاسية تقدَّم لذلك 98 مترشّحًا لرئاسة الدّولة، وجميعهم يتكلّمون باسم الوطن والسِّيادة والهويّة الوطنيَّة وكأنَّهم الوكلاء عليها، في الوقت الذي فيه من تقدّم ليرشّح نفسه بشهادات مزوّرة؛ ذلك أنَّ هذا البعض عندما جاء ليقدّم نفسه في كلمة مختصرة على شاشات النّقل المرئي المباشر أتضح أنَّه لا يستطيع أنْ يميّز بين الجرّ وحروفه، ولا يميّز بين أخوات إنَّ وأخوات كان، ولا يميّز بين القرآن والتشريع، ولا يميّز بين الفيدراليَّة والكونفدرالية. وهناك بعض آخر ظنّ أنَّه بهذا التقديم وكأنَّه قد أصبح رئيسًا لليبيا، رؤساء بلا مشاريع وطنيَّة تبرز توجّهاتهم وسياساتهم الدّاخليَّة والخارجية فهمُ أمام أعين النَّاس وكأنَّهم عراة بلا ملابس خارجيَّة ولا داخليَّة.

السِّيادة والهويَّة قيمتان لا تُعظَّم الأوطان إلَّا بهما؛ كونهما العنوان الرَّئيس لوحدة الوطن وسيادته ونهضته ورفعة شأنه؛ ومع أنَّ الهويَّة عنوان الفرد، وعنوان الجماعة، والمجتمع والشَّعب، وهي المكوِّن القيمي للأنا، والذَّات، فإنَّها وفي كل الأحوال يتم انتهازها من قِبل الانتهازيين على غير وجهة وطن.

ومع أنَّ لكلِّ فرد خصوصيَّة تميِّزهُ عن غيرهِ من الخصوصيَّاتِ فإنَّ الهويَّة لا تكون عنوانًا مترسّخًا في النَّفس إلَّا عن وعي ودراية ورغبة؛ فهي قد تكون عن فكر ودين وثقافة وعلم، وقد تكون بأسباب الرَّوابط الاجتماعيَّة أو المصلحة المشتركة، وفي المقابل إذا كانت عن غير دراية وعن غير وعي واستنارة فانتهازها سيظل ميسرًا.

والهويَّة قد تكون على مستوى الفرد الذي يحمل فكرًا أو ثقافةً، وقد تكون على مستوى المجتمع أصلًا وانتماءً، وقد تكون الهويَّة هويَّات، ممَّا يجعل الشَّعب واحدًا والهويَّات متعدِّدة كما هو حال الشَّعب الأمريكي الذي ينصهر في بوتقة الهويَّة الأمريكيَّة ولكلِّ إطاره الاحتياطي من المرجعيَّات التي في حالة الضَّرورة يتمكّن بعض المهاجرين من العودة إليها، أو العودة إلى شيءٍ منها وهو ما زال في مهجره (الوطن البديل وهويَّة الانصهار الجديدة)؛ وذلك بغاية استمداد شيءٍ من الدِّفء المفقود، وهذا وإنْ كان على علاقة مباشرة بالعاطفة فإنَّ أثر الهويَّة الجديدة سيظل بحسن منافعه وحُسن رعايته مفخرة متوازية بين هويَّتين في غربتين:

الأولى: الغربة عن دفءِ الوطن المهاجر منه.

الثَّانية: غربة المهاجر عن الثَّقافة في الوطن المهاجر إليه، وهذه لا تكون واضحة إلَّا في الجيل الأوَّل من

المهاجرين، أمَّا الجيل الثَّاني من المهاجرين فسيكون الأثر الأقوى للهويَّة الجديدة وثقافتها حتى وإن كان الدِّين مختلفًا، ممَّا يجعل هويَّة الوطن مهما عظمت لا تكون على حساب عظمة الدّين، ومع ذلك فإنَّ الهويّة سواء أكانت هويَّة قوم أم هويَّة دين فهي قابلة للانتهاز ولوجهة من ورائها مآرب شخصانيَّة.

ولأنَّ للُّغات هويَّات، وللثَّقافات هويَّات، وللأديان هويَّات، وللشّعوب هويَّات، وللمجتمعات هويَّات؛ فإنَّه لا استغراب إنْ تعدَّدت الهويَّات واتحدت في وطنٍ واحدٍ، بل الاستغراب أن تكون كل هويَّة وكأنَّها وطنٌ بذاتها داخل وطن الهويَّة المشتركة؛ حقوق تمارس، وواجبات تؤدَّى، ومسئوليَّات تحمل.

ولذا فقوَّة رابطة الهويَّة بقوَّة سريانها في عقول المنتميين إليها من الهويَّات اللاحقة بها انتماءً؛ حتى تشكِّل لهم ضميرًا عامًّا مشتركًا لا يجتمعون على شيءٍ إلَّا به، وهذا لا يكون على القوَّة الجاذبة إلَّا إذا كانت الهويَّة المشتركة تمدّهم بالدّفء، وتغنيهم أو تعوِّضهم عمَّا كانوا فيه من دفءٍ ولو كان نسبيًّا.

ولذا فمع أنَّ الولايات المتحدة الأمريكيَّة دولة واحدة فإنَّ هويَّات شعبها بالعشرات؛ إذ الهنود الحمر يشكِّلون هويَّة في قلب أمريكا، واللغة الأسبانيَّة تشكل هويَّة في قلب أمريكا، والدّين الإسلامي يشكل هويَّة في قلب أمريكا، واللوبي الصّهيوني يشكّل هويَّة في قلب أمريكا، والجالية العربيَّة تشكّل هويَّة في قلب أمريكا، والأفارقة الأمريكان يشكّلون هويَّة في قلب أمريكا، وهكذا تتعدَّد الهويَّات وأمريكا واحدة؛ إذ شعبها يتساوى في السِّيادة والهويَّة الأمريكيَّة المشتركة، ومع أنَّه لا

خطر في ذلك، فإنَّ الخوف يُنذر بأنَّ هذه الهويَّات قد تكون في المستقبل مستقلَّة وذات سيادة في حالة ما إذا تعصِّبت كُتلة من الكتل وانتهزتها على حساب كُتل أخرى، وهذا ما يُستقرأ مما أقدم عليه الرَّئيس السَّابق دونالد ترامب في أواخر أيَّام حكمه عندما حرَّض بعضًا من البيض المتعصِّبين له ولكتلته على كسر هيبة السِّيادة الأمريكيَّة المتمثّلة في حرمةِ مجلس شيوخها ونوابها؛ حيث اقتحم أنصاره مقر الكونغرس الأمريكي يوم 6 من يناير 2021م وكأنَّهم غير مبالين بالسِّيادة الأمريكيَّة التي أُنْتُخِبَ الرَّئيس جو بايدن رأسًا عليها بدلًا من الرَّئيس رونالد ترامب؛ ومن هنا حدث ما لم يكن متوقَّعًا وهو الذي يشير إلى أنَّ كل شيء في المستقبل الأمريكي سيكون ممكنًا بما أنَّ هناك من يعمل تعصُّبًا وانتهازيّةً بغاية استعلاء العرق الأبيض على غيره من الأعراق الأمريكيَّة.

وهكذا الحال في كلِّ الأوطان (كثر عدد سكَّانها أم قلَّ)، والقصد بالأوطان هنا تلك التي تتعدَّد الهويَّات فيها مع شيء مِن التعصُّب لأحدها على حساب الأخرى؛ ففي ليبيا التي جَمَالُـهَا من جمال ألوان طيفها (عرب، وأمازيغ، وطوارق، وتبو) مع أنَّ لها هويَّة وطنيَّة متماسكة دينًا وثقافةً وعادةً ولغةً وسلوكًا، فإنَّ عصبيَّة الدَّم فيها إنْ تبنَّاها أهل الانتهازيَّة قد تكون على حِساب سيادة الوطن ووحدة ترابه وسلامة أمنه.

ومع أنَّ الأقليَّة لا تسود على حساب الأكثريَّة إلَّا استثناءً، فإنَّ الهويَّة الوطنيَّة تتصدَّع إذا لم تَسُدْ المساواة وطنيًّا بين أبناء الشَّعب، ومن هنا لا فرق بين المواجع والتأزُّمات في حالة ما إذا سادت الأكثريَّة على حساب الأقليَّة، أو أنَّ الأقليَّة قد سادت على حساب الأكثريَّة؛ ولأجل القضاء على المواجع والتأزُّمات الوطنيَّة يجب أن تكون الهويَّة واحدة لوطنٍ واحد مع تقدير المختلف واحترامه والاعتراف به لونًا جميلًا من

جمال ألوان الطَّيف الوطني؛ ومن ثمَّ ينبغي أن تكون للشَّعب حقوقٌ تمارس، وواجباتٌ تؤدّى، ومسئوليَّاتٌ تحمل، ولا إقصاءَ ولا تمييزَ إلَّا قُدرةً وعلمًا ومعرفةً وتخصُّصًا ودرايةً وخبرةً وتجربةً تخدم الوطن، وتعمل على نهضته ورفعة شأنه وصون هويَّته وسيادته.

ولأنَّ اختلاف الأديان يؤدِّي إلى اختلاف الثَّقافات والسُّلوكيَّات، فإنَّه إنْ لم يُنتبه لأهميَّة المختلف بناءً وإعمارًا فقد يكون المختلف على حساب الهويَّة الوطنيَّة سلبيَّة ودونيَّة؛ فمصر على سبيل المثال: شعب واحد (مسلمين ومسيحيين) هويّة واحدة (مصر أوَّلًا وآخرًا)، ولكن إنْ أصبح المسلمون فيها مفضَّلين على المسيحيين، أو أنَّ المسيحيين هم المفضَّلون فيها على المسلمين؛ فالأمر بلا شكَّ سيتغيَّر هويَّة وعصبيَّة وانتهازيَّة، وبخاصَّة إنْ مُنحت الفرصة لأهل الفتن وموقدي نيرانها.

وهكذا الحال في العراق شعب وهويَّته الوطنيَّة (العراقيَّة) على الرُّغم من اختلاف أعراقه وديانـاته ومذاهبه الدِّينيَّة، فإنْ شَعر الأكراد بأنَّهم مواطنون من الدَّرجة الثَّانية فإنَّ الشّعور بأهميَّة الهويَّة الكرديَّة يصبح خيرَ ما يمدّهم بالدّفء على حساب دفء الوطن وهويَّته العراقيَّة، وكذلك إنْ شعر أهل السُّنة بأنَّ أهل الشّيعة هم المفضَّلون في العراق، أو عكس ذلك أنَّ السُّنة هم المفضَّلون فيه، فالأمر لا بدَّ وأن يتغيَّر ولا يكون إلَّا على حساب الهويَّة العراقيَّة وسيادته الوطنيَّة.

ولذا فإنَّ المنتهزين لعنوان الهويَّة الوطنيَّة بغايات شخصانيَّة سيكونون هم المفسدون للهويَّة ذاتها؛ ولأنَّهم المفسدون لها، فلا يمكن أن يأتي يومًا يكونون فيه أعضادها وسندها الوطني؛ وهكذا بالتمام هو حال الانتهازيَّون الذي

يصعدون على أكتاف الشّعوب ثم يزيحونهم بعيدًا كي لا يتطلعوا يومًا إلى الصّعود.

وعليه:

فالهويَّة الوطنيَّة عنوانٌ للمواطنة وصفة للوطن، وفي دائرة المتوقَّع لا وطن إلاّ وله هويَّة، وفي دائرة غير المتوقَّع يصبح الوطن بلا هويَّة؛ فمن أراد أن تكون له هويَّة بها يتميَّز كما يتميَّز الآخرون بهويَّاتهم الوطنيَّة؛ فعليه بالولاء للوطن، ومن يغفل عن ذلك أو يجهل، يجد نفسه مُعنونًا بعناوين لا ترتقي به إلى تأسيس دولة.

فالانتماء إلى الوالدين يؤسّس إلى الانتماء للأسرة، والانتماء للأسرة يؤسِّس إلى الانتماء للعشيرة، والانتماء للعشيرة يؤسّس إلى الانتماء للقبيلة، والانتماء للقبيلة يؤسِّس إلى الانتماء للأمَّة، والانتماء للأمَّة يؤسِّس وطن بكامله.

وفي مقابل ذلك نجد أنَّ الانتماء إلى الأحزاب النَّامية في عالمنا المتخلّف لا تؤسّس إلَّا بغاية تحقيق المصلحة الخَّاصة سواء أكانت سياسيَّة أم اقتصاديَّة أم ثقافيَّة (ضاقت دائرة المصلحة أم اتسعت)، أمَّا في العالم المتقدِّم نموَّا فمصلحة الوطن أوَّلًا، ثم تأتي المصالح الخاصَّة من خلفه، فعلى سبيل المثال: الانتماء للحزب الدِّيمقراطي الأمريكي، يعني الانتماء إلى رؤية على ضوئها تُرسم السِّياسات والخطط التي لا تثق في رؤية الحزب الجمهوري، والانتماء للحزب الجمهوري يعني الانتماء إلى رؤية على ضوئها ترسم السِّياسات والخطط التي لا تثق في رؤية الحزب الدِّيمقراطي، ومع أنَّهما الحزبان الرَّئيسان في الولايات المتحدة الأمريكيَّة، فإنَّ الانتماء إليهما

يتبدَّل بتبدُّل الرُّؤية؛ ومن هنا يتّضح الفارق بين الانتماء للحزب الذي يتبدَّل، والانتماء للوطن الذي لا يتبدَّل.

أمَّا في عالمنا المتبدَّل؛ فكلّ شيء فيه يتبدَّل؛ فيه الانتماء للوطن يتبدَّل بالانتماء للحزب، وفيه دائرة الحزب تمتدّ على حساب حدود الوطن، كما هو الحال لدى حزب الإخوان المسلمين في مصر الذين يرون الانتماء إلى الأمَّة الإسلاميَّة هو الانتماء، وما الأوطان إلَّا وسيلة لتحقيق غاية الانتماء إلى الكرة الأرضيَّة؛ فالجماعة "تسعى إلى تكوين الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم، ثم الحكومة والدَّولة الإسلامية"[84]. أي: إنَّهم لا يرون للدَّولة حدودًا إلَّا الدّين الإسلامي؛ فأينما امتدَّ الدّين امتدّت الدَّولة. فهم بهذه النَّظرة لا يرون أهميَّة لكيانٍ وطني يقوم على التنوّع الدِّيني، وكأنَّ الخَلق كلّ الخَلق أمَّة واحدة، وهذا ما يخالف ما خُلق النَّاس عليه؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[85].

ولأنَّنا مِن سكَّان العالم المتبدّل؛ فمعظم الأحزاب فيه تتقاتل وتتطاحن من أجل مصالحها الخاصَّة، وليس من أجل مصالح الأوطان، فالانتهازيّون فيها يربطون مصالحهم بنجاح الحزب حتى ولو كان نجاحه على حِساب سقوط الوطن؛ وهم بهذه السُّبل والأساليب يدفعون البعض للانقلابات والمؤامرات والتمرُّدات والصِّدامات؛ فينشغل الجميع بما يكون سائدًا على حساب مصالح الوطن دون استثناء.

إذن: في دائرة المتوقَّع أنْ تكون هويَّات الشُّعوب في أوطانهم، ومن غير المتوقَّع أن تكون هويَّاتهم على حِساب

---

[84] اللائحة الداخلية لجماعة الإخوان المسلمين، ويكي مصدر والنظام العام للإخوان المسلمين 1994.

[85] هود 118، 119.

أوطانهم؛ ولأنَّها الهويَّة، فلا هويَّة إلَّا بخصوصيَّة متميّزة عن غيرها من الخصوصيَّات كما غيرها يتميّز عنها بخصوصيَّاته.

ولهذا فهويَّات الأوطان لا تتكوّن من مكوّنٍ واحدٍ؛ بل هي في دائرة المتوقّع تتكوّن من مجموعة مكوِّنات، منها: اللغة، والدّين، والثَّقافة، والعرف، والعادة، والآداب، والفنون، والأصل، والانتماء، والتَّاريخ. أمَّا أن يراها البعض على غير ذلك؛ فهذا إنْ حدث استثناء، لا يكون إلَّا في دائرة غير المتوقَّع.

ومع ذلك لا يؤخذ بالاستثناء إلَّا استثناء (ضرورةً واضطرارًا)؛ فالاستثناء لا يكون إلَّا بعلل الضَّرورة المؤقَّتة، ولأنَّها الضَّرورة المؤقّتة؛ فالضَّرورة لا يمكن لها أن تكوِّن هويَّة وطنيَّة، حتى وإن اتخذها بعض الأفراد موقفًا مؤقّتًا.

ولأنَّها الهويَّة الوطنيَّة؛ فهي المحتضنة لكلِّ المواطنين دون أن تستثني أحدًا وإن اختلفت ألوان طيفهم. فهي التي تمدّهم بدفء الوطن، والإحساس بأهميَّة العُرف والعادة، وعظمة الدّين، وحلاوة اللغة، وجمال الثَّقافة، ورفعة الفنون والآداب؛ فالهويَّة الحاضنة لجمع شمل المواطنين، تمدّهم بقوَّة الانتماء التي تغرس الثِّقة فيهم دون خوف، ممّا يدفعهم بقوَّة دفأها إلى ممارسة حقوقهم، وأداء واجباتهم، وحمْل مسئوليَّاتهم، وفي المقابل إنْ حاول أحد حرمانهم منها، يرفضون ويتحدَّون، ويثورون من أجل وحدة الوطن، وفك القيد أو كسره.

إذن الهويَّة الوطنيَّة هي الرُّوح التي تنبعث حياةً في الوطن، فإن خرجت روحه (هويَّته) بأيَّة عِلّة، أصبح الوطن لا يزيد عن كونه مادَّة (تراب)، ومع أنَّ الهويَّة روح الوطن،

فإنَّ وحدة الوطن تضعف وتشيخ بمؤثّرات داخليَّة عندما تظهر على السَّطح انقسامات بين ألوان طيفه، وعندما تصبح الشَّهوة رأس نظامه، وعندما تسود المظالم مع النَّاس تهميشًا، وإقصاءً، وحرمانًا، وهيمنةً، وظلمًا؛ إذ لا عدالة.

وفي هذا الاتجاه ناقش المؤرّخ آرثر شيلنج مفهوم سياسات الهويَّة في كتابه تفرّق شمل أمريكا (The Disuniting of America) بقوله: "إنَّ ارتكاز السِّياسات على التهميش الجماعي يؤدّي إلى تفتيت نظام الحكم المدني؛ فينبغي أن تهدف الحركات التي تدعم الحقوق المدنيَّة إلى القبول الكامل بالمجموعات المهمّشة ودمجها داخل الثَّقافة السَّائدة، بدلًا من التكريس لفكرة التهميش عن طريق محاولات التركيز على الاختلافات"[86].

إذن كما أنَّ التهميش والتفرقة والحرمان والهيمنة والإقصاء معطيات لإضعاف الدَّولة، فكذلك هي معطيات لإسقاطها، وقد تتعدَّى هذه العلل بالمواطنين إلى الفرقة والخصام والاقتتال الدَّاخلي والتجزئة الوطنيَّة وبخاصَّة عندما يلحق التهميش والإقصاء خصوصيَّات ألوان الطَّيف الوطني.

فالهويَّة لا تكون إلَّا لإثبات الشَّيء (هو كما هو)، وليس (كما ينبغي أن يكون)؛ فالوطن هو الوطن بهويَّته الشَّاملة لألوان طيفه؛ فالهويَّة الليبيَّة على سبيل المثال: هي المثبتة للشَّخصيَّة الوطنيَّة الليبيَّة (هي كما هي ليبيَّة)، شخصيَّة لها من الحقوق ما لها، وعليها من الواجبات والمسئوليَّات ما يُحمل وما يؤدَّى، ولا فرق بين ألوان طيفها الاجتماعي، فليبيا وطن يجمع ولا يفرِّق، يسخِّر شعبها طاقاته وإمكاناته الوطنيَّة

[86] M.A. Chaudhary & Gautam Chaudhary, Global Encyclopedia of Political Geography, p.112, 2009.

من أجل ليبيا؛ ولذلك فَلِكلّ شعبٍ هويَّة تميّزه عن غيره من هويَّات شعوب المعمورة؛ ومن ثمَّ فالمراد بلفظ الهويَّة (شعب ووطن) أن يكون للشيئين وحدة من وجه[87].

وعليه: ففي دائرة المتوقَّع كلّ شيء بطبعه يُطبع، أمَّا في دائرة غير المتوقّع؛ فإنَّ الشَّيء بما ليس عليه يُطبع. وعندما يُطبع الشَّيء بما ليس عليه (ليس هو كما هو) يصبح شيئًا آخر وإن تشابها مع ذات الشَّيء.

ومن هنا فالبعض انتهازيَّةً يستغلَّ عنوان الهويَّة الرّفيعة ترويجًا لمآربه الشّخصانيَّة الوضيعة، فيصعد باسمها مع أنَّه عبء عليها، وتنشط مثل هذه الأعمال الانتهازيَّة في أثناء فترات الدّعاية الانتخابيَّة سواء أكانت لعضويَّة مجالس النواب أم لمجالس الشّيوخ أم لرئاسات الدّول.

والسّؤال: هل للدّولة مِن نهوضٍ إذا أصبح الانتهازيّون على رأسها؟

بطبيعة الحال الإجابة مِن صلب السّؤال؛ وذلك أنَّ مضمون الإجابة محمول فيه.

ومن ثمَّ فمن طبيعة الحال ستسود الانتهازيَّة وتستأسد على حساب سيادة الهويَّة الوطنية، أي ستستأسد الشّخصانيَّة على حساب الموضوعيَّة، وسيسود الفساد على حساب الإصلاح وإيجاد الحلول، وستفسد الأخلاق على حساب المبادئ والقيم، فيصبح السُّفهاء سادة، والجهلة علماء، والسّراق رؤوس لإدارات المال في الدّولة، ويصبح المشايخ

[87] محمد بن علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، بيروت: 1996، ص 73.

في البلاد بلا مشيخة، والمفتون بلا علم فتوة، ويكثر عدد المتبدلين الذين لا مهنة لهم ولا حرفة إلَّا تزيين المعيبات.

ومع أنَّ الهويَّة الوطنيَّة ملكيَّة عامَّة لكلِّ المواطنين، ومن يلتحف بها هي كما هي لحافًا موضوعيًّا يتقدّم بلا ترويج، ويزداد صعودًا ورأسه لن يدور، فإنَّ الذين يصعدون ترويجًا مزيَّفًا وإن صعدوا فإنَّ رؤوسهم تدور كلّما ازدادوا انتهازيَّة في الصّعود؛ ولذا فإنَّ الرّؤوس التي تدور كلّما صعد أصحابها درجة لا بدَّ أن يسقطوا أرضًا، ولن يسجل التَّاريخ لهم في صفحاته إلَّا المعيبات.

وعليه: فإنَّ السِّيادة رفعةُ شأنٍ، يتمدَّد المواطن بحيويَّتها إلى النِّهاية دون أن يتمدَّد أحدٌ على حسابِ حقوقهِ وواجباتهِ ومسئوليَّاتهِ، حتى يُصبح المواطن راية الوطن التي يستظل جميعُ المواطنين بها.

وعندما تسود السِّيادة الوطنيَّة يُصبح الشَّعب تحت راية الوطن دستورًا منظمنًا للعلاقات وضابطًا لها، وليس هكذا عبثًا تحت رحمة السُّلطان وتحت رحمة الحكومة؛ مما يجعله قادرًا على اتخاذ قراراته بلا ضغوطٍ، وقادرًا على تنفيذها نُقلة من أجل الوطن؛ وعيًا ودرايةً وإرادةً ومسئوليَّةً، ولا مخاوف.

ولأنَّها السِّيادة؛ فبسيادتها بين النَّاس هويَّةً يستقرُّ الشَّعب وينهضُ وعيًا ودرايةً، ويستقرُّ النِّظام وتنهض الدِّيمقراطيَّة سلوكًا وممارسةً، وتستقرُّ الدَّولة وتنهض بناءً وإعمارًا، وفي المقابل إذا انكسرت السِّيادة بأيَّة علَّة فلا استقرارَ، ولا ديمقراطيَّةَ، ولا أمنَ ولا نهضةَ؛ ولذا فلا قيمة لأيَّة دولة ما لم تكن السِّيادة فيها رفعةَ شأنٍ عند مواطنيها وعند الغير.

ومع أنَّ لمفهوم السِّيادة دلالةً ومعنًى نظريًّا، فإنَّ التغنِّي بها وبمفهومها النَّظري لا يعني شيئًا ذا قيمة ما لم تُصبح السِّيادة الوطنيَّة فيها وفقًا للآتي:

ـ دستورٌ (عقدٌ بين الشَّعب) على المبادئ الكبيرة والصَّغيرة؛ من أجل ممارسة الحريَّة بأسلوب ديمقراطي (استفتاءً وانتخابًا).

ـ امتلاك الإرادة؛ إذ لا تغييبَ، ولا تهميشَ، ولا إقصاءَ، ولا وإكراهَ.

ـ ترسيخ الهويَّة؛ كونها العنوان العام لكلِّ المواطنين بمختلف ألوان طيفهم عِرقًا، ودينًا، وعرفًا.

ـ ترسيخ الكرامة؛ كونها قيمة الإنسان اعترافًا وتقديرًا واحترامًا واعتبارًا.

ـ ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمل المسئوليَّات قرارًا وتنفيذًا ورقابةً وتقويمًا.

وعليه فإنَّ كثيرًا من الأشياء يُمكن أن تستبدل أو تباع أو تشترى إلَّا السِّيادة، التي إنْ ضاعت ضاعت الهويَّة معها، وهكذا كل شيء يمكن استبداله بغيره إلَّا الوطن فإنْ ضاع فلن تَجِدَ له سوقًا لتشتريه.

وكثيرٌ من الأشياء بعللِ الضَّرورة أو الحاجة يمكن الاستغناء عنها إلَّا السِّيادة؛ فهي ترتبط بالكرامة والمصير الذي يرسِّخ قيمة الإنسان، والذي متى ما فُقد فُقدت الكرامة معه.

ومع أنَّ السِّيادة إنْ فُقدتْ فلا أسواقَ لها ولا بديلَ، فإنَّ استردادها في دائرة الممكن ليس بمستحيلٍ، ولكنَّ ثمنَ

الاسترداد ليس هينًا؛ فالسِّيادة إنْ ضاعت لا تردَّها إلَّا التضحيات.

وفي دائرة المتوقَّع لا استغراب أن تُسترد السِّيادة المسلوبة إذا امتلك الشَّعب إرادته بعد أن سُلبت منه تحت ظروف استثنائيَّة، ومن ثمَّ فالقوى التي تظن أنَّها قد قضت على إرادة الشَّعب فستفاجأ بما لم تكن تتوقَّعه، مما يجعل التخويف بالموت والتلويح به هو وحده المشجَّع على حبِّ الموت، والمطالبة به، والإقدام عليه من أجل السِّيادة هويَّة وحريَّة وطنيَّة.

وعليه: فمن أجل استرداد السِّيادة الوطنيَّة ستلاحق الشُّعوب الموت أينما كان حتى لا يلاحقهم حيثما يكونون؛ كونهم واثقين أنَّ الموت لا يخيف، بل الاستسلام للقتلة وحده المخيف، مع إيمانهم التَّام أنَّ الموت لا يأتي إلَّا مرَّة واحدة، ولا يتكرر أبدًا، كما أنَّهم يؤمنون أنَّ من يطلب الموت دفاعًا عن الدِّين والشَّرف وسيادة الوطن وهويَّته تُكتب له الحياة الدَّائمة التي لا موت مِنْ بعدها.

ومن ثم فالجبناء وحدهم لا ينعمون في الحياة الدُّنيا، ولن ينعموا بالحياة الباقية؛ ولهذا دائمًا نقول: الخوفُ رحمةٌ، والجبنُ عارٌ.

ولذا فإنَّ الشُّعوب التي تطلب الموت من أجل الحياة قادرةٌ على استرداد السِّيادة الوطنيَّة متى ما سُلبت منها بغير حقٍّ، ولكن أي إرادة يُمكن بها أن تسترد السِّيادة؟

إنَّها الإرادة المستقلة (غير التَّابعة) التي تجعل من مالكيها لاعبين أساسيين في المشهد الوطني، وليسوا دُمًا تحرَّك بأيدي الغير.

ولهذا فعندما تُفقد الإرادة الوطنيَّة لا يمكن أن يكون للوطن سيادة؛ فالوطن الذي تستباح حدوده لا يمكن لأهله أن يقال عنهم: إنَّهم سادة، والوطن الذي يُرهن للبنك الدّولي لا يمكن لأهله أن يكونوا سادة، والوطن الذي ينكسر جيشه لا يمكن أن يكون أهله سادة، والوطن الذي يشتري الانتهازيّون مقاعده البرلمانيَّة لا يمكن أن يكون أهله سادة، والوطن الذي يحكمه من اشترى الأصوات أو زيّف العمليّة الانتخابيَّة ليرأس نظامه أو حكومته لا يمكن أن يكون أهله سادة، ولن ينهضون.

الانتهازيّون والوهم:

مع أنَّ الوهم يؤدِّي إلى تطويع العقل وانقياده إلى الاتجاه الخطأ فإنَّ المتمسّكين به كُثر؛ فتراهم في مواضع الخلاف يدافعون به ويحاججون عنه وهمًا مع ظنهم أنَّه سيتحقّق لا محالة.

ولذا يعد كل ما يُغيِّب العقل عن معرفة الحقيقة وكشف الزّيف عنها وهمًا، ودائمًا حال الوهم من الحقيقة كحال الكذب من الصّدق، وحال السَّراب من الماء، ومعظم الواهمين إذا ما أتيحت لهم فرص الاختيار فلا يرون من الألوان إلَّا أحد اللونين: (الأسود أو الأبيض)، وهذا أيضًا حال المتأدلجين فهم لا يرون إلَّا بعين الغير الذي أوهمهم انتهازيَّةً بأنَّ أعينهم لا ترى صوابًا، ومن ثمَّ فهم في حاجة لسلامة عينه التي ترى دون غيرها كلّ شيء بما فيها شئونهم؛ وبهذا يُسلِّمون أمرهم إليه وهم يعتقدون أنَّه لا مستقبل لهم إلَّا المستقبل الذي يرتضيه، ويوجّههم إليه، مما يجعلهم كالأوراق المسحوبة نسخة واحدة (إنَّها أوراق الوهم) المستغلة من الانتهازيين في غير أوجهها.

ومن ثمَّ فمن يقنع نفسه بأنَّه البطل، أو العالم، أو الزّعيم، أو القائد، أو الخليفة فهو لا شكّ أصبح يعيش حالة من الوهم، ومع ذلك فقد يصدّق البعض انتهازيتهم وأوهامهم وأخصُّ بالبعض: (الذين هُزموا في معارك سابقة، أو ضاقت بهم الدنيا بما رحبت، أو من تكون لهم أوهام مرجوة) فيتعلقون بمثل هؤلاء وكأنَّهم المنقذ، فيضحُّون بمستقبلهم من أجلهم حتى يقبرهم الوهم واحدًا واحدًا، أو ينعم الله عليهم بغضبٍ يقلب الطّاولات على رؤوس منتهزيهم وهمًا، أو أن تلد لهم الأرض طفلًا مثل ذلك الطفل الذي رأى الملك عاريًا؛ حيث يُحكى: أنَّ أحد الملوك خدعه خيّاط محتال وأقنعه بأنَّه سيصنع له ثوبًا سحريًّا عظيمًا لا يراه إلَّا الحكماء. اقتنع الملك بمهارة الخياط المحتال فظهر على وزرائه من على شُرفة القصر المطلّة على الحديقة عاريًا تمامًا، وقال: انظروا ما رأيكم في هذا الثّوب السّحري الذي لا يراه إلَّا الحكماء؟! فخاف الوزراء من غضب الملك فقالوا وكأنَّهم يقرأون أنشودة سبق لهم وأن حفظوها: إنَّه ثوب عظيم يا مولانا، وأضاف بعضهم: لم نر في حياتنا أجمل ولا أروع من ثوبك هذا، ولكن المفاجئة جاءت من طفل كان من بينهم في حديقة القصر، فقال ببراءة: أين هو الثّوب الذي ترونه؟! ثمَّ صاح بأعلى صوته: إنَّي أرى الملك عاريًا... إني أرى الملك عاريًا.

هكذا هي بالتمام حقيقة التُّبع والذين تأدلجت عقولهم بأوهام وأفكار لا تَمتُّ للحقيقة بصلة، وجميعهم ينطبق عليهم: (إني أرى الملك عاريًا)؛ ولهذا دائمًا الوهم مخالف للحقيقة؛ ومن ثمَّ يجب أن يُكسر قبل أن يجعل من الأسوياء مستغلّون من قِبل من أوهمهم وانتهزهم وغيّبهم عن معرفة الحقيقة وكشف زيفها.

ولذا فإنَّ التأدلج وهم يجعل من المتأدلجين أدوات مسخّرة بأيدي كبير الواهمين ورأس المنتهزين، والواهم أوَّل ما يوهم نفسه بأنَّه يفهم أكثر من غيره، ويعلم أكثر من غيره، ومن ثمَّ ينتهز الغير لاتباعه وطاعته وإلَّا فهم في ضلال، ولا منقذ غيره؛ فيتظاهر وهمًا أنَّه الزّعيم، أو القائد، أو المنقذ، أو المفكّر، وعندما يستشعر أنَّه في أعين البعض يبدو كذلك يزداد في تصنّعه قائدًا أو زعيمًا أو مفكّرًا حتى يثبت بحق أنَّه الواهم.

وعليه: فالوهم تضخيمٌ للأنا الذي يبلغ الحال به وهمًا أنَّه لا يرى مركزًا للعالم إلَّا هو دون غيره، ومن ثمَّ يرى وجوب دوران العالم من حوله دون سواه. وبهذه الحالة لا فرق بين الواهم والكاذب الذي يعرف حقيقة نفسه أنَّه يكذب، ومع ذلك عندما يجد النَّاس تستمع له فيصدّق وكأنَّه الصَّادق؛ ولهذا فالمصدّقين لما يقال من دون تبيّن ولا امتلاك شجاعة مثل شجاعة ذلك الطّفل سيظلون واهمين بلا إرادة، وسيظلون في حاجة لمن يساعدهم على كسر ما ألمَّ بهم من وهمٍ؛ ولهذا لا يكسر الوهم إلَّا بإظهار الحقيقة وكشف الزّيف عنها.

ومن ثمَّ علينا أن نميّز بين حقيقةِ: أنَّنا نحلم، وحقيقة: أنَّنا لا نصدّق أحلامنا (لا نصدق ما نراه يجري في أثناء نومنا، ولا نأخذ بما جاء فيه) ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر حقيقة السّؤال القائل:

لماذا لا نشك في أنَّنا نحلم، ونشك فيما نحلم به؟ أي بما أنَّنا نحلم يقينًا وحقيقة فلماذا لا تكون أحلامنا هي الأخرى حقيقة ينبغي الأخذ بما يورد فيها؟

أقول: مع أنَّ ما يجري في أثناء النّوم حُلمًا حقيقيًّا فإنَّه لا يزيد عن كونه حقيقة نائم؛ ولأنَّه كذلك فالواهم بأنَّ الصَّواب في أحلامه صدقًا لا يزيد عن كونه لا زال نائمًا، ومن يأخذ

بما حلم به فلن يجد أمامه بعد الصّحوة واليقظة إلَّا سرابًا؛ ولهذا قبل أن يُوهم نفسه ويقنعها بذلك ينبغي أن يُنصح بحقيقة أحلامه؛ كي لا يسكب الماء الذي بين يديه بغاية أن يشرب من السَّرابِ ما يروي ظمئه[88].

وعليه: وجب كسر وهم الانتهازيَّة، وفكّ قيدها والتخلّص منها إذا ما أتيحت الفرص للعقل أنْ يفكِّر فيما يفكّر فيه في الوقت الذي هو فيه يفكّر، وفي المقابل لا إمكانيَّة لفك قيود الوهم والانتهازيَّة إذا ظل الإنسان خارج دائرة الانتباه العقلي الممكِّنة من التمييز بين ما يجب وما لا يجب مع فسحة الاختيار بعد التبيُّن.

ولأنَّه الوهم فهو الغمّةُ التي إذا ما أزيحت عن الصّدور انفرج كربها، وتيسَّرت أمورها تفاعلًا وتعاونًا من أجل ما يجب تجاه الآخر الذي لا تزاح الغمَّة عنه إلَّا بكسر قيد الوهم انتهازية من قبل الغير، ومن وجب عودة الواهمين إلى عقولهم وعيًا؛ ولهذا يعد كسر الوهم إفسادًا لمشاريع الانتهازيين، وإصلاحًا لأحوال الواهمين.

أوهام الانتهازيَّة القاتلة:

بدأت أساليب الوهم انتهازيَّةً في الظّهور مع الحياة الآدميَّة وبخاصّة يوم الإغواء الذي فيه أَوقع بأبينا آدم في المعصية؛ ذلك لأنَّ الواهم لا يعرف الوهم إلَّا ساعة الوقوع فيه، وهكذا سيظل مع بني آدم حتى قيام السَّاعة، وهكذا سيكون الكل معرض للوقوع فيه مكائد وانتهازيَّة، وهو بالتمام مثل فيروس كورونا 19 من لا يأخذ حذره لا بدَّ أن يصاب به؛ فخذوا حذركم من الواهمين والانتهازيين.

[88] عقيل حسين عقيل، كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، 2021م، 8 – 11.

وعبر التَّاريخ كل الصِّراعات والنزاعات والاقتتالات سواء أكانت سياسيّة، أم اجتماعيَّة، أم اقتصاديَّة، أم دينيَّة من ورائها أوهام انتهازيَّة قاتلة إلَّا المدافعون عن الحقِّ قتالهم لا وهم فيه ولا انتهازيَّة.

والوهم انتهازيَّةً إنْ لم تقتله يؤدّي بك إلى الفتنة والقتل، ثمّ يقتلك، حتى في عصور الأنبياء والرُّسُل الكرام كان الوهم ظانًّا أنَّه القادر على مواجهة رسالاتهم وقهرهم، ومع أنَّه ينكسر في كلِّ مواجهة فإنَّه ينهض من جديد وكأنَّه لم يُلقَّن درسًا.

وسيظل الحال هكذا مواجهات بين بني الإنسان اختلافًا وخلافًا وصراعًا بين الحقِّ والباطلِ انتهازيَّةً؛ لسببين رئيسين:

الأوَّل: التخيير: الذي لا يكون إلَّا عن إرادة، أمَّا التسيير فلا خيار فيه.

الثَّاني: عدم الاتعاظ: الذي لا يكون إلَّا عن تدبُّر مع أخذ عبرٍ من التَّاريخ.

ومع أنَّ الوهمَ يؤدّي إلى المهالك فإنَّه يعطي للحقيقة أهميّة ومعنى، أي من دون الوهم ما عرفنا قيمة الحقيقة، وهذا لا يعني أنَّ الحقيقة استمدت قيمتها منه، بل الوهم الذي لا يستمد إلَّا من واهم يعطي للحقيقة قيمة كلّما غُيِّبت عمّن يأملونها.

والوهم انتهازيَّةً لا علاقة له بالقيم والأخلاق، بل من مهامه كسرها كلّما جُبرت، حتى وإن كانت بين المرء وزوجه، والأخوة والأقارب فما بالك مع الأباعد والمنافسين على كراسي السُّلطة.

ولذا فالانتهازيَّة الواهمة تتمدّد مع تمدّد العصور، وتتنوّع وتتلوَّن بأنواع الشّعوب وألوانهم، وأكثر عصور ساد الوهم

فيها انتهازيَّةً (عصور الجاهليَّة)؛ حيث ساد الوهم عقول الجبابرة والطّغاة وملّاك الأراضي بأنَّهم المفضّلون على من لا يكون طاغيًا ومتجبّرًا، حتى انهزم البعض ورضي بالعبوديّة بأسباب الحاجة والقهر فأعلن الطّاعة لمن ساد عليه، فأصبح العبد واهمًا بأهميَّة إخلاصه لسيّده، وفي المقابل أصبح سيده واهمًا بأنَّ العبد ليس له بدٌّ إلَّا الإخلاص، فكانت النتيجة أنْ وُلدت طاعة العبد وهمًا، في مواجهة وهم سيده جموحًا؛ ولذا فإنْ ظنَّ السّيد أنَّ العبد مخلصٌ معه فقد وهم، وإن ظن العبد أنَّ سيده وفيًّا معه فقد وهم؛ ومع ذلك ظلت هذه المعضلة وكأنَّها ناموسٌ من نواميس الحياة الإنسانيّة، حتى جاءت الرّسالة السّماويّة المحرّضة على تحرير العبيد؛ فكان صراع الأوهام بين النَّاس انتهازيَّةً على أشده، وسيظل هكذا مستقويًا ومستغولًا حتى يُكسر ويقهر[89].

عقول تملأها الانتهازيَّة وهمًا:

ولأنَّ العقل يميِّز بين ما هو مسيَّرٌ فيه، وما هو فيه مخيَّرٌ، فإنَّه يميّز بين معرفة: (المعجز، والمستحيل، والممكن)، ممَّا يجعله يفكِّر في دائرة الممكن دون أن تستوقفه إشارة (قف) حتى بلوغ الخوارق، وفي المقابل استشعارًا يسلِّمُ بالمعجز، ويقف عاجزًا أمام المستحيل.

وبما أنَّ العقل حيويَّة التمييز استقراءً واستنباطًا، فهل العقل في حاجة لرقيب؟ أم إنَّه ليس في حاجة؟

مع أنَّ العقل كما سبق تعريفه وتبيانه هو حيويَّة التمييز؛ فإنَّه في دائرة الممكن اختيارًا يُمكِن أن يكون رقيبًا، ويُمكِن أن يكون في حاجة لرقيب؛ أي في حالة ما غلب الوهمُ عليه

[89] عقيل حسين عقيل، كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، 2021م، ص 108 – 110.

والانتهازيَّة، فهو في حاجة لرقيب يلفته إلى ما يجب، أمَّا إذا كان على الحقيقة دراية فهو ليس في حاجة لذلك.

ولمتسائل أن يتساءل:

بما أنَّ العقل رقيبٌ، ألا يكون قيدًا على الرَّغبة، والشّهوة، والمطلب، وممارسة الحريَّة؟

نعم أنَّه رقيب ضابط، ولكن السُّؤال هنا متعلِّق بالضوابط القيميّة وفقًا لكل عرف، ولكل دين، فالعقل يُمكِّن من معرفة المحرم والمجرّم والمجاز، وما يجب الأخذ به وما يجب الانتهاء عنه، ويترك لك حريَّة الاختيار؛ ولذا فالعقل لا يمنعك عن شيء فيه مطلب شهوة، أو رغبة، بل الأديان السَّماويَّة، والأعراف الاجتماعيَّة، والدَّساتير والقوانين الوطنيَّة المنظمة للعلاقات هي التي تجيز أو لا تجيز، تبيح أو تحرِّم.

ولهذه العلل والقضايا يجد الإنسان نفسه بين دراية وحيرة؛ درايةٍ تُمكّنه من اتخاذ القرار وعيًا، وحيرةٍ تستوجب العودة إلى العقل بغاية استقراء المحيِّر.

ومن هنا نقول:

لا تؤمن إلَّا بعلم يقين، ولا تأخذ إلَّا بعين يقين، ولا تسلِّم إلَّا بحقّ يقين.

ولأنَّ العقول مصدر ولادة الفِكَر وصوغ الفِكْر فهي بين هذا وذاك ترشد تارة وتضل أخرى، وهي في وقتٍ من الأوقات تنهض، وتنكمش في وقتٍ آخر وتركن إلى ما تألفه ولو كان وهمًا.

فالعقول عندما تستمدّ القوّة وتستشعر الحيويَّة أمام منكمشٍ تزداد تمدُّدًا وتوهمًا وانتهازيَّة على حسابه، وستظل تتمدد

حتى يكتسب من كان التمدد على حساب الثقة في نفسه، ويستمد القوّة فيرفض أيّ تمدد على حساب حياته، وراحته، وأمنه، ورزقه، وشرفه، ودينه، ووطنه، ومع ذلك لا إمكانيَّة للمواجهة بوهم الرّفض، بل المواجهة بامتلاك القوّة المرهبة للتمدُّد على حساب الغير.

ومع أنَّه لا يبدو عند العموم وجود وهمٍ مع الاستنارة فإنَّ كثيرين من المستنيرين يصحبهم وهمٌ كبيرٌ؛ فالأفراد والشُّعوب والأمم عندما تعظم قوَّتها تفقد مفاتيح السّيطرة؛ فتفعل ما لا يفعله مستنيرٌ؛ ولهذا فالأنظمة ورؤوسها التي ترى أنَّها قد سيطرت قوَّة على الأمور السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة في البلاد تعد واهمة إن لم تحسب لشعوبها ألف حساب؛ فالشُّعوب عندما تستشعر إنَّها مجرّد قطيع، والوطن أصبح وكأنَّه مزرعة للحاكم وأبنائه، أو قبيلته، أو حزبه ترفض، وتتمرَّد، ثمَّ تثور حتى تقلب الطَّاولات على رؤوس من ترأسوها.

وعليه: عبر التَّاريخ الرّؤوس الانتهازيَّة لم تستفيد من الدّروس؛ ولذلك لم يستفد الرّئيس التونسي السَّابق زين العابدين بن علي من درس الرّئيس العراقي السَّابق صدّام حسين، ولم يستفد الرّئيس المصري السَّابق حسنى مبارك من درس زين العابدين بن علي، ولم يستفد العقيد الليبي معمر القذافي من درس الرّئيس حسني مبارك، ولم يستفد العقيد اليمني علي عبد الله صالح من درس العقيد معمر القذافي، وهكذا سيظل ساسة الدّول الواهمة انتهازيَّة واهمون والشّعوب لن ترحم.

وهكذا الدِّول هي الأخرى عندما تعظم توهّمًا بقوَّتها وانتهازيَّتها تفقد مفاتيح السّيطرة طمعًا؛ فتتمدّد على حساب

حدود دول الغير؛ فتقيّد الحريَّات، وتنهب، وتسلب، وتحرّم، وتحلل، وتسجن، وتقتل ظلمًا وعدوانًا؛ فمثل هذه الأساليب والسُّلوكيّات والمعاملات لا شكّ أنَّها بذور الكراهيّة التي تُبذر في نفوس المعتدى عليهم وهم أصحاب الحقوق المنهوبة، والأرض المسلوبة، والحريَّة المتحكم في شئون سيادتها وإرادة شعبها، وهذه البذور وحدها كافية لكسر حواجز الخوف وقيود الجُبن مما يجعل الإقبال على الموت مطلبًا من أجل الحياة وكسر الوهم.

وعليه:

ينبغي أن نميّز بين مردود أو نتيجة وهم من غَرَّرَ بمن انتهازيَّةً، وكذلك من غُرِّر بهم انتهازيَّةً، فالذي يغرّر بالغير يظل واهمًا إذا اعتمد في مشروعه على موهومين مغرّر بهم، بمعنى: هل يمكن لمن غرّر بمن، أن يبني بهم مجدًا ويحقق بهم مستقبلًا آمنًا وهو على يقين أنَّهم واهمون؟ ثمَّ إلى متى سيكون المغرر بهم موهومين؟ أي لا بدَّ من نهاية تكشف الزَّيف والوهم والانتهازيَّة.

وفي المقابل عقول الموهومين ليست بمبدعة ولا خلَّاقة، بل إنَّها عقولٌ تميل إلى الاتكاليَّة ميلًا، ومن ثمَّ نفوسهم ضعيفة، وعقولهم مملوءة مطالب، ومن هنا فهل يستطيع مَن أوهمهم أن يُشبع حاجاتهم التي تتطوَّر على الرّغم من أوهامهم التي لا تتطوَّر؟

ومع ذلك يظل الموهومون بالنسبة إلى من أوهمهم انتهازيَّةً وقودًا لإدارة دفّة أموره حتى يصبحوا ضحايا، ومع أنَّهم سيكونون الضّحايا فإنَّ نهاية المشهد لأيّ مسلسل ستكون نهاية البطل، وفي معظم الآحيان لن يكون من وراء نهايته إلَّا الوهم الذي استظل به وأوهم الآخرين.

وعليه: عندما تصبح النهايات مؤلمة لكلٍّ من الواهم والموهوم، فهل لنا أن نميّز بينهما لو لم يكن الوهم هو العامل المشترك في تنوّع أساليب وطرق صيد الطَّريدة؟

ولهذا يظل الموهوم مغيّبًا عن حقيقة المعرفة حتى يقع في الفخ، وساعة وقوعه فيه، لن يبقى في ذاكرة الموهوم شيئًا حيًّا إلَّا الوهم، أي بعد موت الواهم، والوعود التي أوهم الآخرين بها لم تنجز بعد؛ فلن يبقى معهم من بعد رحيله شيء يذكر إلَّا الوهم الذي لن تطوى صفحاته إلَّا شاهدًا عليهم[90].

أوهام بين الانتهازيَّة والواقع:

مع أنَّ الانتهازيَّة لا تكون إلَّا عن تربُّصٍ، وقصدٍ عمدي، وأنَّه لا خير فيها؛ فإنَّها عند الملاحظة بدايةً تبدو وكأنَّها العفويَّة على الاقدام تمشي، ولأنَّ ألوان الطّيف جذَّابة اتخذتها الانتهازية رداءً وبها التحفت؛ التحاف يشدّ النَّاظرين ويجذبهم إليها دون أن تسعى إليهم؛ ومن هنا فإنَّ الانتهازيين لا ينتظرون إعطاء فرصة.

أمَّا مفهوم الواقع فهو وجود الأشياء هي كما هي سواء أكانت مُرضِية للبعض أم غير مُرضِية، مُقنعة أم غير مُقنعة، وقَبِلَ مَنْ قبِل واعترض مَن اعترض، ومنها ما هو قابل للاستقراء والاستدلال والملاحظة والمشاهدة، ومنها ما هو علم يقين تسليمًا، ومع ذلك ليس كل ما يستدل به أو يستدل عليه حقيقة تؤخذ، وصفحات التّاريخ كفيلة بذلك؛ حيث حملت لنا أحداثًا وكأنَّها قطعٌ من فسيفساء الفن، وهي في حقيقتها لا تزيد عن كونها أوهامًا، وقد سبق لها وأن أضلّت الكثيرين.

[90] المصدر السابق، ص 134.

ولنبحث مع دوران عقارب السَّاعة إلى الخلف فيما قاله بعض المفكرين والفلاسفة بين وهمٍ وحقيقةٍ وانتهازيَّةٍ:

أوهام مكيافيلي:

إنَّه المفكر الإيطالي الذي قال في كتابه (الأمير): يجب ألَّا تكون الأخلاق هي الموجّه للسّياسة، ويجب على الأمير (الحاكم) أن يستخدم كل الوسائل وفقًا لقاعدة: (الغاية تبرر الوسيلة)، وفي الوقت الذي يكون فيه الأمير يخطب حبّ الشّعب ينبغي أن يكون الشّعب يخافه، ومن الأفضل أن يخافه النَّاس من أن يحبّونه، ولا داعي أن يكون الأمير صاحب ضمير، ولا شريف، والصّعوبة أن يحاول الأمير تحرير شعب هو راضٍ بعبوديته فهذه لا تختلف عن أيّ محاولة لاستعباد شعبٍ حرٍّ[91].

نعم إنَّه المفكر لسياسة أدارت بعض دول العالم كما رآها بلا أخلاق، ونعم إنَّ أفكاره قد غزت الكرة الأرضيّة انتشارًا، وأوَّل العقول التي غزتها واستقرّت فيها وهمًا وانتهازيَّةً هي عقول أولئك المتآمرين على أنظمة مستقرّة كانوا فيها جنودًا، فحكموا بأفكار الأمير أمراء إلى أن غرّهم الوهم عندما صدّقوا أنفسهم أنَّهم بحقٍّ هم الأمراء؛ فظلوا على أوهامهم حتى انكسرت بثورات الشّعوب وانكسروا.

أوهام ديفيد هيّوم:

ومن المفكرين الذين دارت عقولهم وهمًا بين الحقيقة والواقع الفيلسوف الإنجليزي ديفيد هيوم الذي قال في دائرة الوهم:" كيف نقول الله عادل والحياة توجد لنا الحاجات والمواجع؟! ويقول: من العدل أن تكون الحياة سعيدة ولكن

---

[91] نيقولا ميكيافيللي، الأمير، ترجمة: محمد لطفي جمعة، بيروت: دار الرافدين، 2017م، ص 213 _ 261.

لأنَّها مشاكل، إذن لا يجب أن يكون هناك حساب في الآخرة"[92].

مثل هذه الأفكار وإن كانت بالنّسبة للمسلم فيها من الاستغراب ما فيها؛ فإنَّه لا استغراب فيها عند غير المسلم، ولأنَّه لا إكراه لمن خُلق في أحسن تقويم؛ فإنَّ وجوب الحوار والتجادل مع الأفكار المتخالفة أولى بالجدل مع الأفكار المتطابقة والمتماثلة؛ ولهذا أقول: لو أُعطيت لك هديّة عظيمة تجعلك وأبناءك على قيد الحياة ملوكًا مشبعين ما دمتم أحياء؛ فهل من الأولى أن تشكر من أعطاك الهديّة، أم إنَّك تلتفت إلى غيره وأنت تعيش في نعيمها لتقول: ما يضايقني أنَّي كلّما أشبع وأبنائي من الهديّة أكلًا يعقبنا من بعدها جوعٌ، فنعود ثانية وثالثة إليها فنأكل وهكذا، حتى ساد الخلاف بيننا على كيفيّة الأخذ منها، ومواقيت الإشباع وأساليبه؛ إذ بعضنا في صحوته متعةٌ يجني أكلًا، وبعضنا في نومه لا يجد ما يأكل، ومع ذلك جاءه الرّد لو لم يكن الجوع مملكة ما كنت بالهديّة أنت وأبناءك ملوكًا، ولكن ألا يحقّ لك أن تساءل أبناءك: لماذا في نومهم لا يجدون أكلًا؟ فإن سألتهم وحاسبتهم على ذلك ألا تظن بعد يقظة منهم أن يقولوا لك: فإنْ كان لا مفرّ من المساءلة، ألا يكون من الأولى أن يسألنا ويحاسبنا الذي أعطانا الهديّة فيها أحياء متساوين؟

أوهام إخوان الصّفا:

إخوان الصّفا وخلان الوفا هم جماعة من فلاسفة المسلمين من أهل القرن الثَّالث الهجري والعاشر الميلادي، وهم أصحاب نزعة فكريّة متمركزة على وهمِ: (دمج الفلسفة بالدّين)، أي دمج ما أُنزل بما لم ينزل؛ وهنا الوهمُ يكمن كما

[92] ديفيد هيوم، محاورات في الدين الطبيعي نفائس الفلسفة الغربية، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، القاهرة: 2017م، ص 57.

تكمن العلّة في المعلول؛ وذلك لأنَّ كمون العلة يفسد المعلول كما تفسد الحشرة الضّارة الثّمار في أشجارها، وحتى إن التمس البعض لهم عذرًا؛ كونهم لا يقصدون من وراء ذلك دمج النصوص، فإنَّهم لا شك يهدفون من ورائه دمج الأفكار في مرامي النصّ، وبالتّالي وجب تغيير أوهام الواقع الخطأ بالحقيقة الصَّائبة.

فإخوان الصّفا مع أنَّهم من المعجبين بالفلسفة اليونانيَّة، وفلسفة بوذا، بل الفلسفة بشكلٍ عام فإنَّهم أصحاب فكر ولهم من الآراء ما لهم، من خلال دعوتهم لتوحيد أهل الأديان الموحدة، مع عدّهم الصائبة دينًا سماويًّا، ومنها تأثرت أفكارهم.

وكان من أوهام إخوان الصّفا الأخذ بالتُّقية في مواجهة الواقع بالحقيقة؛ ولهذا كان تنظيمهم سرّيًّا، بل هناك من وصفهم بأنَّهم أوَّل تنظيم سياسي في العالم الإسلامي عند ظهورهم بالبصرةِ؛ إذ كانت طريقة دعوتهم استقطابيّة انتقائيّة، ويفضّلون استقطاب من في أنفسهم شكّ، ويرون دعوة المتعلّم أيسر من دعوة الجاهل، والشّباب أيسر من الكبار؛ وهذا الأمر جعل البعض يشير إليهم بأنَّهم أصحاب سياسة وليسوا من أهل الفكر، مع إعطائهم المبرر؛ خوفًا من قمع السّلطان، إلى جانب الخوف من العلماء الذين لا يرون وجود علاقة بين الفلسفة والدين.

ومع أنَّ لإخوان الصّفا شيئًا من الوهم فإنَّهم أصحاب رأي، ولهم من الأفكار المستنيرة ما لهم، وبخاصّة حرصهم على تنقية الدين من المفاسد التي عشعشت فيه بأوهام السُّلطان وانتهازيَّته الفاسد.

واتهمهم البعض بأنَّهم من أهل الشّيعة الإثني عشريّة في الوقت الذي لم يكونوا فيه كذلك، فهم كانوا يرفضون فكرة الإمامة أصلًا، ولا يؤمنون بوجود الإمام الغائب (المهدي المنتظر)، كما أنَّهم كانوا يقدّرون الخلفاء الرَّاشدين رضي الله عنهم، ومع ذلك اتهموا بالزّندقة من قِبل أهل السُّنة مثل ابن تيميّة.

ومن أكبر أوهام إخوان الصّفا عدم مخالطة النساء وعدم الإصغاء إليهنَّ؛ وبذلك فهم يقللون من قيمة المرأة وشأنها، وكأنَّها لا تساوي شيئًا يذكر في الدولة، في الوقت الذي هي فيه تساوي نصف مجتمع الدّولة.

وكان تنظيم إخوان الصّفا السِّياسي طبقيًّا صرفًا؛ إذ قسّموا أنفسهم إلى أربع مراتب (طبقات):

1 _ مرتبة الإخوان الأبرار من (15 سنة – 30 سنة)، وهم أصحاب النفوس النقيَّة.

2 _ مرتبة الإخوان الأخيار من (30 -40 سنة)، وهم أصحاب الشفقة والرّحمة على الإخوان.

3 _ مرتبة الإخوان الفضلاء من (40 – 50 سنة)، وهم أصحاب حلّ المشاكل سلمًا.

4 _ مرتبة التشريف (من الخمسين إلى ما فوق) وهم الذين انكشفت لهم الحقيقة الألوهيّة[93].

وعليه أقول: نعم. إنَّها المراتب التي تمركزت على الوهم من ألفه إلى يائه؛ حيث ميَّزت بين المواطنين بعقل يميل إلى الفلسفة والسّياسة والآراء القاصرة على حساب الدين وفضائله

[93] فرج السواح، طريق إخوان الصفا، القاهرة: دار علاء الدين، 2008م، ص 21 = 67.

الخيّرة؛ ومن ثمَّ فإنَّه من الممكن التعرّف على الله يقينًا، ولكن الله لم يكن حقيقة لينكشف أمره، بل الله هو الحق المطلق الكاشف لكل حقيقة وأمر؛ ذلك لأنَّ الحقيقة لا تكون إلّا من أثر الشيء سواء أكان مجرّدًا أم محسوسًا، والحقيقة لا تكون إلَّا علّة أو معلولًا أو سببًا ومسببًا، أو معطيات ونتائج؛ وهذه ليست الحق (الله) ومن هنا التصق مفهوم الوهم عند إخوان الصفا بعدم مقدرتهم التمييز بين الحقِّ الذي لا ينكشف إلَّا به، والحقيقة التي بالبحث تنكشف، ويتم التعرف على عللها وأسبابها ومكامن اختفائها أو ظهورها.

أوهام فرعون:

ومع أنَّه عبر العصور ثقة الواهم في الوهم عالية، فإنَّ الوهم مع الواهم لا يفي بعهده؛ وهذا ما حدث مع جميع الواهمين وعلى رأسهم فرعون الذي كان واثقًا ومتحدّيًا بأوهام السّحر في تحدّي الحقيقة ومن أتى بها بيّنة كما هي بين يدي موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومع أنَّ وهم فرعون قد انكسر وبطل أمام أعين المشاهدين بما فيهم السّحرة، فإنَّ تكبُّر فرعون ظل واهمًا؛ فذات مرّة جاءه هامان زائرًا فلم يقابله في ذلك اليوم؛ بعلّة أنَّ فرعون مشغولٌ فرجع هامان وجاءه في يوم التَّالي فقابله فرعون وقال: أمس كنت مشغولًا بخلق الابن، فقال هامان: (على هامان يا فرعون) بمعنى: نحن نعرف بعضنا جيدًا فأنت أيّها الصّديق الواهم تعرف أنَّي أنا هامان الذي يعرف حقيقة الأمر؛ إذ لا مقدرة لك على ذلك حتى وإن اتفقنا على غيرنا وهمًا؛ ولهذا ظل فرعون على أوهامه حتى أماته الوهم غرقًا، وهكذا كان قارون في زمانه واثقًا في الوهم حتى خُسفَ به والوهم أرضًا[94].

[94] خالد علي موسى، فرعون وموسى، القاهرة: مكتبة النافذة، 2017م ص 94 – 172.

ومع أنَّ السّحر لا يزيد عن كونه وهمًا وقد استخدم بشكل واسع في عصور الجاهليّة فإنَّه سيظل حيًّا مع حياة بعض الواهمين الذين لم تستنر عقولهم بنور الله، إلى أن يُكسر وينكسروا.

أوهام رفض الآخر وآرائه:

مع أنَّه من الطبيعة الإنسانيَّة أنَّ الإنسان اجتماعي بطبعه فإنَّ روح الأنا لا تفارقه في كثير من الأحوال، ومن هنا وُلدت الإشارات والنّعوت بين النَّاس: (أنا، وأنت، وهم، وهنَّ، ونحن، وأولئك)، ثمَّ وُلدت العصبيّة فكان الخلاف والاختلاف فروق تميّز بين مَن ينام على صوابٍ، ومن يصبح على خطأ، ومن يقف عند حدوده، ومن يتمدد على حساب حدود الغير انتهازيَّةً وهمًا، ومن هنا أصبح الخوف من أجل الحياة ضرورة لا ينبغي الإغفال عنها، وسجلات التّاريخ مليئة بدروس الاتفاق والوفاق والخلاف والاختلاف وقبول الآخر ورفضه، ولنّأخذ من التّاريخ محطات ترفض الآخر، وتستغلّه انتهازيَّة، ومنها:

أوهام المعتزلة:

هذه التسمية ظهرت على أثر حادثة عندما كان حسن البصري في أحد دروسه وحواراته؛ فكان الخلاف بينه وواصل بن عطاء في مجلسه العلمي في الحكم على مرتكب الكبيرة، وكان الحكم أنَّ مرتكب الكبيرة فاسق وليس بكافر. وتقول الرّوايات: إن واصل بن عطاء لم ترقه هذه العبارة، وقال إنَّها: (منزلة بين المنزلتين)، أي لا هو مؤمن ولا كافر، وبسبب هذه الإجابة اعتزل مجلس الحسن البصري، وكوّن

لنفسه حلقة دراسيّة فأطلق الحسن البصري على ذلك الانشقاق عبارة: (اعْتزَلنا واصل)[95].

إذن فمؤسّس هذه الفرقة هو: (واصل بن عطاء) وآخر زعمائها (الزمخشري)، وبدأت في أواخر القرن الأوَّل الهجري، وأصبحت مدرسة في بداية القرن الهجري الثَّاني، وقد تأثر المعتزلة بالفكر الفلسفي اليوناني، وكانت لهم آراء وبخاصّة تجاه أهل الحديث، فكان الخلاف معهم ورفض آرائهم بهذه العلّة، التي بها تعرّضوا للاضطهاد والمطاردة، بل للتكفير في عهد المتوكل الذي كان يميل لأهل الحديث والحنابلة[96].

وكان الخلاف ورفض الرَّأي بين الحسن البصري وواصل بن عطاء على مرتكب الكبائر؛ حيث يرى الحسن البصري: (مرتكب الكبائر فاسق)، والحاكم الفاسق ليس بكافر، ولا يخرج عليه إلَّا إذا كان هناك من هو أفضل منه، أو لم يتم التمكّن من الخروج عليه؛ لأنَّه يقول: (لا إله إلَّا الله)، ولا خروج عليه ولو سرق مالك[97].

ومع كلّ الاحترام للرأي الآخر فإنَّ القبول بالحاكم حاكمًا، ولا خروج عليه ولو سرق مالك، ولو كان فاسقًا لمجرد أنَّه يقول: (لا إله إلَّا الله)، أقول: يصعب على العقل الإنساني أن يقبله، وإنْ قَبِله البعض بهذه العلّة فلن يفارقه الوهم.

---

[95] عبد الجبار، القاضي، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق: فؤاد السيد، تونس: الدار التونسية للنشر، 1974م ص 162.

[96] عبد العزيز مجدي سيد، الموسوعة في أعلام الدنيا طبعة3.القاهرة: مكتبة الآداب، 2012، ص 128 – 267.

[97] أحمد بن عثمان، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، 1963م ص 158.

ففي الدّول غير المسلمة لا يُقبل بالحاكم الفاسق أبدًا، ولا يُقبل بالسّارق أن يكون رئيسًا، وإن أصبح سارقًا بعد انتخابه يُسقط به أرضًا، فما بالك بأنْ تكون مسلمًا، وتقبل باستمرار الحاكم الفاسق والسَّارق، أو حتى تبرّر بقبول الحاكم الفاسق والسّارق؟ وبخاصّة أنّك تعلم أنَّ الفاسقين هم من يحكمون بما لم يُنزل الله تعالى: {وَمَنْ لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[98].

وكذلك تعلم أنَّ المنافقين هم الفاسقون؛ ولأنَّ المنافقين هم الفاسقون الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، إذن هل يليق بنا أن نروِّج لمن لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر بأن يستمر حاكمًا ولو سرق أموالنا وفسق عن أمر الله؟ قال تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[99] .

ولأنَّ المنافقين هم الذين يُظهرون ما لا يبطنون، ويقولون ما لا يفعلون، وهم بما يبطنون يفسقون فكيف نكون لهم أنصارًا؛ والله قال فيهم: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}[100]؟ ألا تكون هذه الآية الكريمة كافية لعدم مناصرتهم طاعة لأمر الله؟!

وكيف لنا أن نقبل ونبارك استمرار الحاكم الفاسق السَّارق الفاقد للمصداقيّة بأن يستمر حاكمًا، والله عزَّ وجلَّ ينبئنا وينبهنا بعدم الثّقة في الفاسق حتى وإن لم يكن حاكمًا؟ قال

---

[98] المائدة 47.
[99] التوبة 67.
[100] النساء 145.

تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}[101].

بل كيف لنا أن نرضى بالتَّسويق والترويج للحاكم الذي لا تتوافر فيه صفات الحاكم العادل التي منها: اتقاء الله ومخافته في الكبيرة والصغيرة، وأن يكون عادلًا، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وألا يكون كاذبًا ولا فاسقًا، وأن يكون عاقلًا أمينًا؟ فمثل هؤلاء هم من قال الله فيهم: {يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}[102]، وبما أنَّ الله لا يرضى عن القوم الفاسقين فهل يليق بالمسلم المؤمن أن يضع نفسه في المواضع التي لا يرضى الله عنها؟

أمَّا واصل بن عطاء فقد أسّس مقولة: "المنزلة بين المنزلتين" ومعناها: أنَّ مرتكب الكبيرة ليس بمسلم ولا كافر، ولكنَّه في منزلة بينهما، وإذا مات ولم يتب عن كبيرته فهو مخلّد في النَّار[103].

إنَّ تحليل مقولة واصل بن عطاء (المنزلة بين المنزلتين) تدلُّ على أنَّه اعترض، ولا تدلّ على أنَّه أتى بحلٍّ للمختلف عليه، أو المختلف فيه، أي لم يحدّد واصل ما هو الشيء الذي يقع أو ينزل بين منزلة الكفر والفسق، بمعنى: لم يحدّد صفة بيّنة لمن يقع بين المنزلتين التي يريد واصل بها أن يهجّن الفكر الإسلامي بخلطة مجهولة الهويّة (النتيجة).

ولذا فالقول بالمنزلة بين المنزلتين يعدُّ أمرًا وقد غلب عليه الوهم فجعله غير محسوم بعد، وهذا ما لا يقبله العقل من

---

[101] الحجرات: 6.

[102] التوبة: 96.

[103] عبد الجبار القاضي، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد السيد، تونس: 1974، الدار التونسية للنشر، ص 229.

مفكّر متمكّن من اللغة وأهميّتها في تحديد المفاهيم وحلّ المعضلات.

وعليه: عندما تكون الدَّولة دينيّة أو متأدلجة على فكر شخص بعينه، أو طبقة بعينها فأمر الرَّأي الآخر لا مكان له إلَّا المطاردة وإلباس صاحبه ما لم يكن قد لبسه، وهذه لا تكون إلَّا بعلل أوهام القمم السُّلطانيّة التي تستوجب الكسر؛ كي يتمكّن الخائفون من كسر حواجز الخوف والتمرد على الجُبن.

أوهام في عهد الرَّشيد:

في عهد الخليفة هارون الرَّشيد اختار أحد البرامكة (أخوه من الرَّضاعة جعفر بن يحيى البرمكي) وهو فارسي الأصل رئيسًا لحكومته الذي من بعد تولّيه مكَّن كثيرين من البرامكة من إدارات الدّولة، حتى استقووا وأوهمتهم أنفسهم بأنَّ الخليفة هارون لم يعد قادرًا على إخراجهم من إدارة دفَّة أمور الدّولة، التي كان من المتوقّع أن تولى الخلافة فيها للسّيد موسى الهادي (أخُ الخليفة هارون الرَّشيد)، ولكنَّه قتل بوهمٍ قبل الولاية.

كان حبُّ هارون الرَّشيد لأخيه من الرّضاعة كبيرًا جدًّا، وكان والد أخيه يحيى البرمكي من الرَّضاعة معلِّمًا لهارون الرّشيد، وكان له ولدان أحدهم جعفر الذي أصبح رئيسًا للحكومة، وحاكمًا للمغرب من الشَّام إلى تونس، والابن الثّاني الفضل الذي أصبح حاكمًا للمشرق في الدّولة العباسيَّة؛ ولهذا تمكّنت الأسرة البرمكيّة الفارسيّة انتهازيَّةً تحت مظلّة الخليفة هارون الرّشيد الذي حال الوهم بينه وبين ما يجري من وراء عينيه، وفي المقابل كان الوهمُ قد أقنع عقل تلك الأسرة البرمكيّة بأنَّ الخليفة هارون الرّشيد لم يعد مخيفًا، بل أبدى لهم الوهم أنْ لا ينفِّذوا أوامر الخليفة إلَّا فيما يخدمهم انتهازيَّةً ولا يمكّن آخرين.

ويقال ذات مرّة: جاءه شاعر فأقرضه شعرًا فأمر بإعطائه مكافئة على ذلك (ثلاثون ألف درهم)، ولكن عندما استحضر المبلغ استكثره الخليفة؛ فقرّر ارجاعه فقال له من حوله: استكثرت هذا على شاعرٍ، ويحيى البرمكي (أبو جعفر رئيس الحكومة وحاكم المغرب من الشّام إلى تونس، وأبو الفضل حاكم المشرق في الدّولة العباسيّة) قد بنى قصرًا في بغداد خلال سنة فقط بعشرين مليون درهمٍ! فدسَّها هارون في نفسه، وبعد يومين جاءه الشَّاعر فقال لهارون: لم استلم شيئًا يا خليفة المسلمين، وقال بيتا شعر لعمر بن أبي ربيعة:

ليت هندًا أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرّة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد

فأخذ هارون يردّد في نفسه ما سمع من شعرٍ: (إنَّما العاجز من لا يستبدِ)، وزد على ذلك عندما كان الخليفة هارون في طريقه إلى أداء فريضة الحج، فكان كلما شاهد شيئًا جميلًا ورائعًا يسأل، فيقال له: إنَّها لبرمكي.

عاد من الحج واليقظة من الوهم تفتح أمامه ما لم يكن يعرفه، وإلى جانب ذلك الغضب يملأ صدره من الوهم الذي ألمَّ به من تلك الأسرة البرمكيّة، فكسر وهمه بالانقضاض عليها بلا رأفة، فقتل منها من قتل، وسجن من سجن.

هكذا هي دائمًا نهاية الواهمين، ومع ذلك سأل الفضل والده وَهُمَا في السّجن قبل تنفيذ أمر الإعدام فيهما: يا ابتي ماذا حلَّ بنا؟ فأجابه: لعلَّها دعوة مظلوم سرت بليلٍ غفلنا عنها، ولم

يغفل الله عنها)[104]. نعم، إنَّها كلمة حقّ بعد صحوة من وهم لا فرصة للنجاة من بعده، وهكذا هي الأيَّام قابلة لترويض الطُّغاة وكسر الواهمين والانتهازيين[105].

وهمُ الخيالِ وأساطيرهُ:

في تلك الأزَمنة الأسطوريَّة كانت الثّقافة شفويَّة، فيها من الخيال والخرافة ما فيها، وفيها من أوهام البطولات الكلاميَّة بغير بطولات ما فيها.

ففي ذلك الزَّمان كانت المبالغة الكلاميّة هي سيّدة المواقف؛ حيث وصل الحال بمن يجهل الحقيقة إذا حكى عنها وأُخذ بحكيه كان حكيه وكأنَّه الدّليل والحجّة في الوقت الذي لا يزيد عن كونه وهمًا مجرَّدًا ليس إلَّا، وهذا ما يخالف تفسير العقل والمبدأ الذي يعتمد على الحُجّة والدّليل والشّاهد والبرهان المتوافر بين أيدي المتحاورين أو المتجادلين، مع الأخذ بالمكتوب الموثّق؛ كونه مصدرًا من مصادر المعرفة الموثوقة. فتفسير العقل والمبدأ حقيقة تصحبه الدقّة في التعبير مع الأخذ بالمفاهيم الفاصلة بين المتشابهات والمتقاربات في الصّفات والخصائص.

ولأنَّ التفسير العقلي نقدي؛ فهو يعتمد على البرهان المنطقي: (مقدمات ونتائج صادقة حُجَّةً ودليلًا)؛ وهو لا يقبل بتفسير المعلومات المشكوك في أمرها، ومن يقدم على تفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها وتبلغ نتائجها فهو من الواهمين الذين يفسّرون الماء بالماء؛ ومن ثمّ فلا يكون التفسير إلَّا عاكسًا لوجهة نظر المفسّر؛ ولهذا فالمعلومات غير قابلة للتفسير، أمَّا النتائج فتفسّر؛ ولذا فمن يفسّر المعلومات

---

[104] الألوكة (المجلس العلمي)، ا 17 مارس 2012م - العدد 15972

[105] عقيل حسين عقيل، كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، 2021م، ص 121 – 123.

قبل أن تُخضع للتحليل فمهما بلغ من نتائج؛ فنتائجه غير موثوقة؛ لأنَّه لا يزيد عن كونه تقديم وهمٍ على حقيقة، وهذا بالتمام حاله كحال من يُقدّم التفسير على التحليل.

ولذلك فتفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها يكون أقرب إلى التفسير الأسطوري الذي يعتمد على الإقصاصّ (الحكي) الشفوي الإغرائي مع سيطرة الخيال الواهم غفلة عن الموضوع قيد الحوار أو المحاجّة، وفي المقابل التفسير العلمي يعتمد على الدّقة الموضوعيَّة مع تقديم الحجج وإجراء التجارب في الميادين الاجتماعيَّة أو في المعامل والمختبرات؛ ولهذا فالعلاقة بين التفكير الأسطوري والعلمي والفلسفي علاقة تضاد الوهم مع الحقيقة.

ومع أنَّ التفكير الأسطوري قد طويت صفحاته ثقافة وحضارة وعلمًا، ولكنَّ عقول بعض العباد ما زالت على مقربة منه، وهنا تكمن علّة الخيال الواهم، وبخاصّة عندما يحكي الإنسان عن نفسه وكأنَّه البطل الوحيد، المتمكّن من خوض المغامرات والصّراعات متى ما حدثت، ومن ثمّ فالأنا يتخيّل ما يتراءى له كيفما يشاء، ويقصص ما يشاء، في الوقت الذي لا تكون فيه قصصه على علاقة بالواقع؛ ولهذا فهي لا تزيد عن كونها مرتبة من مراتب الوهم والانتهاز.

وهذا الأمر يتعارض مع الفِكْر العلمي الذي يكشف العلل بما ينتجه من معارف متجاوزة لذلك الوهم المتخيَّل، من خلال حُسن التدبّر والتفكير في المستقبل، والعمل على صناعته بدلًا من المحكي وهمًا؛ ومن ثمَّ انكشف اللثام عن تلك المعلومات التي كان بعض النَّاس يظنّها ثوابت الوجود، وهي الماء الذي قال عنه طاليس: (إنّه أصل الوجود)، والنّار التي قال عنها إقليدس: (إنّها أصل العالم)، وغيرهما قال: إنَّ أصل العالم:

(هواء وتراب) ثمّ اكتشف أنَّ العقل هو القوّة المحرّكة لعناصر الوجود الأربعة.

أمَّا نحن فنقول:

إنَّ وراء كلّ مخلوق خالقًا؛ فلا الماء، ولا النّار، ولا الهواء ولا التراب أصل الوجود، بل الوجود أساسه خالق، وهنا ينبغي أن نميّز بين الوجود، ومن أوجده (بين الكون ومن كوّنه)؛ فالوجود ظهور ما لم يسبق له وجود إلى حيّز المشاهدة والملاحظة، أمَّا الموجد: (المكوِّن) فهو من بيده أمر الكينونة.

ولهذا فالماء الذي قِيل عنه: أصل الوجود، لا يزيد عن كونه جزءًا من وجودٍ أعظم، وهكذا النَّار والهواء والتراب؛ فهي جميعها لا تساوي إلّا جزءًا يسيرًا من المخلوق الكوني الذي تغلب عليه الظُّلمة والفراغ والمجرات والطّاقة.

ومن هنا فالماء لا يكون إلّا لاحقًا لسابق: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}، أي إنَّ الماء لاحق لوجود السّماوات والأرض؛ فلو لم تكن السّماوات والأرض ما كان الماء، الذي جاء لاحقًا بغاية إحياء الشيء المراد إحياؤه في (التراب)؛ ومع ذلك ليس كلّ التراب، فهناك من الكواكب والنّجوم الترابيَّة ما لا ماء فيها؛ إذ لا قابليَّة للحياة إلى أن يشاء الله.

ولأنَّ الماء لا يكون إلَّا لاحقًا على الشيء، خلق الله آدم وزوجه خلقًا من تراب، ثمّ بعد ذلك تزاوجا؛ فكانت النّطفة ماء الحياة المستمدّ من الشيء السّابق عليها: (آدم وزوجه) {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا}[106]. أي خلق من آدم وزوجة ماء (نطفة)؛ فخلق منها بشرًا، وهم السّلالة التي جاءت من النّطفة

[106] الفرقان 54.

التي لو لم يكن الزّوجان ما كانت، وهكذا جعل الله الأحياء من الماء: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)، قال: (وجعلنا)، ولم يقل: (وخلقنا)؛ فالجعل يتعلّق بما هو مخلوق، أمّ الخلق؛ فهو إيجاد ما لم يكن قد خُلق؛ ولهذا فالأشياء المخلوقة هي في حاجة للماء؛ لتكسب حياة وحيويّة ونشوء وارتقاء، وهذا يدلّ على وجود الأشياء أوّلًا، ثمّ جعل الماء فيها مُبعثًا للحياة والنّمو، ومن ثمَّ فكل ما يخالف ذلك يعد وهمًا.

إذن فعندما يقول طاليس: إنَّ أساس الوجود الماء فهو كمن يقول: لا عناصر للوجود سوى: (الهيدروجين والأكسجين)، وعندما يقول إقليدس: إنَّ أصل الوجود النَّار فكأنَّه يقصر الوجود على (العناصر الغازية والكربونيَّة)، وكذلك عندما يقول الفيلسوف اليوناني أنكسيمنس: إنَّ أصل الوجود الهواء وكأنّه يقول: قد اقتصر الوجود على عناصر الهواء التي هي (مجموعة من الغازات المختلفة)، وهكذا يرى الفيلسوف اليوناني أكزينوفانوس: إنَّ أصل الكون هو تراب الأرض التي لا تكون إلَّا جزيئًا من الوجود العظيم. ومن هنا يلاحظ أنَّ المدرسة الطبيعيَّة تُرجع الوجود الكوني إلى المادّة، في الوقت الذي فيه الوجود الكوني لا يقتصر عليها، فهو كما قدّره بعض العلماء الفيزيائيين يحتوي على 5% مادة عاديّة كالنّجوم والكواكب والغازات والغبار الكوني، ويحتوي على 25% مادّة مظلمة لم تكتشف بعد، ثمَّ أنَّ 70% طاقة مظلمة، وبهذه الحقيقة الفيزيائيّة التي أثبتت أنَّ أكثر من 90% ليست بمادة فكيف لنا بقبول المادة أصل الكون ونسبتها في الوجود الكوني لا تزيد عن 2% في الوقت الذي فيه اللاشيء شيء عظيم متجاوزًا لما نسبته 98% من الخلق الكوني؟![107].

[107] عقيل حسين عقيل، نحو النظرية ارتقاء، القاهرة: المصرية للنشر والتوزيع، 2020م، ص 126 – 131.

ولهذا فالوجود الكوني لم يكن مقتصرًا على الوجود المادّي سواء أكانت المادّة: (ماءً، أم نارًا، أم هواءً، أم ترابًا، أم أنَّها مجتمعة)، بل الكون مبنيّ على معطيات تتعدّد ويصعب عدّها، سواء أكانت طاقة، أم مجرّات، أم فراغًا وظلمةً، أم نجومًا وكواكبًا، وهذه جميعها تتمدّد بين المستحيل بلوغًا، والمعجز نشوءًا ومعرفةً، والممكن تيسيرًا وصعوبةً؛ ولذا وجب علينا أنْ نميَّز بين وهم الحقائق والواقع وإلَّا سنكون على درب الواهمين سائرين؛ حيث لا ماء يروي ظمأ من وراء السّراب.

هكذا هو الفِكْر يتولّد فِكَرًا: (فكرة بعد فكرة)، ثمّ يعمل العقل على صوغها بما يمكّن من المعرفة المنظّمة للسّلوك، والممكّنة من العمل والارتقاء؛ ولذلك فتلك الفلسفات والرّؤى المختلفة والمتناقضة والمتضادة والهابطة والصّاعدة لو لم تمرّ البشريَّة بها، ما وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم من غزوٍ للفضاء وهي تأمل بلوغ المزيد؛ ممّا يمكّن من رتق السّماوات والأرض جنّة لا وهم من بعدها.

ولهذا فالإنسان الطّموح يعرف أنَّ المسافة واسعة بين نقطة الصّفر التي وضع قدميه عليها، وما يأمله ارتقاء، ومع ذلك يسعى ولا يأس في قاموسه العقلي؛ فيرسم الخطط وفقًا لمنهجٍ مفتوح على كلّ الاحتمالات؛ حتى يتمكّن من معرفة: كيف يتعلّم؟ وكيف يبحث؟ وكيف يصوغ تساؤلاته وفروضه لِما يود بلوغه؟ وكيف يفكّك ما يعوق سبيله؟ وكيف يميّز بين علمٍ لا ظن فيه، وعلمٍ وَقَفَ شاهدًا عليه وملاحظًا، وعلم عاشه تجربة لا وهم فيها؟ ومن ثمَّ يعرف كيف يركِّب ما تم تفكيكه؛ من أجل تحقيق أهدافه على أرض الواقع حقيقة لا زيف فيها؟ ثمّ كيف يحدث النُّقلة إلى ما هو أفضل يقينًا؟

ومن هنا يُوجِدُ منهجًا به يتمّ توليد الفكرة من الفكرة، وتوليد الحُجَّة من الحُجة، من أجل رؤية المستقبل والتطلّع إليه حقيقة لا وهمًا بالأمر الواقع.

وعليه:

ينبغي أنْ نفكّر وعيًا؛ حتى لا تضمر ذاكرتنا، وأن نقارن بين الدّقيق والأدق منه؛ حتى تنشط عقولنا، وتستعيد عافيتها التي تمكّنها من التفكير المتوقَّع وغير المتوقَّع ارتقاء، فالعقول دائمًا في حاجة لأن تُمرّن؛ حتى تمتلك القوّة التي تُلفت الإنسان لنفسه، وتُمكّنه من ملاحظة الآخرين وما يدور من حولها.

وعليه: فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذّاكرة ويخضعها للتقييم؛ كي لا يغلبه الوهم ويرضخ للأمر الواقع استسلامًا، ثمّ يقوّم حالته حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجلها وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد ارتقاءً فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الآخرين؛ حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح، ويتحدّى عقله تفكيرًا في نفسه حتى ينكسر الوهم فيها ولا يترك مجال للانتهازيين الذين لا يسوقون إلى برٍّ آمن؛ ومن هنا يستطيع أن يدرك أسرار نفسه وخفاياها، ويعرف أنَّ قوّة البصيرة بقوّة التفكير فيها (في النفس)، وهي لا تضعف إلَّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة؛ ولهذا فالفكر ارتقاء يمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه حتى لا يفكّروا في غيره وهمًا.

والوعي بالحقيقة وكسر الوهم في النفس لم يكونا نتاج العاطفة، بل نتاجًا لحسن التدبّر بهدف صناعة المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، والممكّن من بلوغ

الغايات العظام التي تجعل من الإنسان قيمة مقدّرة على أرض الواقع حقيقة؛ إذ لا وهمٌ يرافقها؛ ولذا فإنْ لم يرتقِ الإنسان علمًا ومعرفةً وخُلقًا، وأسلوبًا، لا شكّ أنَّه سيجد نفسه في منازل المستهلكين الذين يعيشون ليومهم عالة على جهود المنتجين والمبدعين وأهل الحُجّة والمعرفة والحكمة؛ فالمستهلكون بهذه الأعباء يُجهدون المنتجين ويَشَدُّونهم للخلف؛ ممّا يجعل الفارق كبيرًا بين الجهد المبذول من أجل بلوغ قِمم الارتقاء، والحاصل المنتج الذي تُنتجه القوَّة العاملة والمتطلّعة ارتقاء[108].

ولهذا فالجيوش والطّلبة مع أنَّهم حيويَّة المجتمع، فإنَّهم في الغالب مستهلكون؛ ممّا يجعلهم عبئًا على جهود المتطلّعين لكلّ ما من شأنه أن يحدث النُّقلة والارتقاء؛ ولذا وجب أن تكون القاعدة المنطقيَّة: تحويل الجيوش إلى ميادين التدريب والتأهيل والإنتاج، أمَّا الاستثناء: أنْ يعدّوا مقاتلين متى ما دعت الضّرورة من أجل المحافظة على درجات سلمّ الارتقاء، وهكذا الطّلبة ينبغي ألَّا يقضوا جلّ وقتهم تعليمًا على أيدي الملقِّنين، بل يجب قضاؤه في تعلّم العلوم الممكِّنة من الحياة ارتقاء مع تعلّم الخبرة والتّجربة الممكِّنة من ميادين العمل المنتج والمبدع على أيدي المتطلّعين إلى ما هو أفيد وأعظم، وإن لم يحدث ذلك ويصبح حقيقة على أرض الواقع فستكون العملية التعليميَّة في ذاتها وهمًا ينبغي أن يكسَّر.

أوهام الدَّولة الدينيَّة وانتهازيَّتها:

مع أنَّ الدّين يرسم العلاقة المباشرة بين المخلوق والخالق فإنَّ بعض السَّاسة بتوجهاتهم يتدخّلون في هذا الشّأن باسم

---

[108] عقيل حسين عقيل، نحو النظرية ارتقاء، القاهرة: المصرية للنشر والتوزيع، 2020م، ص 126 – 131.

الدّولة، وكأنَّ الدّولة نائبة الخالق في خلقه، أو وكأنَّ من يدّعي ذلك وصيًّا على الدين دون غيره.

ومع أنَّ الدَّين رحمةٌ مطلقة من الخالقِ إلى خَلقهِ فإنَّ البعض باسم الدّين يرى وجوب تضييق الرّحمة على عباد الرَّحمن بوهمٍ وصَفَ نفسه به علّامة في الوقت الذي لم ينصّبه أحد لذلك، أو يصفه بهذه الصّفة؛ وهكذا على هذا الغرار هناك من يرى وجوب قيام الدّولة الدِّينيَّة التي فيها تضيَّق الرّحمة الشّاملة على كثيرٍ من المواطنين الذين لا يدينون بالديانة المفروضة وهمًا.

ومع أنَّنا نعيش معطيات القرن الواحد والعشرين فبعضنا وكأنَّه لم يقرأ التَّاريخ الذي طوى صفحة الدّولة التي كانت الكنيسة فيها تضيّق الرّحمة على حريَّات النَّاس في أوروبا، وتملي ما لم يوصِ به الدين، وبخاصّة عندما سيطرت الكنيسة على 10% من أراضي المملكة الفرنسيّة، ثمّ أقرّت كرهًا وانتهازيَّةً جباية عُشر دخل المواطن بدعوة أنَّها ستوزعه على الفقراء والمحتاجين؛ وبهذا التضييق كان لأفكار الفلاسفة والمفكرين وعلى رأسهم الفيلسوف فولتير أثرًا موجبًا على نشر الوعي والتمرُّد والثّورة على تعاليم الكنيسة وأوهام قساوستها وانتهازياتهم؛ فكانت الثّورة الفرنسيّة (ثورة كسر الوهم) الوهم الذي به اجتمعت رؤية الكنيسة مع سياسة الملك لويس السّادس عشر، الذي أدّى إلى ثورة 1789 - 1799م، والتي كان من أعظم قراراتها إسقاط أوهام السيطرة التي سادت في ذلك الزَّمن من خلال توافق الملك انتهازيَّةً مع الكنيسة[109].

[109] الثورة الفرنسية (تاريخ اجتماعي وسياسي)، باريس: بيلان للنشر، 2006، ص 148 - 215.

ومع أنَّ الكنيسة لم تحكم أوروبا فإنَّها كانت باسم الدِّين ذات أثرٍ عظيم على قرارات حكوماتها ورسم سياساتهم؛ إذ من طبيعة الحكّام عبر التَّاريخ مولات رجالات الكنيسة والدّين بشكل عام، وهذا الأمر لا زال سائدًا انتهازيَّةً حتى يومنا هذا في معظم دول العالم؛ حيث ميول الرّؤساء والقادة والزّعماء والملوك إلى كسب رضاء رجالات الدّين وبخاصّة الذين يديرون المؤسَّسات الدينيّة من: (كنائس، ودير، ومساجد).

أمَّا الدول التي تدير الدّولة باسم الدين حتى يومنا هذا فهي ثلاث:

دولة الفاتيكان:

دولة رمزيَّة من حيث حجمها، ومساحتها، وعدد سكّانها. إنَّها دولة الكرادلة (رجال الدّين الذين يمثّلون كنائس العالم)، التي فيها ينتخب مجمع الكرادلة البابا لمدى الحياة، ويكون مطلق الصَّلاحيَّة، وهي الدّولة التي أُسِّست سيادتها في قلب إيطاليا، وحرّاسها منذ العام 1506 من الدّولة السويسريّة، فهم الذين يحرسون حاضرة الفاتيكان والبابا، فالفاتيكان دولة دينيّة فيها أكبر كاتدرائيّة في العالم وهي كاتدرائيّة القديس بطرس التي تتجاوز سعتها 20 ألف عابد.

ومع أنَّها على هذه الصّفة البسيطة محدودة العدد والمساحة والاختصاصات؛ فإنَّ السّياسة فيها من صلب مهامها الرّوحيَّة؛ ولهذا مثلما يُرسل السُّفراء والرُّسُل إليها، فكذلك منها السُّفراء والمبعوثون يرسلون، ومنها تؤخذ المشورة.

ولأنَّ دولة الكرادلة دولة بلا شعب سوى العاملين فيها فلا تعد مثالًا لما نود الإشارة إليه من حيث إنَّ الدّولة التي يصطبغ شعبها بدينٍ معينٍ هي الدولة التي تقصي الجزء الآخر من

شعبها باسم الدين الذي فرضته واستمدت منه شعاراتها ودساتيرها وقوانينها، ومن ثمَّ فمن يخالف ذلك في الدولة الدينيّة فستكون الأحكام الصادرة ضدَّه بمنظور الدّين الذي فرضه سلطان الدَّولة على شعبه.

دولة إسرائيل:

من أهم بنود القانون الإسرائيلي (لليهود فقط في إسرائيل الحقّ في تقرير المصير) أي لا حقّ لعرب فلسطين في تقرير المصير مع أنَّهم في صلب الأرض، وليسوا بغزاة فيها.

فهذا القانون نصَّ على يهوديَّة الدَّولة، ولم ينصَّ على الوطنيَّة فيها، مما يجعل الدِّين اليهودي معيارًا للحكم ولمطاردة المخالفين واستصدار الأحكام ضدّهم، وهذا يعني لا قيمة في إسرائيل للمواطن المسيحي والمواطن المسلم وغيرهم ممن اختاروا دينهم ولو كانوا بوذيين أو أنَّهم كفرة ولا دين لهم.

الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانية:

بعد أن قضت الثّورة الخمينيَّة على الملكيّة عام 1979م أعلنت الجمهورية الإسلاميَّة، ومن ثمَّ فإنَّ مضمون هذا المسمّى يقيِّد حريّة المواطن غير المسلم في الدّولة، سواء أكان من المسيحيين، أم من اليهود، أم من الذين لا دين لهم أصلًا، وأضف إلى ذلك أنَّها أقرّت مذهبًا واحدًا من المذاهب الإسلاميّة وهو: المذهب الشّيعي الإثنى عشري، مما يجعل كثيرين من مسلمي الجمهوريّة ليسوا كغيرهم من المسلمين فيها؛ سواء أكانوا مالكيّة، أم حنبليَّة، أم حنيفيّة، أم شافعيَّة، أم إباضيّة.

وفي مثل هذه الأنظمة الدّين هو المعيار الرّئيس وليس الحقوق والواجبات، مما يجعل حقوق المواطنة لا قيمة لها في الدّولة الدينيّة، بل القيمة للانتهازيَّة الدِّينيَّة.

معاهدات بين وهمٍ وانتهازيَّة:

المعاهدات والاتفاقيَّات الدّوليَّة عندما تعقد وتعلن من فوق الطّاولات لم تكن وليدة تلك السّاعات المنعقدة، بل الولادة الفعليّة لا تكون إلَّا تحت الطّاولات، مما يجعل الجلوس على الطّاولات لمجرد الإشهار؛ كي يعلم الجميع ويقف كلٌّ عند حدّه، وكلٌّ لا يكون إلَّا شاهدًا حتى وإنْ كان الأمر يتعلَّق بمصيره أو مصير هويّته ووطنه (إنَّها لغة الأقوياء المنتصرين، أمَّا الضّعفاء المنهزمون فالصَّمت يكفي)، ومن هذه المعاهدات:

معاهدة سايكس بيكو:

هي المعاهدة التي أنهت سيادة الدّولة العثمانيَّة بكل انتهازيَّة، وقسّمت معظم الوطن العربي إلى دويلات عام 1916م وبذلك التقسيم كَسَّرت تلك المعاهدة وهمُ الإمبراطوريَّة العثمانيّة، وقسَّمت الوطن العربي إلى دويلات تكون خاضعة لإرادة المقسمين له وهما: (فرنسا وبريطانيا)، وبالفعل كُسر وهمَ الامبراطوريَّة العثمانيَّة، وكسر الوطن العربي إلى قطعٍ صغيرة إذا ما قورنت بوحدة الوطن وعظمة هويّته، وأخذتً المعاهدة عنوانها: (سايكس بيكو) من الاسمين:

- مارك سايكس الإنجليزي (وكيل وزارة الخارجيَّة للمملكة المتحدة).

- فرنسوى جورج بيكو الفرنسي (الموظف بوزارة الخارجيَّة الفرنسيَّة).

عُقدت اجتماعات معاهدة (سايكس بيكو) في مدينة (بطرس برج) بروسيا عام 1916م وكانت اجتماعات سريَّة تحت الطَّاولة، ولم تكشف أوراقها ويعلن عنها إلَّا بعد الثَّورة البلشفيَّة 1917م، والتي من بعدها انسحبت روسيا من المعاهدة مع أنَّ انسحابها لا يعني شيئًا؛ ذلك لأنَّه لم يغيِّر من الأمر شيئًا.

تمَّ الاتفاق بين سايكس وبيكو بمصادقة روسيا القيصريَّة على تقسيم الشَّام والعراق بين بريطانيا وفرنسا، وأعطي شرق الأناضول لروسيا، وبقي القدس تحت الرِّعاية الدّوليَّة إلى أن تمَّ من بعده وعد بلفور الذي أعطى فلسطين للإسرائيليين.

وعليه: فإنَّه تاريخيًّا (فرنسا وبريطانيا وروسيا) هي الدِّول التي قسّمت الوطن العربي انتهازيَّةً، ولم تترك لشعوبه سوى وهمٌ، ومن ثمَّ فمن يعتقد من العرب أنَّ هذه الدّول ستناصره فيما يخالف هذه المعاهدة سيكون من أكبر الواهمين.

ومن هنا فمن يحاول أن يرفع شعار الوطن العربي، والوحدة العربيّة سيكسَّر بأوهام معاهدة (سايكس بيكو) وأقصد بأوهامها: أنَّ تلك الدِّول تعرف جيّدًا أنَّ العرب أمَّة عظيمة (مخيفة)، قادرة على التحدِّي وبلوغ الخوارق، ولها رسالة، وهذه جميعها شكّلت وهمًا لدى تلك الدِّول، مما دعا ساستها لأن يفكِّروا في ذلك الزَّمن في تقسيمها، حتى لا تَعظُم وتصبح قادرة على تصدّر التَّاريخ كما سبق وأن تصدرته بقوّة الإسلام وعظمته، فقرّروا تقسيم الوطن وكسر الهويّة العربيّة الإسلاميَّة، ثمَّ نفَّذوا قرارات التقسيم.

معاهدة أوشي (لوزان):

كانت اتفاقيَّة كسر الوهم الذي أزعج أوروبا من التوسع الذي تمدّدت فيه الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، ولكن بعد أن بدأ الضّعف والوهن ينخر مفاصلها قبلت الجلوس والتفاوض في 1912/10/15م وجلست على طاولة التفاوض مع الوفد الإيطالي بمدينة لوزان السّويسريَّة وبالتحديد في قصر (أوشي)، وكانت أهم بنود الاتفاق انتهازيَّةً:

ـ أن يصدر السُّلطان العثماني خلال ثلاثة أيَّام استقلال ليبيا، وتمَّ ذلك يوم 1912/10/16م.

ـ أن يعين السُّلطان العثماني ممثل ديني له، مهمّته تولي الإشراف على الشئون الدينيَّة في ليبيا، وتمَّ ذلك يوم 1912/10/16م.

ـ أن يصدر الملك الإيطالي مرسومًا بالعفو العام عن كل المقاتلين العرب الذين قاتلوا إيطاليا، ويعترف بالممثل الدّيني الذي تم الاتفاق عليه، وأن يسمح لليبيين بممارسة شعائرهم الدينيَّة، وثمَّ ذلك بذات التَّاريخ 1912/10/16م.

ـ إيقاف الحرب بين إيطاليا وتركيا.

ـ أن يصدر السُّلطان العثماني قرارًا بالعفو عن الأتراك الذين قاتلوا مع إيطاليا في الجزر التركيَّة المحتلَّة.

ـ أن تتعهّد تركيا باستدعاء جنودها من ليبيا.

ـ أن تتعهد إيطاليا باستدعاء جنودها من الجزر التركيَّة المحتلة.

ـ أن تتعهد إيطاليا بعقود تجاريَّة مع الدّولة العثمانيَّة.

ـ أن تؤيّد إيطاليا الدّولة العثمانيَّة في مطلبها عقد مؤتمر دولي لوضع حد للامتيازات الأجنبيَّة بممتلكات الدّولة العثمانيَّة.

ـ إعادة الإيطاليين الذين طردتهم الدّولة العثمانيَّة من أراضيها وعددهم 5000 إيطالي وتعيدهم لسابق أعمالهم، وتعيد لهم ما صودر منهم أو أخذ.

ـ أن تتعهد إيطاليا بدفع ألف مليون ليرة للدّولة العثمانيَّة، وتمَّ استصدار الاتفاق يوم 10/18/ 1912م[110].

وبناء على هذه المعاهدة ثم الاتفاق المرضي بين الدَّولتين، ولم يبق لليبيين إلَّا وهمًا.

وعليه أقول: لا يليق بمن يتم احتلال بلاده أن يعشق المستعمرين، فمهما عشقت من عشقٍ لهم فليس لك منهم إلَّا وهمًا.

وهكذا في المقابل سيكون واهمًا من يعتمد على الأجنبي في تحرير وطنه من الغزاة، فالوطن إن لم يقاتل عنه أبناؤه فلا إمكانيَّة لعودته إليهم إلَّا وهمًا.

معاهدة لوزان الثَّانية:

إنَّها معاهدة كسر أوهام الإمبراطوريَّة العثمانيَّة وانتهازيَّة الظروف، فقد عقدت هذه المعاهدة في مدينة لوزان السّويسريَّة 1923م، وقد تكوَّنت معاهدة لوزان من 143 بند قُسِّمَت إلى عدَّة أقسام رئيسة، وهي: مؤتمر المضائق التركيَّة، وتبادل إلغاء التعهُّدات، وتبادل السُّكان بين اليونان وتركيا.

---

[110] محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العليّة العثمانية، دار النفائس، الطبعة العاشرة: 2006 م، ص 115.

إنَّها المعاهدة التي وُقِّعت بين كل من الحلفاء الذين انتصروا في الحرب العالمية الأولى وعلى رأسهم فرنسا وبريطانيا وروسيا، والجمعية الوطنيَّة العليا للحركة القومية التركيَّة بقيادة مؤسّس الجمهورية التركيَّة الحديثة مصطفى كمال أتاتورك[111].

وُقِّعت معاهدة لوزان الثَّانية بين الدِّول الأوروبية المنتصرة في الحرب العالميَّة الأولى وتركيا المنهزمة، وبموجبها حصل الأتراك على اعتراف أوروبي بدولة تركيا الحديثة العلمانيَّة ودعمها، على أن تحتفظ بالأناضول وتراقيا الشرقيَّة (الجزء الأوروبي الحالي من تركيا) في مقابل أن توافق تركيا على استقلال الدّول والمناطق التي كانت تحت سيطرتها.

ومن أهم بنود الاتفاق:

ـ اعتبار مضيق البسفور ممرًّا دوليًّا ولا يحق لتركيا أنْ تحصِّل أيَّة رسوم على السُّفن العابرة له.

ـ منع تركيا من التنقيب عن البترول في أراضيها.

ـ إعلان علمانيَّة الدّولة[112].

وعليه:

فإنَّ الوهم الذي قيَّد تركيا انتهازيَّةً مائة عامٍ من عمرها، حان وقت طي صفحاته؛ ذلك لأنَّ المائة عامٍ أصبحت في نهاياتها 1923م؛ ولذا فعندما ينكسر وهم القيد، هل ستبقى

---

111 Finkel, Caroline, Osman's Dream, (New York: Basic Books, 2005, p 57.

112 Glasse, Cyril, New Encyclopedia of Islam, (Rowman Altamira, 2003, p 229.

تركيا وكأنَّ قيدها لم يكسر، أم أنَّها ستكون طائرًا خارج القفص؟ وفي المقابل من تعوَّد على رؤيّة الطَّائر داخل القفص هل يقبل بمشاهدة القفص خاليًا مما كان يأمل؟

الأمر لن يصبح هيّنًا، وبخاصَّة أنَّ حدوده قد تتجاوز دائرة المتوقَّع إلى ما هو ليس بمتوقَّع، ومن ثمَّ فإنَّ إعادة الطَّائر الذي أصبح يحلِّق في آفاقه العالية ليس من السّهل إعادته إلى القفص، ومن هنا سيكون الثّمن غاليًا في حالتين:

ـ حالة ما إذا كان وهم الطَّائر بلا سقف ليقف عنده.

ـ حالة ما إذا كان الواهم مازال واهمًا أنَّ حال الطّائر في القفص لا ينبغي أن يختلف عن حاله يحلِّق في السّماء.

وبالتَّالي ستكون أهميَّة التنقيب عن النّفط بالنسبة إلى تركيا الجديدة متوازيًا مع أهميَّة السّيطرة على مضيق البسفور، الذي ستكون الدُّخول منه مكوِّنة لرأس مال مضاف إلى رأس المال التركي.

ولذا أقول: الأمر لم يعد هينًا، فمضيق البسفور سيترتّب عليه أحد أمرين:

ـ اتفاق وانسجام تركي روسي.

ـ عداء واقتتال بينهما؛ لأنَّ مضيق البسفور يعد مخنقًا للبحر الأسود الذي لا إمكانيّة للحركة الرُّوسيَّة إلَّا من خلاله، وفي حالة ما احتدم الخلاف سيأتي الغرب بجميع ألوان طيفه، وفي مقدّمته الولايات المتحدة الأمريكيَّة لمناصرة الاتراك كما جاءت من قبل مناصرة لهم عام 1954م عندما قرَّر ستالين إعادة بعض المناطق التي كانت تحت سيطرة الأتراك، ثمَّ إقامة قواعد على حساب تركيا؛ ولهذا انضمت تركيا إلى حلف الناتو وأصبحت فيه عضوًا فاعلًا.

ومن هنا فإنَّ المستقبل سيكون مخيفًا وعنيفًا، وتركيا إن لم تفكّر أكثر من مرّة فيما تفكِّر فيه ستكون هي الخاسرة؛ ولأنَّ المستقبل مخيف وعنيف فقد يعاد تشكيل كتل العالم من جديد، مما قد يجعل روسيا وتركيا في تحالفٍ مع جزءٍ من أوروبا التي لن تكون كتلة واحدة، أي ستكون بين كتلة شرقيَّة وأخرى غربيّة، ومع ذلك على تركيا أن تعيد قراءة التَّاريخ قبل أن تقرر، وبالتحديد تعيد قراءة علل الهزيمة قبل أن تعيد قراءة أسباب النَّصر.

وفي المقابل قد يحدث توافق وتحالف تركي أوروبي أمريكي يجعل من البسفور مخنقًا لروسيا، ومع ذلك لا أعتقد أن تكون روسيا غافلة عن خطورة هذا الأمر وأهميَّته.

ومع ذلك فإنَّ لحرب أوكرانيا متغيرات انتهازيّة مضافة منها أنَّ تركيا ستكون محظوظة الجانبين:

ـ الرّوس إذ لا إمكانيَّة للتفريط في تركيا.

ـ الامريكان والأوروبيين لا إمكانيّة لهم للتفريط في تركيا، وقد يفتح ملفّها الممكّن من الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي.

معاهدة يالطا:

معاهدة يالطا أو اتفاقيّة يالطا هي الاتفاقيَّة الموقعة بين الاتحاد السوفيتي بزعامة (ستالين) وبريطانيا بزعامة (تشرشل) والولايات المتحدة بزعامة (روزفلت) في 11 فبراير 1945م. وأخذت المعاهدة اسم المدينة السوفييتية يالطا عنوانًا لها، وبها عُرفت.

لقد ناقش المؤتمرون انتهازيَّةً كيفيَّة تقسيم ألمانيا، وكيفيَّة محاكمة أعضاء الحزب النازي وتقديمهم كمجرمي حرب،

بالإضافة إلى كيفيَّة تقسيم ألمانيا هل إلى أربع كما رغبت بريطانيا والولايات المتحدة؛ أي بزيادة فرنسا، أم إلى ثلاث كما رغب الاتحاد السوفيتي، فكان الاتفاق أن تأخذ فرنسا حصّة لها مما أجيز للولايات المتحدة وبريطانيا، وهكذا بالتمام تمّ تقسيم مدينة برلين بالكيفيَّة التي قسمت بها ألمانيا.

وتمّ الاتفاق انتهازيَّةً على تقسيم دول العالم وإيقاف الحرب العالمية الثَّانية، بين دول تحت السَّيطرة، ودول نفود ومصالح، وكان ذلك للحد من أوهام المواجهات واحترام المكاسب والمغانم التي تم الظّفر بها على حساب الدّول المنهزمة في الحرب العالميَّة الثَّانية، كما ترتّب على ذلك قبول الخلاف وفقًا لقواعد الحرب الباردة[113].

كاسراتُ الانتهازيَّة قيدًا

الكاسرات ُكثر وعلى رأسها:

[113] المصدر السابق، ص 79 – 86.

الاستنارة، تحدّي الصِّعاب، الدِّراية، الإرادة، المنهج درايةً، العقد الاجتماعي، حُسن التدبُّر، والتأهُّب لنيل المأمول.

الاستنارةُ قيدٌ على الانتهازيَّة:

الاستنارة استجلاءٌ عقلي يُمكّن أصحابه من الاستضاح قبل وقوعهم في فخّ الانتهازيَّة، فمن بلغها وعيًا انتقل بها من حالة الاستظلام إلى حالة الإنارة التي تمكِّن من الاسترشاد دون تعثّر في سبيل إنجاز الأهداف، وتحقيق الأغراض، وبلوغ الغايات، ونيل المأمولات.

ولذا فالاستنارة استجلاء الاستظلام الذي تعشش فيه الانتهازيّة وتنعدم فيه الرّؤية؛ ومن ثمَّ يظل النُّور مرشدًا لمن شاء الاهتداء بنوره، حتى تزاح العتمة التي تحول بين النوُّر ونفاذه لمن هم في حاجة إليه استرشادًا؛ وتلك هي الاستنارة كونها أخذٌ مِن نُورٍ.

ومع أنَّ الاستنارة استمداد النُّور من مصادر نوره، فإنَّها لا تكون إلَّا عن علمٍ أو دراية، ومع ذلك العلم ليس بالدِّراية؛ فالعلم لا يكون إلَّا من عليمٍ أو عالمٍ، أمَّا الدِّراية فلا تكون إلَّا من مُدرٍ مستنير.

وعليه فإنَّ الفارق كبير بين مفهوم الاستنارة، التي لا تكون إلَّا عن استجلاءٌ بيّنة ورؤية؛ حيث لا استظلام لتمكين الانتهازيين من مآربهم، وبين مفهوم الإنارة التي لا تكون إلَّا في وسط ظلمة من خلالها يتمكن الانتهازيّون من نشاطهم وحيويّتهم كما تتمكّن الخفافيش من حيويَّتها ونشاطها في الظّلمة.

ولأنَّ المستنيرين لا مكانة للانتهازيَّة في عقولهم فهم على أمرين موجبين:

الأمرُ الأوَّل: إنَّ المستنيرين لا استظلام في صدورهم ولا في عقولهم، ومن ثمَّ فلا إمكانيَّة لأن تعشعش الانتهازيَّة فيها.

الأمرُ الثَّاني: إنَّ المستنيرين لا يقولون قولًا إلَّا والاستنارة على السنتهم في الكلمة والفعل، ومن ثمَّ فهم العاملون على استنارة العقول لإخراجها من تلك الظُّلمة التي كوّنت البيئة المناسبة للانتهازيَّة وممارستها من قِبل الانتهازيين.

ولأنَّ الاستنارةُ لا تكون إلَّا عن وعيٍ ودرايةٍ؛ فهي ترشد إلى ما يجب اتباعه، وترشد أيضًا إلى ما لا يجب اتباعه؛ ومن هنا فالواعون لا يقدمون على مخالفة منظومة القيم التزمًا بقيدها خُلقًا، وفي المقابل عقول غيرهم ممن هم دونهم قيمًا لا تخشى قيد القيم، بل تقدم على كسره دون أن تنتظر وقتًا؛ ومن ثمَّ فلا استنارة.

وعليه فإنَّ استنارةُ العقل مع أنَّها لا تكون إلَّا عن وعيٍ ودرايةٍ وترشد لما يجب اتباعه، فإنَّها ترشد أيضًا إلى ما لا يجب اتباعه بوضعها علامة: (قف) قيدًا دونه.

وعليه: عندما تظل الشُّعوب منتظرة لاستيعاب الثّقافة بغاية كسر قيدها، فإنَّها ستكون في حاجة لمزيدٍ من الوقت؛ وفي المقابل عندما تعي الشُّعوب الحقيقة تُصبحُ قادرة على تجاوز الواقع وإحداث النُّقلة؛ ومن ثمَّ فزمن الانتظار لن يجد مكانًا له ليحلَّ فيه أمام الدّراية التي بتجاوزها لزمن الأميَّة تتجاوز زمن الثّقافة والوعي.

ولأنَّها الاستنارة فإنَّ عيون المستنيرين ستكون على أولئك الانتهازيين لحظة بلحظة؛ كي لا يستغلّوا الغافلين ويصعدون على أكتافهم وهم لا يدرون أنَّ ذلك الصّعود سيكون على حِساب مبادئهم الحميدة وقيمهم الخيِّرة؛ ولهذا

فالدّراية تجاوز معرفي لكلِّ ما من شأنّه أو يوصف جهلًا، أو أميَّة، أو علمًا، أو فكرًا وثقافةً وهي التي تحدثُ النُّقلة من معرفة الممكن إلى معرفة المعجز والمستحيل.

ومع أنَّ الثَّقافة استنارة عقلٍ، فإنَّها أمام العقل قيدٌ على ما ينبغي اختياره والإقدام عليه، وما لا ينبغي اختياره والإحجام عنه؛ ومن هنا فعندما تغيب الدّراية يصبح زمن الانتظار معطية من معطيات الأميَّة التي لا تملَّ من الانتظار وإن طال زمنه، ولهذا فالزّمن قادرٌ على قيد الأميّة وتجاوزها وعيًا، أمَّا الأميَّة فلا إمكانيّة لها بذلك؛ ذلك لأنَّ أهل الأميّة والانتهازيين غير قادرين على إحداث النُّقلة وصُنع المستقبل أملًا ومأمولًا.

ولأنَّ الوعي يُمكّن من معرفة الحقيقة المراد البحث عنها، فإنَّه المؤدّي إلى الفطنة الممكِّنة من التمييز واتخاذ القرار المناسب حتى وإن كان صاحبهُ أميًّا، فالحقيقة كما يلمّ بها الأمي ويعرفها يلمّ بها كلًّا من المتعلّم والمثقّف ويعرفانها، وبخاصّة في الزَّمن الذي لا شيء فيه يُخفى؛ إذ كلّ شيء على البلاطة.

والوعي لا يقتصر على المتعلّمين والمثقّفين، بل الأميون لهم من الفطنة ما لهم؛ ذلك لأنَّ الوعي والفطنة لا يقتصران على من تَعلّم، فمع أنَّ المتعلمين تحصَّلوا على رخص قيادة (شهادات ومؤهلات جامعيّة وعليا) فإنَّ بعضهم لا يستطع أن يقود وسط الازدحام.

ولهذا فالوعي ليس دائمًا مولود تعليمٍ، فمن المتعلّمين مَنْ لا ثقافة لهم ولا وعي ولا دراية، وفي المقابل من الأميين ما لهم من الحكمة والحنكة والمعرفة ما لهم، ومع أنَّ كيفيَّة البحث والتقصي عن الحقيقة في المدارس والجامعات منهجيًّا تُعلّم، فإنَّ الحقيقة عبر التَّاريخ تروى وتسمعها أذنٌ واعية.

ومع أنَّ الأذن الواعية تسمع فتتعظ وتتدبّر، فإنَّ الأذن غير الواعية وإن سمعت فإنَّها لا تتعظ ولا تتدبّر؛ ولهذا جاء قوله تعالى {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}[114]، ففي هذه الآية الكريمة جاء الوعي مرتبطًا بالسّمع ولم يأتِ مرتبطًا بالأذن السَّامعة؛ إذ جاء ارتباط الأمر بالسّمع وليس بالأذن؛ ذلك لأنَّ الوعي مقدرة على التمييز بين ما يجب وما لا يجب أخذًا وانتهاءً.

ومع أنَّ الأذن في دائرة الممكن تسمع ما يقال أو تستمع إليه، فإنَّ الأذن الواعية لا تأخذ بكل ما تسمعه؛ ومن هنا يصعب الأمر على المنتهزين انتهازها لما لا يليق بالمبادئ الرّاسخة معياريَّةً، والقيم الصّامدة صوابًا، فالأذن وإن سمعت فإنَّها قادرة على الغربلة والتفحّص والتمييز؛ ولذا فبمعرفة الحقيقة يستوي وعي الأمّي مع وعي من تعلَّم وتثقَّف ودرى؛ ومَن غفل منهم بأيّ علّة فقد استوى في غفلةٍ مع غيره من الغافلين؛ ولذا يعدّ العقلُ دراية حيويّة الاستنارة والوعي.

ولأنَّ الانتهازيَّة وما يترتّب عليها من أعمال وأفعال مؤلمة؛ فينبغي الالتفات إليها بعيون الإصلاح تقييمًا وتقويمًا وعلاجًا وحلًّا، وإلَّا ستكون الكلفة مرتفعة، وجروح الوطن لن تندمل؛ ومن هنا يجب إعادة النَّظر في:

ـ المناهج والمقررات التعليميّة التي بها تُصقل الشّخصيَّة الوطنيَّة وتبنى على المبادئ والقيم الرَّفيعة.

ـ إعادة النّظر في القوانين الضَّابطة للسُّلوك العام لكلٍّ من الفرد والجماعة، والضَّابطة للسُّلوك الخاص بأداء الوظيفة وممارسة المهنة، وحمل المسئوليَّة وما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

---

[114] الحاقّة 12.

ـ إعادة النَّظر في رؤوس المنابر خُطبًا ودروسًا في أثناء خُطب الجمعة وإلقاء الدّروس في المساجد.

ـ إعادة النَّظر في معايير إداء المهنة والوظيفة، وتقويمها بما يُمكّن من صقل الشَّخصيَّة وبنائها وطنيًّا.

ـ إعادة النَّظر في معياريَّة من يتولى مسئوليّة وعلى أيِّ مستوى من المستويات الوظيفيَّة للدّولة.

ـ إعادة النَّظر في قوانين المسائلة والمحاسبة والتقويم الوظيفي والمهني.

ـ إعادة النَّظر في السّياسات الاعلاميَّة لتكون منابرها على الدّراية والاستنارة المرسّخة للمبادئ الوطنيّة، والقيم الأخلاقيَّة، والفضائل الإنسانيَّة.

تحدّي الصّعاب قيدٌ على الانتهازيَّة.

الصِّعاب تستوجب مزيدًا من الجهد لتحدّيها دون أن تكون مستحيلة التحقّق؛ فهي التي تواجه من يعمل ولا تواجه الكسالى، وهي التي لا تصمد أمام المتحدّين لها صبرًا ومزيدًا من الثبات وبذل الجهد الممكّن من إنجاز الأهداف أو تحقيق الأغراض أو بلوغ الغايات ونيل المأمول أو الفوز به، ولا مستحيل في دائرة الممكن حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا وجب العمل على تذليل الصِّعاب كي تتيسّر الأمور ارتقاء؛ فالصِّعاب إن لم تداهم ارتقاء، لابدّ وأن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه ينبغي تحدّي الصِّعاب تهيؤا، واستعدادا، وتأهّبا، وعملا راقيا تنجزه الإرادة والأمل لا يفارق[115].

[115] عقيل حسين عقيل، الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (مجالات مهنة واستنارة عقل)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م، ص 12 – 19

ومع أنَّه لا صعب أمام مزيد من بذل الجهد ارتقاء، فإنَّه لا ارتقاء لخرق المستحيل، فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما بالرّغم من الصِّعاب.

وعليه:

فالقاعدة: (تحدِّي الصِّعاب) أمَّا الاستثناء: (الاستسلام لها).

ولأنَّ الممكن ارتقاء يُمكّن من تحدّي الصِّعاب، فَلِمَ لا يتهيَّأ الإنسان إليها قوّة تدبُّر حتى يقهرها إرادة، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه، ومن يتوقّع أنَّ أداء العمل ميسَّر فلا يستغرب إن واجهته صعاب تحول بينه وبين تنفيذه.

ولذا؛ فالتهيّؤ لتحدي الصِّعاب يُمكّن من أداء العمل ارتقاء؛ فكما تُرسم الخطط لتنفيذ العمل تحدّيًا تُرسم أيضًا لمقاومة المعيقين له انتهازيَّةً؛ ولذلك فالذين يتهيّؤون لارتكاب أعمال التطرُّف بإرادة في معظم الأحيان هم يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أعمال المتطرفين بإرادة هم الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلهم بكلّ قوّة، أمَّا أولئك الموظّفون الذين تُصدر لهم أوامر تنفيذ التطرُّف، أو أوامر مقاومته فلن يكونوا فاعلين، بل ستكون أيدهم على الزّناد مرتعشة، وهنا تكمن العلّة.

ومن تهيّأ واستعد لتحدِّي الصِّعاب وأقدم عليها فليس بالأمر الهين أن يتهيّأ لِما يُغيِّره عن الاستمرار فيها، إلَّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، لا تُصحّح إلَّا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، ومن هنا فكلّما توفَّرت الأفكار والحُجج تجاه القضيَّة الخارجيَّة مثار

الانتباه والاهتمام، كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عمليَّة التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا فالتهيّؤ للقول الصّعب يؤدّي إلى الاستعداد لأنْ يقال بإرادة، وكذلك التهيّؤ للعمل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

ومع أنَّ الممكن ارتقاء لا استحالة فيه، فإنَّه إن لم يعقب التهيؤ استعداد؛ فلا إمكانيَّة؛ إذ لا إرادة؛ ولذلك فإنَّ غياب الإرادة يغيّب كلًّا من التهيّؤ والاستعداد، ومن ثمّ تقوى درجة الاستعداد المترتِّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما وحينها لا إمكانيَّة لتحدّي الصِّعاب؛ أي لا تحدٍّ بلا إرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى وأن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ الارتقاء قمّة.

وعليه:

إذا أردت تحدّى الصِّعاب فعليك:

ـ أنْ لا تحصر التفكير في شؤونك أو شؤون الغير الذي تربطك به علاقة وأهميَّة على المتوقّع فقط، بل تجاوزه إلى ذلك غير المتوقّع حتى وإن كان صعبًا.

ـ تأكّد أنّ الصّعب لا يستطيع المقاومة إذا تحصّنت له متحدّيا.

ـ اصّمد فالصّعب لا يصمد. أي عليك أن تعرف أنَّ ما يبدو صعبًا للبعض لا يبدو كذلك لدى البعض الآخر؛ ولهذا عليك بقبول التحدّي حتى تهزمه كما غيرك هزمه.

ـ الصّعب لا يزيد عن كونه حيويّة؛ فينبغي له أن يواجه بها ولا يواجه بغيرها. أي لا يمكنك أن تهزم خصمًا وأنت لم تمتلك ذات السّلاح الذي يمتلكه تقنية. ولكن عندما تمتلك ذات السّلاح؛ فليس له بدّ إلّا أن يقدّرك صلحًا وتصالحًا وعفوا: {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}[116].

ـ مواجهة الصّعب لم تكن مستحيلة، ولأنَّها ممكنة فَلِمَ لا يواجه إلَّا من البعض؟

أقول:

لأنَّ البعض دائمًا أفضل من البعض، أي دائمًا الواعون والصّابرون والمؤمنون بأنَّ الحقّ يُحقّ يعملون على إحقاقه تحدّيًا وقهرًا للباطل.

ـ الصّعب على علاقة بالباطل من حيث إنَّه لا يصمد إذا ما حدثت معه المواجهة؛ ولهذا الصّعب يقهر والباطل يبطل، ولكن لا يكون ذلك إلَّا على أيدي الصّامدين.

ـ اقبل بدفع الثَّمن جهدًا ووقتًا وإمكانات تنل أضعافها مكاسب وفوائد متى ما استسلم لك الصّعب قهرًا.

ـ تحدَّ الخوف الذي يقنعك كسلًا، فاعمل وابذل المزيد من الجهد تجد نفسك منتجًا، وفي المقابل إن استسلمت له فستجد نفسك متسوّلًا مع المتسوّلين على الأرصفة وبين الأزقة.

ـ أهّب نفسك للعمل تجد العمل بين يديك، وأهّب نفسك للتحدّي تجد نفسك متحدّيًا، وأهّب نفسك لمواجهة الصِّعاب تجد الصِّعاب مستسلمة.

---

[116] الأحزاب 25.

وعليه: فإنَّ التأهّب لتحدّي الصِّعاب يؤجج في النّفس حرارة الاندفاع تجاه الهدف دون خوف مع إصرار على الإنجاز، ومن يتأهّب للشيء عن عزيمة بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع في دائرة الممكن ارتقاءً أن يُنفِّد ما يشاء، وكيفما يشاء، ومتى ما يشاء في مشيئة الله تعالى.

ولأنَّ لكلّ فعل ردّة فعل، إذن فمن يتأهّب لأداء الفعل الصّعب ارتقاءً لابدّ وأن يكون متأهّبًا لما يترتّب عليه من ردّة فعل، وإلَّا سيفاجأ بما هو مؤلم.

وحتى لا تحدث المفاجئات في كلّ مرّة؛ فأخذ الحيطة والحذر عند تحدّي الصِّعاب ضرورة لمن شاء أن يتدبّر أمره بلا عِلل، ولكن هذه ليست الغاية، بل الغاية أن تسود الحياة بين النَّاس بلا انتهازيّة، وبلا مغالبة، ولا هيمنة، ولا حرمان، ولا تمدّد على حساب الآخرين، ولا اتكالية على الغير، حتى تصبح الغاية هي تجاوز الحلّ المتجاوز للإصلاح وإن كان إصلاحًا مسانِدًا؛ ولذلك فالغاية من بعد الحلّ بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ رفعة الشّأن، وعيش النّعيم، وهذه مع أنَّها غايات، فإنَّها ستظل في دائرة الممكن ارتقاءً بين متوقّع وغير متوقّع، والعاملون عليها وحدهم يتهيّؤون لها، ويستعدّون إليها، ويتأهَّبون لتحدّي الأمر الصّعب، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات ومن بعدها نيل المأمول.

ومن هنا تعد الصِّعاب مجموعة من المعيقات التي لا يتمُّ تجاوزها إلَّا بالإزاحة، أي لا إمكانيَّة لإنجاز الأهداف، وتحقيق الأغراض، وبلوغ الغايات، ونيل المأمولات ما لم تزاح العوائق من السّبيل المؤدّي إلى ذلك.

ولأنَّها عوائق فهي قابلة لأن تزاح، ولأنَّها قابلة للإزاحة، فلا داعي للانتظار، ومن يتأخّر عن إزاحتها في شبابه، سيجد

نفسه متأخرًا عمّن أزاحوا مثيلاتها وتقدّموا، والصِّعاب لا تخيف، بل المخيف عدم الإقدام على تحدّيها.

ولذلك فتَوفُر الرّغبة في دائرة الممكن المتوقّع يُسهِّل من عمليات الإنجاز، ويُسرّع من عمليات الإقدام ويحقّق نجاحًا رائعًا، أمَّا في دائرة الممكن غير المتوقّع فقد لا يحقّق ذلك، فعلى سبيل المثال: الشّاب الذي ذهب إلى أحد حكماء الصّين ليتعلّم منه سرّ النّجاح وسأله "هل تستطيع أن تذكر لي ما هو سرّ النّجاح؟ فرد عليه الحكيم الصّيني قائلًا: "سرّ النّجاح هو الدّوافع" فسأله الشّاب ومن أين تأتي هذه الدّوافع؟ فردَّ عليه الحكيم "من رغباتك المشتعلة"، وباستغراب سأله: وكيف تكون عندنا رغبات مشتعلة؟ وهنا استأذن الحكيم الصّيني لعدّة دقائق وعاد ومعه وعاء كبير ملئ بالماء وطلب من الشّاب أن يقترب من وعاء الماء وينظر فيه، فنظر الشّاب إلى الماء عن قرب وفجأة ضغط الحكيم بكلتا يديه على رأس الشّاب ووضعها داخل وعاء الماء ومرّت عدّة ثوانٍ بدأ الشّاب يشعر بالاختناق، وبدأ يقاوم بشدّة حتى نجح في تخليص نفسه وإخراج رأسه من الماء ثم نظر إلى الحكيم وسأله بغضب: ما هذا الذي فعلته؟ فرد عليه: ما الذي تعلّمته من التجربة؟ فقال الشَّاب: لم أتعلم شيئًا.

قال الحكيم: لا يا بني لقد تعلّمت الكثير؛ ففي الثّواني الأولى أردت أن تُخلِّص نفسك من الماء، ولكن دوافعك لم تكن كافية لعمل ذلك، وبعد ذلك كنت راغبًا في تخليص نفسك فبدأت في التحرُّك والمقاومة ولكن ببطء حيث إنَّ دوافعك لم تكن قد وصلت بعد لأعلى درجاتها، وأخيرًا أصبح عندك الرّغبة المشتعلة لتخليص نفسك وعندئذ فقد نجحت؛ ومن هنا وجب غرس الثّقة في أنفسنا ثمّ استمداد القوّة منها إن أردنا

بلوغ المأمول، وإلَّا سنكون ضعفاء ولا شيء لدينا إلَّا الأمنيات التي لا يمكن أن تصنع لنا مستقبلًا.[117].

الدِّرايةُ قيدٌ على الانتهازيَّة:

الدِّراية إلمام رفيع بالمدرى به إنباءً، مع وافر الوعي مقدرة واستطاعة، ولا مضاد لمفهوم الدِّراية إلَّا الأميَّة، التي كانت صفة للنبي محمَّد، قبل أن يتم إنباءه بالمدرى به، والذي من بعده أصبح النبي المدري بعلم السَّماء يقينًا.

والدِّراية لا تكون إلَّا بعلم الغيب من عالم الغيب، وهو العلم الذي لا يُمكن معرفته إلَّا بالنبأ المنزَّل على الرُّسُل الكرام عليهم الصَّلاة والسَّلام.

ولأنَّ علم الغيب بيد عالم الغيب والشَّهادة، فلا إمكانيَّة لمعرفة شيء منه إلَّا وحيًا يُوحى: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}[118]. أي: مع أنَّ الله قد أظهر للنبي محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام ما أظهره عليه من وحي مُنزَّل، فإنَّه لم يظهره على كل الغيب وعلمه؛ ومن هنا فإنَّ علم السَّاعة ما زال علم غيب ولا دراية لنا به مع علمنا وتسليمنا.

إذن: الدِّراية هي العلم بالشّيء يقينًا، وعن وعي واستطاعة، وهي الدَّالة على إحداث النُّقلة من حالة الأميَّة إلى حالة الالمام بالعلم المنزَّل.

والدِّراية لا تكون إلَّا استنارة بعلمٍ كان مجهولًا كما تستنير الظُّلمة بنورٍ يضيء مساحتها وإنْ عظمت.

---

[117] عقيل حسين عقيل، الممكن (متوقّع وغير متوقّع) مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 14.
[118] الأحزاب 63.

ولهذا فإنَّ علم الدِّراية لا أميَّة فيه أبدًا ولا انتهازيَّة؛ ومن ثمَّ فإنَّ مفهوم الأميّة يعطي مفهومًا مضادًّا لمفهوم الدّراية، وفي المقابل يصبح مفهوم العلم مضادًّا لمفهوم الجهل؛ ولهذا مع أنَّه لا وجود لأمَّة أميّة بعد الرِّسالة الخاتمة والرّسول الخاتم، فإنَّ الجهل بين أفراد الأمم قيدٌ على كلِّ بداية ونهاية.

والأمَّة الجاهلة هي الأمَّة التي تعيش التخلُّف ولا تُدرِك الحالة التي هي عليها من تخلّفٍ، ولا تدرك ما يحاك لها من انتهازيَّة ومؤامرات، وهي التي لم تأخذ بأسباب العلوم ولا تسهم في إحداث النُّقلة وبلوغ الأمل ونيله دراية؛ فتلك هي الأمَّة التي تعشعش في عقولها الانتهازيَّة خلافًا وتخلُّفًا.

ومع أنَّ الأميَّة على العقل قيدٌ صلبٌ فإنَّ الدّراية قادرة على كسر قيدها؛ وذلك كما كسرت أميَّة النّبيّ محمَّد -عليه الصَّلاة والسَّلام-الذي كان قبل الوحي أميًّا والذي أصبح من بعده نبيًّا مدريًا.

وإذا أردنا أن نكسر قيد الأميّة معرفةً فعلينا بتحديد المفاهيم ذات العلاقة بها وما تقيّده من مفاهيم متضادّة، والتي منها:

- **الجهل** في مواجهة **العلم** (الجهل قيد دون العلم).
- **الشَّك** في مواجهة **اليقين** (الشَّك قيد دون اليقين).
- **الغفلة** في مواجهة **الصَّحوة** (الغفلة قيد دون الصَّحوة).
- **الوعي** في مواجهة **الغيبوبة** (الغيبوبة قيد دون الوعي).
- **الضلال** في مواجهة **الهداية** (الضلال قيد دون الهداية).

ـ **التيه** في مواجهة **المعرفة** (التيه قيد دون المعرفة)؛ ذلك لأنَّ التائه هو الذي ليس له من الدّليل شيءٌ ليستدل به على الشيء معرفة.

ـ **الدِّرايةُ** في مواجهة **الأميَّة** وهي المام معرفي بلا نواقص، وهي الممكِّنة مِن معرفة العلاقة بين السّماء والأرض، وهذه خاصيّة خص الله بها الرُّسُل والأنبياء الكرام عليهم الصَّلاة والسَّلام وحيًا وإنباءً.

ومع أنَّ الدِّراية خاصيّة خصَّ الله تعالى بها الأنبياء والرّسُل، فإنَّ المؤمنين بمعجزاتهم يدرون بها علمًا ومعرفةً تمكِّنهم مِن التمييز بين العلم الممكن، والعلم المعجز، والعلم المستحيل؛ ومفهوم العلم هنا ليس كما يظن البعض ذلك التعليم الممنهج، بل هو علم الدِّراية يقينًا واستنارةً.

والدِّراية لا تكون استنارةً إلَّا من بعد الإلمام التَّام بما ينبغي الإلمام به، وأنَّ المدرى به سيكون قيدًا على من التزم به أوامر ونواهٍ؛ ولذا فالدّراية رفعة عن كلِّ ما من شأنه أنْ يؤدّي إلى الانحدار والسُّفليَّة؛ وذلك بغاية بلوغ ما يُمكِّن من إحداث النُّقلة وطي صفحات الانتهازيَّة.

وعليه: فإنَّ الحياة الدُّنيا وبما فيها من دراية عقليَّة، فإنَّها إذا ما قورنت بتلك الحياة العليا لا تزيد عن كونها حياة الحاجات المنقوصة، وحياة الفتن والعداوات التي بدأت أوَّل ما بدأت بين الأخوين (ابني آدم)، ثمّ اتّسعت وتكاثرت مع التكاثر فأصبح الصّدام والاقتتال انحدارًا بين بعض النَّاس، وفي المقابل يرتقي بعضهم رفعة؛ فآدم الذي خسر ذلك الموقع الرّفيع، أصبح يأمل العودة إليه دراية؛ ولذلك فقد سعى استغفارًا وتوبة أهَّلته لأن يكون نبيًّا يُنبئ بما عُلّم به من قِبل

خالقه؛ ومن ثمّ فلا مكان له بعد النبأ العظيم إلَّا الجنّة، التي لا تبلغ ارتقاء إلَّا بالعمل الصّالح عقلًا ودراية؛ حيث لا انتهازيَّة.

ولذلك أصبح العمل ارتقاءً أمل المصلحين السّاعين إلى الكسب الحلال بلا حدود؛ ولذا فالسّاعون ارتقاءً مهما بلغوا من المراتب والقمم فهم يأملون مراتب عظيمة من بعدها قمّة أعظم؛ ولهذا وجب اتقان العمل إخلاصًا ودرايةً، حتى الارتقاء بالأرض الدّنيا ورتقها في السّماء جنّة، وفي المقابل من يغفل عن ذلك انتهازيَّةً فلا أمل له أن يكون مع الرّاتقين.

وعليه: وجب العمل الممكِّن دراية من بلوغ الأحسن والأرقى، شريطة ألَّا يكون التحسّن على حساب إشباع حاجات الغير واستغلال جهودهم والمتاجرة بعرقهم انتهازيَّةً، بل ينبغي أن يكون العمل تُرسًا من تروس عجلة الحياة العامّة؛ ذلك لأنَّ الارتقاء الممكّن من العمل المرضي لا يُمكن أن يتحقّق والغير يتألم؛ ولذلك فالعمل وفقًا لأهداف الحياة ينبغي أن يكون من ورائه غرض خاصّ وهو: إحداث النُّقلة عن درايةٍ، وغرض عام يُحفِّز الآخرين ويدفعهم للرّفعة، وإلَّا فألم الغير لن يفسح الطّريق أمام من يسعى إلى الارتقاء غاية وهو لا يدري.

ومن هنا فإنَّ بني آدم في دائرة الممكن هم بين متوقَّع الارتقاء عقلًا ودرايةً، ومتوقَّع الدّونيَّة غفلة وشهوة، ومن جهة أخرى هم يتبدّلون؛ إذ لا ثوابت؛ فمنهم من يبقى على الارتقاء، ومنهم من يتخلّى عنه قيدًا، ومنهم من نراه في دونيَّة، ولكن من بعدها يبلغ القمم ارتقاء؛ ولذلك ينبغي العمل مع بني آدم من حيث هم، من أجل الارتقاء بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه دراية واستنارة.

ومن ثمّ ينبغي على بني آدم عند رسم السّياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضًا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والرّفعة، أي تحقّق لهم المكانة الشّخصيَّة قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميَّة فضيلةً، وتحقّق لهم العيش السَّعيد قيمةً، ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا فلا شيء لهم إلَّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار قيدًا.

إذن: فعلى العقل الآدمي درايةً أنْ يعي بإمكانيَّة بلوغ السّماء ارتقاءً كلّما عمل وفقًا لأهداف تنجز، وأغراض تتحقّق، وغايات يتمّ بلوغها، ومأمولات يتم نيلها، ولكن إن أحسّ العقل وهو منفردٌ بشيءٍ من التّعب، فعليه بوضع اليدين مع الأيدي صعودًا وارتقاء مع أخذ الحيطة والحذر من تلك الأيدي الممتدة إليه انتهازيَّةً.

فالارتقاء عقلًا ودراية مثل المعمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة، وفكرة من بعد فكرة، وهدف فوق هدف، وغرض فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، وأمل من بعده مأمول أعظم)، ولكن في المقابل هناك من يهدم المعمار رأسًا على عقب، وهناك من يهدّه لبنة بعد لبنة، فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيًّا، والهادمين له انحدارًا وانتهازيَّةً؛ ولهذا فالصّراع والصّدام بين أهل العقول والدِّراية وبين أهل الشّهوة والتمدُّد على حساب الغير سيظل قيدًا ساريًا بين حقٍّ وباطلٍ.

ولذا فإنَّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة خيّرة، هو اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين؛ ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدًا عن كلّ ما من شأنه أن

يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي ينبغي عقلًا ودرايةً أن تحدّد الأهداف وفقًا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصامًا، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلًا وارتقاءً.

ومن أجل الارتقاء قمّة ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن، فالاقتتال والفتن قيود وضياع فرصة، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين، ومن ثَمَّ يجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظّروف دراية واستنارة، ومن يضيّعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم، فالنّدم قيد وعندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة فقيد النّدم دراية يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي متى ما غلبت الشَّهوة عقل الإنسان انحدر غفلة ونشطت الانتهازيَّة لتستغلّه في مشيئة الانتهازيين.

ومن هنا وجب التدبُّر دراية بما يبعد بني آدم عن الانتهازيَّة فيبعدهم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين؛ ذلك أنَّ التسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بأهل العقول والدّراية، وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرًا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يُمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي يحفّزهم على تنمية قدراتهم وتوجيهها وفقًا لما يحقّق لهم الارتقاء نهضة ورفعة، فيخلّصهم من التسوّل إرادةً وعملًا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة، فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم

عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة، والمأمولات قمّةً وارتقاءً.

فرجالات الدّولة عقلًا ودراية هم من لا تأخذهم العصبيّة؛ ذلك لأنَّ العصبيّة قيدٌ ومقبرة للذين لا يعلمون، فرجالات الدّولة دراية وارتقاء كلّما حكموا عدلوا، وكلّما قالوا صدقوا، وكلّما عاهدوا أوفوا، وكلّما كَبِروا تواضعوا، أمَّا المدّعون لذلك انتهازيَّةً فهم مع كلّ هبَّة ريح يميلون، وهنا تكمن علّتهم وسُفليَّة الدَّولة ودونيَّتها.

فقيام الدّولة ورفعتها ارتقاء لا يكون إلَّا عن عقلٍ ودرايةٍ؛ ولهذا ينبغي أن يتم استهداف رجالات بعينهم لإدارتها وفقًا لما هم عليه من مكانة ودراية وخبرة وتجربة، ومع ذلك ينبغي أن يتم إخضاعهم للتقييم قبل أن يتمّ اختيارهم إلى مناصب إداراتها، وكذلك فهم بعد الاختيار يقوّمون كلّما حادوا عن الدّراية قيمًا وخُلقًا؛ وذلك أوَّلًا: بهدف إعادتهم إليها ارتقاءً، وثانيًا: محاسبة من انحرف منهم عن قيم حَمْل المسئوليَّة التي تم اختيارهم إليها إرادة.

ومن ثمّ فمن يرى نفسه رجل دولة فعليه باختبار نفسه وتقويمها قبل أن يُختبر ويقوّم من قِبل الغير.

فبنو آدم سواء أكانوا رجالات دولة، أم مواطنين كرام يدركون أنَّ السّبيل إلى النّجاح هو الارتقاء عن كلّ شيء يؤلم، أو يؤزّم العلاقات، أو يؤدّي إلى تفكّك اللحمة الاجتماعيَّة، أو الوطنيَّة، أو الإنسانيَّة، أو يمسّ معتقدًا دينيًّا، ومع ذلك فهناك من يجهل ويغفل، فيقع في فخّ مصيدة الغاوين والمزيّنين والمضللين، التي تزداد ضيقًا على رقاب من يقع في فخّها كلّما حاول أن يرى نفسه غير مختنقٍ.

ومع أنَّ للألم أوجاعًا، وللتأزّم أوجاعًا، فإنَّ أكثر الأوجاع بين بني آدم ما يتركه الغدر والخيانة من ألم، فآلام الغدر والخيانة لا تموت، حتّى وإن سامحك من أجرمت في حقّه؛ ولذلك وجب الدِّراية وأخذ الحيطة والحذر، حتى لا يحدث الوقوع في فخّ الانتهازيين مرّتين.

أمَّا الحقد بين بني آدم فهو مثل حطب نار جهنّم يحترق قبل أن يحرق غيره، أي إنَّ نار الحقد تحرق أوَّل ما تحرق حطبها (الحاقدين)؛ ولذلك فالحقد يُلهي الحاقد من بني آدم في نفسه، والحاقد في حقيقة أمره في حاجة لمن يطفئ عنه النَّار التي بها نفسه تحترق، ومن ثمّ فمن يعتقد أنَّه إذا تمكّن من عضّ يد أحد وعضّها، فلا شكّ أنَّ عضَّ اليد يفكر الآخر في أنيابه إن لم تكن له مخالب.

ولذا فإنَّ حُرقة الانتهازيَّة والجهل والظّلم والعدوان والكيد والمكر والحسد عندما تشتعل نيران غضبها بين بني آدم فلا سبيل لهم إلَّا الرّكون للتخلّف قيدًا، وفي المقابل الشّعوب دراية ترتقي علمًا ومعرفةً وتسامحًا وخبرةً وتجربةً، فتغزوا الأرض سلامًا، والسّماء بحثًا وارتقاءً.

وعليه: فبنو آدم بلا عقل ولا دراية وبلا أمل لا يعدّون إلَّا أمواتًا وهم على قيد الحياة، والذين يأملون الارتقاء ولا يعملون من أجله فسيبقون على أملهم وكأنَّهم بلا أمل، أمَّا البعض الذي يأمل ويعمل ويفعل فلا شكّ أنَّه سيُسهم في إحداث النُّقلة دراية وارتقاء، وفي المقابل هناك من يهدم وهو لا يعتقد أنَّ الهدم سيقع على رأسه وكأنَّه بلا رأس.

وهكذا بلا عقول ولا دراية هناك من يصدّق كلّ ما يقال انتهازيَّةً، ثمّ يحمّسه بين بني آدم مثلما يحمّس القمح في الحمّاس؛ ولذلك لا ينبغي أن يكون بنو آدم سماعيّين فيصدّقون

كلّ ما يقال، بل عليهم بالتذكّر اتعاظًا، وعليهم بالتدبّر تحليلًا وتفسيرًا وتخطيطًا وسلوكًا وعملًا، وعليهم بالتّفكّر دراية من أجل ما يجب حتى يتمكّنوا من الارتقاء من خلال ما يمارسونه من حقوق عن رغبة، وما يؤدونه من واجبات عن إرادة، وما يحملونه من مسئوليَّات وهم متحمّلون كلّ ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه:

فبنو آدم وهم تحت قيد العقل والدِّراية لا انتهازيَّة؛ فيصلحون أحوالهم ويعفون ويصفحون من أجل بلوغ ما يأملون رفعة وقمّة، ومع ذلك فهم في حاجة للمزيد المعرفي الممكِّن من زيادة الارتقاء قمّة، وخير وسيلة لذلك المزيد من البحث العلمي والمعرفي في الكون المتسارع اتساعًا وتمدّدًا.

والارتقاء بالنّسبة إلى بني آدم هو: أملٌ قابلٌ لأن يتحقّق ويتمّ بلوغه، ولكنّ مفهوم الارتقاء غاية لا يتّضح إلّا بمقارنة بين العُليا والدُّنيا؛ فالعُليا هي السّماء وما فيها من نعيم الجنّة وبقاء الحياة، أمَّا الدُّنيا فهي الأرض وما عليها من مخلوقات وزوال الحياة؛ ولذا فبين هذا وذاك وجد الإنسان نفسه بين التّخيير تارة، والتّسيير تارة أخرى؛ فالتّخيير (تؤمن أو لا تؤمن، تعمل صالحًا أو تعمل طالحًا، تَصدُق أو تكذب أو تنافق أو تدّعي ما تشاء....)، أمَّا التّسيير فلا خيار لأحدٍ فيه (حياة أو موت، شروق أو غروب، برق ومطر ورعد وصواعق وزلازل وبراكين وتمدّد كوني متسارع، ومفاجآت عظيمة....).

ولهذا فالارتقاء قمّة يمكّن بني آدم عقلًا ودراية من العيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة) ويمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العليا (الباقية)، فبنو آدم عقلًا ودرايةً لا يقصرون أملهم

على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يقيّدون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة؛ ومن هنا فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاء بلا انتهازيَّة[119].

الإرادةُ قيدٌ على الانتهازيَّة:

الإرادة حيويَّة إثبات الوجود الإنساني فمن امتلكها كان حرًّا، ومن لم يمتلكها فهو في عوزٍ لما يتمّم وجوده الإنساني والأخلاقي، والإرادة لا تكون إلَّا بيد من يمتلكها قرارًا وتنفيذًا، وهي التي بها تمارس الحقوق، وتؤدّى الواجبات، وتحمل المسئوليَّات وعيًا ورغبة.

ولأنَّ كلمة الإرادة جاءت من الفعل: (أراد - يريد _ إرادةً) فأنَّ الذي (أراد) أنْ يكون حرًّا ليس له إلَّا أن يمتلك إرادته ويحافظ عليها، أمَّا الذي (يريد) إرادته ليس له إلَّا المطالبة بها، حتى يتمكّن منها حصولًا، أمَّا مفهوم (الإرادة) فيعني امتلاك زمام الأمر سواء أكان الأمر بيد صاحبه أم بيد غيره؛ ولكن عندما يكون أمر الإرادة بيد صاحبها فصاحبها يوصف حرًّا، وعندما يصبح أمرها بيد الغير يكون أمر صاحبها بلا إرادة منتهزًا.

ولهذا فالإرادةُ قرارٌ اختياري يؤخذ بوافر الرَّغبة تجاه كلِّ ما من شأنه أن يحقّق الرّضا في حدود الوعي بما يجب وبما لا يجب، مع تحمُّل ما يترتّب عليه من أعباء ومسؤوليَّات، وهي وثيقة الصّلة بالوعي بعزيمة تحقّقها وتخرجها من المعنوي إلى المحسوس، الذي يُظهر العلاقة القويَّة عن ثقة

[119] عقيل حسين عقيل، الدِّراية من الأمر إلى الطاعة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م، ص 6 – 15.

مع الموضوع الذي به ظهرت إلى حيّز الوجود المشاهد والملاحظ.

ومع أنَّ الإرادة شيء معنوي، وأمرها يتعلّق بالحريَّة، فأنَّها عندما تتجسّد في الفعل والعمل والسُّلوك الممارس لها تتعرَّض للتقويض المؤلم من قِبَلِ المتحكِّمين في الأمر والمنتهزين له.

ولذا فالإرادة ملكيّة خاصّة، لا يتصرّف في شؤونها إلَّا من يمتلكها قرارًا وتنفيذًا؛ إذ لا إجبار ولا إكراه في إدارتها وإظهارها وتتويجها في ميادين الفعل، وهي لا تدار إلَّا عن رغبةٍ، مع العلم أنَّ إدارتها بكلّ حريَّة ترتِّبُ على من يمتلك شؤونها تَحمُّل ما يترتّب عليها من ردّة فعلٍ وأعباءٍ جسامٍ.

ومن ثمَّ فمن يمتلك الإرادة يستطيع أن يقرّر إيجابًا أو سلبًا، ومن لا يمتلكها يعدُّ مملوكًا لغيره (المتحكم في شؤونه)؛ ولهذا لا إمكانيَّة لممارسة الحريَّة بأسلوب ديمقراطي إلَّا عن إرادة، ولا يمكن أن يكون الإنسان متطرِّفًا إلَّا بعلل التحكم في الإرادة، أي كلَّما اشتدّت آلام التحكُّم في إرادة الإنسان اندفع تجاه الرَّفض، والتمرّد، والثَّورة، وقبول الموت من أجل الحريَّة.

والإرادة في دائرة الممكن قد تكون مسئولة وقد لا تكون؛ فعندما تكون مسئولة تحقِّق للفاعل وللموضوع الاعتبار، والاعتراف، والتقدير، وتزيده ثقة، وعندما لا تكون مسئولة لا تحقّق لصاحبها الاعتبار ولا الاعتراف ولا التقدير، بل قد تضعه في السّجن أسيرًا بين الجدران، ومع ذلك لكلٍّ مبرّره، والمهم في هذا الأمر بما أنَّها الإرادة؛ فهي الدّالة على معرفة الحقيقة ولو تمَّ إنكارها اضطرارًا.

وعليه: ينتفي الإرغام والإكراه وكلّ أساليب الإجبار المهينة إذا وعى الإنسان إرادة بما يعمل أو يفعل، أو حتى فيما يفكّر ولِم يتهيَّأ؛ ولمن يستعدّ؟ ومتى يتأهّب؟ وبماذا؟

فالإرادة هيّ قيمة تحقيق المكانة التي يسعى النَّاس إليها، ممّا يجعل المستهينين بالآخرين مستهانًا بهم سواءً أكانوا على دراية بذلك أم لم يكونوا، ومن يجعل للآخرين مكانة يجد له عندهم مكانات، ومن يعتبر ويتّعظّ لن تكون له حاشية إلَّا من المتّعظين، وفي المقابل لا يكون لغيره من بطانة إلَّا المنتهزين، ومع ذلك في دائرة الممكن كلّ شيء متوقّع فلا داعي للغفلة، ولا داعي لاستغفال الآخرين وانتهازهم واستغلالهم، ولا داعي لسلب إراداتهم إن أردنا حياة بلا تطرُّف.

ولأنَّ الإرادة حقّ؛ فينبغي لها أن تمارس بحرّيَّة في دائرة ترسيخ الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، ولأنَّها حقّ ينبغي لنا الاعتراف بممارستها؛ ولهذا يسعى الإنسان دائمًا لنيل الاعتراف؛ لأجل تبوء مكانة اجتماعيَّة، أو علميَّة وإنسانيَّة.

ومن هنا ينبغي لنا أن نميّز بين الإرادة الفرديَّة والإرادة العامّة؛ فالإرادة الفرديَّة هي في حدود الخصوصيَّة التي تتساوى فيها مع خصوصيَّات الآخرين دون اختلاف، وإن كان هناك تنوّع وتعدّد.

أمَّا الإرادة العامَّة؛ فهي التي يتمُّ توصيفها بصلاحيَّات واختصاصات تشريعيَّة وقانونيَّة، وهي القابلة للتقييم والتقويم وفقًا لمعايير موضوعيَّة متّفق عليها بمقاييس الجودة؛ ذلك لأنَّ الإرادة قرار يحمل مسئوليَّة، والمسئوليَّة لا تكون إلَّا بوعي تام بما سيتحمَّله الإنسان مع وافر الرّضا بما سيترتّب عليه.

ولأنَّ الإرادة نتاج قرار قابل للتنفيذ؛ فهي بعد التنفيذ تُمكِّن من تحمُّل أعباء المسئوليَّة دون تردّد، أمَّا الإقدام على الفعل من دون توافر الإرادة فقد لا يحقِّق للفعل إنجازًا موجبًا، أو لم يُنجز أصلًا بأسباب الإجبار والإكراه، أو بأسباب الخوف والتردّد.

ومن ثم فأنَّ الإرادة المسئولة هي الإرادة الواعية التي لا يتخلّى فيها الإنسان عن تحمُّل ما يترتّب من أعباء جسام، ومن هنا فلا يترتّب ندم في نفس من أقدم على أدائها؛ ولهذا يكون لكلِّ شيء قاعدة إصلاحيَّة واستثناء إفسادي، فمن يقرّر أن يواجهك عن إرادة فعليك ألا تستهين بالأمر، وعليك أن تعرف أنَّ الإرادة كفيلة بأن تُنجز في دائرة الممكن غير المتوقَّع ما لم يكن في دائرة الممكن متوقعًا[120].

فالإرادة قرار يحمل مسئوليَّة، والمسئوليَّة لا تكون إلَّا بوعي تام بما سيتحمَّله الإنسان مع وافر الرّضا بما سيترتّب على ما أقدم عليه من أخذ ببديل على حِساب بديل آخر، سواءً أكان ذلك المترتّب سالبًا أم موجبًا.

ويتصوَّر كثير من النَّاس أنَّ الإرادة هي حُسن الاختيار، لكن لو كان الأمر كذلك لكان المسميان لمعنى واحد، والدّليل على ذلك أنَّ الإرادة عندما تكون أمام أمرين فأنَّها تختار أحدهما أو تستبدله دون الآخر، وكذلك فأنَّ الإرادة عندما تتخذ قرارها يكون هذا القرار في اللحظة نفسها تجاه هذا الأمر، أمّا الاختيار فيكون من أمور متعدِّدة يقع الاختيار على واحد منها يتمّ دفعه للإرادة التي تتّخذ قرارها فيه.

والاستبدال إمَّا أن يكون بين أمرين، أو بين اختيارين وفقًا لِما تمليه القيم، أو ما تمليه المصلحة، أو حتّى ما تمليه

[120] عقيل حسين عقيل، الإرهاب بين قادحيه ومادحيه، ص 39 - 43.

الأطماع، وإمّا أن يكون الاستبدال الإرادي من متعدّد البدائل؛ فالإنسان بإرادته الحرّة يستطيع أن يختار أو يستبدل ما يشاء وفقًا لتفضيلاته، أو وفقًا لِما هو أقلّ ضررًا، أو لِما هو أكثر ضررًا من غيره؛ فأصحاب الشرّ لا يفضِّلون غيره بإرادة، وأصحاب الخير لا يفضّلون غيره، وهكذا كلّ شيء بإرادة، ومن بين هذا وذاك في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، يستطيع الإنسان أن يُرتِّبَ بدائله، وفقًا للمتاح مع مراعاته الظّرف الزّماني والمكاني، ولكلِّ خصوصيّة لا تتطابق مع خصوصيَّات الآخرين وإن تماثلت معها.

ولأنَّ العلاقة قويّة بين الإرادة والاختيار والرَّغبة في الاستبدال، ودرجة التفضيل بين ما هو قابل للاختيار منه، أو قابل لاستبداله بالكامل، فأنَّ التقييم للاستبدالات أو الاختيارات والتفضيلات يُسهم في تهذيب الإرادة وتطويرها وتغييرها من أجل استبدال ما هو أفضل أو أنفع، وهكذا تتحسّن الأحوال وتقوَّم من قِبل الواعين بما يجب وبما لا يجب؛ لتكون السُّبل ممهّدة تجاه غايات مستنيرة بالحقّ، وموجبًات إحقاقه.

فالاستبدال الإرادي هو في واقع الأمر تقديري، بمعنى أنَّه يقوم على تقدير الأنا للقيمة المفترضة، ثمَّ تقييم تلك القيمة وصولًا إلى قرار الضّرورة الإراديَّة للاستبدال؛ فالتعويض مثلًا: هو استبدال إرادي لفاقد يجب تعويضه؛ لضرورة أو لرغبة أو حاجة[121].

والإرادة التي لا اختيار إلَّا بها، ولا تقليد إلَّا بها متى ما كانت واعية بما يراد، كان الاختيار صائبًا، ومتى كانت غير واعية بما يُراد فلا تكون إلَّا خاطئة، ومن هنا يقع البعض في

[121] عقيل حسين عقيل، خريف السلطان (الرحيل المتوقّع وغير المتوقّع)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م، ص 117.

أعمال التطرُّف وهو لا يدري حقيقة أمره في هذا الشأن المضاد للقيم والقوانين.

والإرادة قوَّة اتخاذ القرار بلا مؤثرات خارجيَّة كابحة، فبها تحدّد الأهداف وتنجز، وبها تحدد الآمال وتنال، وهي التي تعطي للتخيير معنى ودلالة، ومن ثمَّ إن كان الاختيار موجبًا كان توظيف الإرادة موجبًا بناء وإعمارًا، وإن كان الاختيار سالبًا كان التوظيف هدّامًا ما يجعل السُّلوك بين انحرافٍ وعنفٍ وتطرُّفٍ.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على التّسيير فيما لا طاقة له به، فأنَّه كذلك خُلق على التخيير فيما لا تسيير فيه؛ فهو بالنّسبة إلى المستحيل والمعجز مسيّر، أمَّا بالنّسبة إلى دائرة الممكن؛ فهو مخيّر بين متوقَّع وغير متوقَّع وفقًا للإرادة والمقدرة، ومن ثمَّ له الحقّ أن يختار ما يشاء وفقًا للقيم والأعراف والقوانين المنظمة للسُّلوك والضَّابطة له، أمَّا في غير ذلك فليس له حقٌّ، ومع ذلك قد يمتدّ البعض على حساب حريَّة البعض، ومن هنا يحدث التَّماس والصِّدام والخصام، بل وتحدث المواجهة وارتكاب أفعال التطرُّف وأعماله.

فالإنسان خُلق على الفطرة والتقليد، وهو في أحسن تقويم، ثمّ جاء الإنباء ميسّرًا لما تعسّر أمامه؛ ذلك لأنَّه المخلوق الذي لا إرادة له في خلقه، ولا تخيير له في ثنائية وجوده، بل التخيير كان بأسباب الاختلاف الذي خُلق عليه جنسًا ونوعًا؛ ولهذا الإنس غير الملائكة والجنّ، وكذلك الذّكر غير الأنثى، والرّجل غير بقية الرّجال، والأنثى غير بقية الإناث، وهكذا كان الاختلاف بين الأجناس والأنواع، ولكلّ بصمته التي تعطيه خصوصية تجعله مختلفًا عن خصوصيَّات الغير، وهكذا تكون الإرادة، فهي مع أنَّها من حيث المعنى واحدة،

فأنَّها من حيث الممارسة بين تيسير وتعسير، ولكلّ حسب ظروفه الشّخصيَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة والذَّوقيَّة[122].

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن خُلق مخيَّرًا؛ فهو يفكّر فيما يشاء كيفما يشاء ومتى يشاء، وهو يقبل ويرفض، ويخطئ ويصيب، وبإمكانه أن يتطوّر ارتقاء، أو أن يتخلّف وينحدر دونيَّة، ولأنَّه مخيّر إرادة؛ فله من المشيئة في دائرة الممكن ما له؛ فهو يؤمن ويكفر ويشرك كما يشاء؛ ذلك لأنَّ كلّ شيء في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ هو بين يديه إرادة، ولأنَّه بين يديه إرادة فهو المخير بين اتباع سُبل الرّشاد مهتديًا، أو سُبل الضلال متطرّفًا: {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}[123]، وقال تعالى: {أَنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[124].

العقدُ الاجتماعي قيدٌ على الانتهازيَّة:

مع أنَّ العقد الاجتماعي يرسي مبادئ وقيم أخلاقيّة ويرسّخها بين المواطنين حتى تصبح ملزمة للجميع دون استثناء وأنَّ المتوقَّع في دائرة الممكن يثبت أنَّه لا إمكانيَّة لتجاوزها أو الاعتداء عليها؛ فإنَّ غير المتوقّع في دائرة الممكن ذاتها لا يستغرب إن يتمّ تجاوزها وعدم العمل بها، ولنا في محطّات التَّاريخ شواهد وأدلة؛ ومثال على ذلك: ما فعله المنقلبون على ذلك النّظام الملكي في ليبيا وهم الذين جمّدوا ذلك الدّستور الوطني الذي سُنّ وأقرَّ وعمل به حتى سبتمبر 1969م؛ إذ كان ذلك اليوم هو يوم حفر قبره ودفنه.

---

[122] عقيل حسين عقيل، الإرادةُ تُمكِّن مِنْ نيلِ المأمول، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م، 6 – 11.

[123] البلد 8 _ 10.

[124] الإنسان 3.

وزد على ذلك ما فعله معمّر القذافي في 15 من شهر إبريل عام 1973م في خطابة بمدينة زوارة الذي جمّد فيه كلّ القوانين المعمول بها في الدّولة الليبيَّة، والتي من بعدها أصبحت التوجيهات أوامر تنفّد فورًا لمن تصدر له بلا غربلة، ولا اعتراض، ولا مراجعة، ولا تأخير؛ ولهذا سادت كلمة (فورًا) في دواليب الدَّولة الليبيَّة أخذًا بالاستعجال والشَّفاهيَّة بعد التحرّر من القوانين المكتوبة[125].

ولأنَّ دائرة الممكن تحتوي على (المتوقَّع وغير المتوقَّع)؛ إذن كلّ ما هو دون المعجز والمستحيل ممكنًا، ولأنَّ معظم النَّاس يعملون وفقًا لما يتوقّعون؛ فهم دائمًا يفاجئون بما لم يكن بالنّسبة إليهم متوقّعًا؛ ولذا مع أنَّ معظم النَّاس يتوقّعون انتهازيّةً فإنَّهم مهما احتاطوا وفقًا للمتوقّع سيجدون أنفسهم كحبَّات القمح بين فكّي طواحينها؛ ومن هنا وجب على أهل السّياسة والفكر أن لا يقصروا تفكيرهم على المتوقّع فقط، بل ينبغي أن تمتدّ خططهم مع تفكيرهم إلى غير المتوقّع الذي به تُكسر ألاعيب الانتهازيين.

وعليه: فإنَّ العقد الاجتماعي لا يكون إلَّا عن تفاهم بين النَّاس (أهل الوطن) الذين لا استقرار لسيادتهم إلَّا به؛ كونه المقرّ والموثّق عن إرادة وطنيَّة، ويحتوي على كلِّ ما يجنّب من المخيفات، ويحقّق الاستقرار، ويصون السِّيادة والهويّة، ويحفّز على النَّهوض دون أن يحدث أيّ تماس بين النَّاس، وفي حالة حدوثه تصبح العودة إليه كلمة الفصل.

ومن هنا يعد العقد الاجتماعي وثيقة استقرار الوطن ونهضته، وهو الوثيقة الحاسمة للخلافات متى ما حدثت، وهو

[125] عقيل حسين عقيل، الشَّخصيَّة الوطنيَّة الليبيَّة (سيادةً وهويَّةً)، دار النخلة للنشر، طرابلس: 2023م، ص 136.

الملزم للجميع بالتوقّف عند حدود الاختلاف؛ ولذا فإنَّ الخلاف بين الأفراد، والجماعات، والمجتمعات يولّد خوف البعض من البعض، ويحفّزهم على صوغ عقد اجتماعي، يضمن لكلّ أحد حريَّة يمارسها، ويقف عندها، دون أن يستغول أحد على آخر، أو يمتدّ ويسود على حسابه انتهازيَّةً.

ولأنَّ لكلّ فرد خصوصيَّة، إذن لا بدّ أن يكون لكلّ جماعة خصوصيَّة، ولكلّ شعب خصوصيَّة، ولأنَّها الخصوصيَّة فهي المولود الأوَّل للاختلاف الذي تميّز به النَّاس، والذي لولاه ما تعرَّف البعض على البعض: {يَا أَيُّهَا النَّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[126].

ولأنَّهم مختلفون، تفرَّقوا بين شعوبٍ وقبائلَ، ولكلٍّ منهم خصوصيَّة تميّزه بما يختلف به عن خصوصيَّات الآخرين؛ ممّا يستوجب إبرام عقد اجتماعي ينظّم علاقات المختلفين على مستوى كلّ خصوصيَّة، سواء أكان ذلك العقد مكتوبًا، أم متّفقًا عليه اتفاقًا عُرفيًّا: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ}[127].

ولأنَّ العقد الاجتماعي هو عقد إرادي يستمدّ قوّته من شرائع الشُّعوب وأعرافها؛ فهو لن يكون مخالفًا مع أيَّة خصوصيَّة؛ ولهذا لا يكون إلَّا عن تراضٍ، واتفاق، ووفاق، وتفاهم، وتفهّم، ويستوعب الجميع، دون أن يستثني أحدًا منهم.

ولأنَّ العقد الاجتماعي يتعلّق بالإرادة، وممارسة الحريَّة، والحفاظ على كرامة الإنسان، وتنظيم العلاقات الإنسانيَّة؛ فهو عقد سيادي، لا يصاغ إلَّا بلغة الجميع، ومنطق الجميع، وحُجَّة

---

[126] الحجرات: 13.

[127] المائدة: 48.

الذين لن يتنازلوا عن أمرهم وسيادتهم؛ ذلك لأنَّ أمر الجميع لا يتعلّق إلَّا بهم جميعًا، ومن يدّعي أنَّه ينوب عن الجميع، وأنَّه يستطيع أن يحمل حِملهم كلّه فهو في حقيقة أمره لا يزيد عن كونه انتهازيًّا راغبًا في تزوير الحقائق، أو على الأقل الحياد عنها. وفي هذا الأمر يقول المفكّر الاجتماعي جان جاك روسو: "الاهتداء إلى شكل شركة تدافع عن الشركاء، وتحمي بما لها من القوَّة الجماعيَّة كلّ شخص مشترك وأمواله، شركة ينضم فيها كلّ مشترك إلى شركائه، ويتّحد معهم، ولكنَّه مع ذلك لا يطيع إلَّا نفسه، ويظل متمتّعًا بالحريَّة نفسها التي كانت له"[128].

لقد شبه جان جاك روسو التعاقد بين النَّاس بالشّركة التي تؤسّس من أجل تقديم الرّعاية، والخدمة لأعضائها، أو تقديمها لمنتسبيها، ولأنَّهم يمتلكونها فبالضرورة سيدافعون عنها، ومن يمسسها بسوء يعد معتدٍ على الحقوق الواجب الدّفاع عنها، ومن هنا فالسِّيادة تترسّخ.

إذن: فالعقد الاجتماعي المرسّخ للسّيادة لا يكون إلَّا عن اتفاق واختيار إرادي، يتمّ بين المتعاقدين: (المتوافقين) على تأسيس مبادئ مشتركة، تستوجب من الشركاء الاحترام، والتقدير، كما تستوجب منهم الاتباع، والتقيد بمواثيقها، وطاعتها؛ كونها الضّامن لممارسة الحريَّة الفرديَّة وفقًا لنصوص التعاقد.

والعقد الاجتماعي الذي يتحدث عنه جان جاك روسو، هو عقد تصوّري؛ لتنظيم الحياة الاجتماعيَّة، والسِّياسيَّة،

---

[128] جان جاك روسو، العقد الاجتماعي أو مبادي القانون السياسي، "ترجمة بولس غانم"، بيروت، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، 1972، ص 25.

والاقتصاديَّة بين المواطنين داخل حدود الدَّولة، وتنظيم حياة النَّاس في كلِّ دولة.

ويهدف العقد الاجتماعي إلى جعل الفرد الواحد وكأنَّه بائع ومشترٍ، ومتابع ومراقب؛ ذلك لأجل أن تكون له حقوق تستوجب المطالبة إذا ما تعرضت للاختراق، أو تعرّضت لاعتداء من الانتهازيين، وتكون له واجبات يؤدّيها، ابتداء من الدّفاع عن حقوقه، ونهاية بأداء ما تقرّه نصوص العقد الاجتماعي، وله مسؤوليَّات لا بدَّ من تحمّلها، بوصفه شريكًا أساسيًّا في الشّركة، أو في الدَّولة التي تجعل له سيادة وطنيَّة.

ولهذا يرسخ العقد الاجتماعي عرفًا وطنيًّا بين النَّاس، لا ينبغي الإخلال به، وهو: أنَّ القبيلة ملك لكلّ أفراد القبيلة، وأنَّ المدينة ملك لسكّانها، وأنَّ الدَّولة ملك لمواطنيها، وأنَّ العالم ملكًا لشعوبه، والفرق بين هذه التنظيمات، هو: قوّة أو ضعف الرّوابط الشَّعبيَّة، التي تتكوَّن بين المعنيين بها، ودرجة الشفافيَّة التي تفسح لهم بالحركة، والامتداد في مجالات التفاعل الاجتماعي الذي يرسّخ السِّيادة ويصون الكرامة.

ولهذا تعود قوّة العلائق بين أفراد القبيلة إلى قوّة العرف الذي ينظم حياة أفرادها، وكذلك قوَّة العلائق بين سكّان المدينة ترجع إلى قوَّة القانون، الذي وُضع لتنظيم علائق شعبها، وقوَّة علائق المواطنة تعود إلى قوَّة الدّستور الذي يسنّه الشَّعب، وقوَّة العلائق بين تنظيمات وشعوب العالم تعود إلى ما تحقّقه القوانين الدوليَّة من منافع للدّول، والجماعات، والأفراد على السّواء، ومع ذلك فإنَّ للأديان قوَّتها وأثرها على صوغ العقود الاجتماعيَّة المرسّخة للسّيادة، وفي الوقت ذاته وحدها تكون قادرة على استردادها إذا ما تعرضت للانكسار.

ومع أنَّ للأديان قوّتها حُجَّةً وأثرًا؛ فإنَّ قوَّة الانتهازيَّة قادرة على استخدام الدّين والحياد به عن الجادة وتوظيفه لخدمة المآرب؛ إذ بعض مدعي التديّن لا يرون الدّين إلَّا عمامة توضع فوق الرّأس وفقًا للمصلحة، وهذه عين الانتهازيَّة.

ومع ذلك في هذا العصر هناك محاولات باسم العولمة؛ لإيجاد صياغة جديدة لعقد اجتماعي، بين شعوب العالم، يسمح بهامش الحركة والامتداد للأفراد، والجماعات، والشُّعوب، داخل الحدود وخارجها، حركة تتطلّب إيجاد وسيلة فعّالة في التنفيذ، تكون نواتها المنظمات الدّوليَّة الحاليَّة مع إضافة منظّمات قانونيَّة جديدة ذات صلاحيَّات وسلطة نافذة؛ ذلك لأنَّ التنظيمات الدوليَّة القائمة حاليًّا يغلب عليها الجانب الحقوقي للإنسان، أمَّا التنظيمات الواجبة الإنشاء فتتعلّق بما يدعم مجالات الحريَّة، في أداء الواجبات، وحمْل المسئوليَّات، أي: لن يعد أمر الحرّيَّات مقصورًا على ممارسة الحقوق، بل سيتعدّاها إلى أداء الواجبات، وحمْل المسئوليَّات.

وعليه: فبأسباب الاختلاف والخلاف كانت الضّرورة حتميَّة لصوغ عقود اجتماعيَّة، قابلة للتطوير مع تطوَّر الحاجات، وتنوَّع مشبعاتها، ومع تطوَّر الحريَّات، ووسائل ممارستها، ومع أنَّها عقود اجتماعيَّة واجبة الاتباع، فإنَّها لم تكن مطلقة الأحكام؛ كونها لم تكن من عند الله دينًا منزّلًا.

ولذا فإنْ أريد للعقد الاجتماعي نجاح فلا بدّ أنْ يستمدّ تشريعاته من المصادر المرغوبة لدى الشُّعوب، التي تحوي كمًّا هائلًا من الفضائل الخيّرة المستمدّة من الأديان، ومن القيم الحميدة المستمدّة من الأعراف والتقاليد؛ فالاحتكام بتلك الفضائل والقيم يمكّن من نيل الاعتراف والاعتبار والاحترام،

كما أنَّه يُمكّن من غرس الثِّقة بين المختلفين المتعاقدين ويحمي سيادتهم من الضياع، وإذا ما ضاعت السِّيادة بأيَّة علَّة فنصوصه الموثّقة تشرّع لأبناء الوطن وجوب استردادها.

ولأنَّ العقد الاجتماعي مؤسّس على الإرادة فهو المقوّي لها، والمحفّز على تعميمها دون تخصيص، قال روسو: "يجب أن يُفهم أنَّ ما يُعمّم الإرادة ليس عدد الأصوات، بل المصلحة المشتركة التي تؤلّف بين الناخبين"[129].

ولأنَّ العقد الاجتماعي بين المتعاقدين يهدف إلى تحقيق العدالة، وممارسة الحريَّة، واحترام كرامة الإنسان؛ فهو الضّامن لسيادة النَّاس الذين لا سيد عليهم، ولا قمَّة فوقهم إلَّا عن اختيار وإرادة حرَّة، وبكلِّ شفافيَّة، وفي هذا الأمر يقول روسو: "من السَّخافة، والتضادّ، والتناقض أن تُقيم هيئة السِّيادة رئيسًا عليها، وإن حصل ذلك؛ فهو عقد غير شرعي"[130].

السِّيادة بطبيعة الحال لا تتطلّب من يُنصّب عليها، ومن يقبل بذلك من الشُّعوب والمجتمعات لا يمكن أن تكون لهم السِّيادة، وعندما تكون السِّيادة للعقد الذي يرتضيه الجميع فلا ينبغي القبول بما يخالف ذلك.

وفي القديم كانت التنظيمات الاجتماعيَّة تؤسَّس على إرادة الفرد وفقًا للعرف السَّائد، حتى العلائق الدِّينيَّة في العصور الوثنيَّة كانت فرديَّة إلى درجة أنَّه كان لكلِّ فرد إلهه الخاص به، ثم أصبح بعد ذلك لكلّ جماعة إلهها الخاصّ بها، وهكذا لكلِّ عشيرة، وقبيلة، ولكل قرية، أو مدينة، وبأسباب الاختلاف والخلاف، وتفاديًا للصّدام، جعلوا السِّيادة للآلهة، وأنَّ لكلّ إله

---

129 المصدر السابق، جان جاك روسو، العقد الاجتماعي ص 48.

130 المصدر السابق، ص 132.

السِّيادة الكاملة على أتباعه الذين اختاروه، ولا سيادة له على من لم يختاروه عن إرادة.

وجاءت الديانات الإبراهيميَّة: (ديانات التوحيد)، بخاتمتها رسالة مُحمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، التي لا تؤمن إلَّا بإله واحد لا شريك له؛ يخلق ولا يُخلق: {أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}[131]، رسالات رسَّخت حريَّة الإنسان، وأكّدت على كرامته، وأمرت بعدم الإكراه حتى في الدّين، كما أنَّها أمرت بالمشاورة، والعدل بين المختلفين؛ فلها من الفضائل الخيّرة ما يجعل المواثيق والعقود الاجتماعيَّة ذات مبادئ، وقيم إنسانيَّة بها يُنصف النَّاس ويعدلون.

ولأنَّ الاختلاف والخلاف من طبائع البشر، ساد الحوار، والجدل، والبرهنة حُجج متبادلة بين الذين يؤمنون بإله واحد، والمشركين والكافرين؛ فترتَّب على ذلك صدام بين المختلفين والمتخالفين، واتسعت دائرة الحوار داخل الحدود وخارجها؛ فأدّى ذلك إلى ضرورة إيجاد عقد اجتماعي ينظم علاقات النَّاس، ومن هنا سادت أنظمة الحكم الفردي كما سادت سيطرة الزّعيم والبطل والقائد، وسادت الانتهازيَّة معها جنبًا إلى جنبٍ؛ فكان النّظام القبلي، والملكي، والفرعوني، والقيسري، والكسري، والنازي، والفاشي، ظلال تحتها طغى من طغى، وتكبَّر من تكبَّر، وانتهز من انتهز؛ فكان الظُّلم والإكراه نتاج التفرّد والانتهازيَّة والإقصاء والعزل السّياسي وكسر السّيادات؛ ولذا الشُّعوب ثارت من أجل استرداد سياداتها الوطنيَّة وكرامة النَّاس.

ولأنَّه الإكراه والتجبّر والقهر، بدأت ظاهرة الولاءات للحاكم انتهازيَّةً أكثر من الولاءات للآلهة، ومن هنا أصبحت

---

[131] الأعراف: 191.

السِّيادة للحاكم، وليس للإله، وهذا ما جعل الإمبراطور الرّوماني كاليجول الذي تولى السِّيادة على الإمبراطورية الرّومانيَّة خلال الفترة من سنة 37م إلى سنة 41م يقول: "كم أتمنى أن يكون للشّعب الرّوماني رأس واحد لأطيح به بضربة سيف، فليغضبني الشَّعب الرّوماني، شرط أن يخشى بأسي"[132].

وفي المقابل كانت تؤكّد ديانة التوحيد، أنَّ الحكم لله وحده، وهنا يكمن المشكل الذي لم يقبله الطّغاة، الذين يرون أنَّه لا حكم إلَّا لهم، ولا يحقّ لأحدٍ أن يحرمهم منه.

فبدأ الخصام والنّزاع جنبًا إلى جنبٍ مع الحوار والجدل، بين أمم العالم وشعوبه وبلدانه؛ بهدف إيجاد عقدٍ اجتماعيٍّ ينظّم علاقات الأفراد، والجماعات والشُّعوب والأمم؛ فكان العقد الاجتماعي الذي تمّ صوغه من قبل بعض مفكّري الغرب، عقد قائم على القيم ذات الفضائل المحقّقة للرّفاهيَّة الاجتماعيَّة المأمولة، والضّامنة للحياة الآمنة للأفراد، حياة خالية من القيود، والموانع الظّالمة، ترسمها رؤى جمعيَّة، تستوجب من المواطنين التنازل عن جزء من حقوقهم، أو عن حقوقهم كاملة للحاكم، ومن هنا بدأت الجهود بغاية الاسترداد الجزئي للسّيادات من أولئك الذين نصّبوا انفسهم سيادات على شعوبهم، وهنا يقول جون لوك: "يتنازل الأفراد عن جزء من حقوقهم بالقدر اللازم لإقامة المجتمع المنظم"[133]. إنَّه اشترط التنازل الجزئي عن الحقوق، في مقابل مجتمع منظَّم، وهذا يعني: أنَّ المواطن لا يحقّ له أن يطالب بممارسة حقوقه

---

[132] المصدر السابق، ص 173.

[133] عقيل حسين عقيل، سيادة البشر دراسة في الفكر الاجتماعي. مالطا: دار ألجأ، 1997، ص 315.

كاملة، وفقًا لنصوص هذا التعاقد، وأن يقبل بممارسة الحريَّة وفقًا لاشتراطات المتعاقدين.

أمَّا المفكر الاجتماعي توماس هوبز فيرى من اللائق أن يتنازل المواطن عن حقوقه كاملة، بمقتضى العقد للحاكم، ويعد بذلك خالي المسئوليَّة التي تعدُّ من مهام الحاكم[134]؛ ولهذا تعدُّ فلسفة جون لوك تحسينًا لفلسفة توماس هوبز، ولكن ألا يكون من المنطق أنَّه إذا قَبل الإنسان أن يتنازل عن جزء من حقوقه فقد يقبل بذات المبررات التنازل عنها كاملة؟

أمَّا المفكّر الاجتماعي سان سيمون فيرى غير ذلك، فبعد التدهور الذي حصل عن طريق رجال الدّين المسيطرين على الحكم بسيادة الكنيسة، رأى سان سيمون أنَّه من الأفضل أن يُسلّم الحكم إلى رجال الصّناعة، والعلم، بدلًا من رجال الكنيسة، ويقصد برجال الصّناعة، كلّ من له حرفة، أو مهنة، "الفلاح، وراعي الماشية، والنجَّار، والحداد، وصانع الأحذية، والتاجر، وكلّ منتج لأيَّةِ سلعة، أو محصول"[135].

ولأنَّ شعوب العالم على حالة تقدّم علمي، ومعرفي، وثقافي؛ فإنَّ حرّيتهم دائمًا تتعزّز، ممّا دعا من تعزّزت حرياتهم إلى النّظر تجاه الآخرين الذين لم تتعزّز حرّياتهم في أوطانهم؛ فكان الرّفض من قبلهم لكلّ من يقيّد حريَّة مواطنيه ويسيء للسّيادة الوطنيَّة، حتى أصبح الصِّدام مع من يحاول تقييد حريَّة بعض النَّاس صدامًا مع الدّاخل والخارج معًا.

ولهذا أصبحت نظرة العالم للإنسان قيمة مقدّرة في ذاته فلا ينبغي أن يهان، أو يستهان بحاجاته المتطوّرة، وحقوقه

---

134 يحيى الجمل، الأنظمة السياسية المعاصرة. القاهرة، دار الشروق، ص 67.

135 زيدان عبد الباقي، التفكير الاجتماعي نشأته وتطوره. القاهرة: مطبعة السعادة، 1947، الطبعة الثانية، ص 212.

الوطنيَّة، وحقّه في الحياة أينما كان؛ وبذلك في العقد الاجتماعي الجديد لا فرق بين من يتولّى الإشراف على ممارسة السُّلطة، وإقرار الأمن والسَّلام في البلدان، وما يقوم به مَنْ تمّ اختياره رئيسًا لشركة ما.

ولذا يقول هنريك سكوليموفسكي: "يجب أن يتوطد عقد اجتماعي جديد يقوم على التعاون، والتكافل، والتعايش، وعلى إجلال الحياة، وإجلال الجميع لبعضهم بعضًا، وأن يقوم على القيم الإيكولوجيَّة"[136].

فمع أنَّ هنريك يرى ضرورة إيجاد عقد اجتماعي جديد يقوم على مجموعة من القيم الإنسانيَّة، فإنَّه اشترط في تعريفه أن يقوم هذا العقد على القيم الإيكولوجيَّة (البيئة الاجتماعيَّة)، ولكن إن أُخذ بهذا الشّرط؛ فسيصبح هذا الشّرط قيدًا، وبخاصّة أنَّ الأفراد والشُّعوب والأمم هم على حالة من الاختلاف والتنوّع؛ ولأنَّهم كذلك فلا قيد، بل الحريَّة التامَّة هي الحريَّة التي تعترف بحريَّة الآخرين، وتقدّرها، وتقف دونها، وتحترم الخصوصيَّات الدِّينيَّة، والعرفيَّة، والأدبيَّة، والذوقيَّة.

ولأنَّ إيجاد العقد الاجتماعي بين النَّاس ضرورة أخلاقيَّة وإنسانيَّة، فبالضرورة لو لم يكن الاختلاف والخلاف بين النَّاس ما كانت الضرورة؛ لذا فلن يكون العقد الاجتماعي ناجحًا إلَّا إذا استطاع أن يجيب على المختلف والمتخالف عليه، أو المختلف والمتخالف معه، أو المختلف والمتخالف بشأنه، وهذه لا تتمّ إلَّا بتقدير الخصوصيَّة، والاعتراف بأصحابها، وتفهّم ظروفهم الخاصّة، وإذا تمَّ ذلك، كان الإجلال

136 Henryk Skolimowski; Living philosophy: Eco-philosophy as a Tree of life; Arkana Paperbacks. P 12.

للحياة الإنسانيَّة في بعدها الفردي، والجماعي، والمجتمعي بعدًا أخلاقيًّا وسياديًّا.

ولأنَّه العقد الاجتماعي، فهو الذي لا يُقَرّ إلَّا من قِبل الجميع، سواء أكان الجميع على مستوى الوطن، أم على مستوى العالم؛ ولهذا فلا إملاءات من أحدٍ على أحدٍ، ولا اشتراطات، أي إنَّ العقد الاجتماعي هو الشّرط على كلّ اشتراط، ولا شرط عليه، وبهذا الشّرط يصبح العقد الاجتماعي هو الشّرط لتنظيم علاقات الأفراد، والشُّعوب، وممارسة الحريَّة عن إرادة، وهو الشّرط لكسر الاعيب الانتهازيَّة.

المنهج دراية قيدٌ على انتهازيَّة:

المنهج إتقان فكري يَنظِمُ المعلومات المتفرّقة في نسج معرفي فسيفساء نَظْمِهِ حُجَّة بحجّة، وفكرة بفكرة، تفرز العلّةَ من المعلول تفكيكًا وتركيبًا وفقًا للمتغيّرات أثرًا وسببًا، فتُكسر الحيرة والوهم بنتائج قابلة للقياس والتوظيف.

ولذا فحجج المنهج العلمي معلومات موثوقٌ من مصادرها ولا انتهازيَّة فيها، وملاحظات ومشاهدات عينيّة بأدلة لا وهم فيها، ومعايشة مع تجربة معملية أو ميدانيّة لا شكّ فيها.

ولهذا فالمنهج لم يعد كما يظنّ الواهمون قالبًا ثابتًا لصهر الأفكار مثل القوالب التي تُصهر فيها المعادن تحت درجات حرارة عالية، بل أصبح المنهج قواعد معيارية يُمكن أن تقاس به الأقوال والأفعال والسُّلوكيَّات، وتحدّد على ضوئه

الاتجاهات وتستقرأ نتائجها المستقبليَّة مما يجعل البحَّاث يرسمون لها الخطط في دائرة الممكن (المتوقَّع وغير المتوقَّع)؛ ولهذا فالمناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكي تجد مواضيع لتبحث فيها، فهذه المناهج اجترارِيَّة، فهي كمن يَلُكُّ العِلكة أكثر من مرّة، ولا تُمكِّن الباحث من توليد الفكرة من الفكرة، والمعلومة من المعلومة، والأحدث من الحديث، والأجد من الجديد، والأنفع من النافع؛ فالمناهج التي تُمكّن من كل هذا هي التي تجعل المجتمع بأسره في حالة حركة متجدّدة، وفي حالة تسابق ومنافسة وتطلّع من أجل بلوغ أمانيه وغاياته بكل شفافيَّة مع أخذ الحيطة والحذر من كل انتكاسة، ومن كلِّ وهمٍ.

ولأنَّ البحوث تختلف باختلاف مواضيعها، ودرجة اهتمام الباحثين أو المجتمع بها؛ فهي تتطلَّب مناهج علميَّة مرنة تُمكِّن الباحثين من الوصول إلى أهدافهم العلميَّة بأقصر الطّرق، وأقل التكاليف، وتقدّم الموضوع بخطوات يمكن مراجعتها والتأكد منها، ومع ذلك لم تكن المناهج قوالب جاهزة كما يعتقد الواهمون والانتهازيون، بل ذات الأساليب المتنوِّعة والمتعدّدة؛ ولهذا لا داعي إلى فرضها على الآخرين نتيجة خصوصيَّاتهم وخصوصيَّات مواضيعهم، التي تتطلَّب أساليب مرنة تراعي خصوصيَّاتهم الثقافيَّة والتعليميَّة والدّينيَّة والعرفيَّة في أثناء تجميع المعلومات، وتحليلها، وتشخيص حالتهم، واستخلاص النتائج منها ثمّ تفسيرها.

والمنهج الموضوعي هو المنهج المفتوح غير المقفل، فالمناهج المقفلة مناهج واهمة، تتقيد بالتكرار الذي لا يفتح آفاق التعلّم واكتساب الخبرة أمام منتهجيه، أمَّا عندما تكون المناهج مفتوحة ومقنّنة فإنَّها تكون مناهج استيعابيَّة، تستوعب

تطلّعات الباحثين وشطحاتهم، مما يجعل بحوثهم إبداعيّة، ومنها يأتي الجديد.

وكما أنَّ لكل فرد منهجًا خاصًّا به في حياته العادية يسير عليه سلوكًا وأسلوبًا في تعامله مع الآخرين، ويتميّز به عنهم، كذلك الباحث ينبغي أن يكون له منهجٌ يصطبغ بخصوصيَّة موضوعه.

وعليه: ينبغي أن يهتم الباحث بالمنهج الذي يستوعب شطحاته التي منها قد يأتي الإبداع، وكثيرًا ما يصف الواهم إبداع المبدع في البداية بأنَّه شطحات، ويكون في النهاية إضافة علميَّة جديدة، مما يبطل آراء البعض المنادين بالتقيد ببعض الاتجاهات المنهجيَّة التي لا تنتج إلّا التكرار، وتبث الملل في نفوس الباحثين.

والمنهج مع أنَّه يَنْظِمُ المعلومات تحليلًا وتعليلًا فإنَّه قد لا يكون فعَّالًا، أي يمكن أن يتبع الباحث خطوات البحث العلمي بكل دقة، ولكنَّه قد يكون مقفلًا على تعاليم سابقة وغير قادرٍ على الخروج عنها بما يُمكِّنه من أن يكون مبدعًا.

إنَّ اقتصار التفكير العلمي على ما تسمح به اللوائح والقوانين الوضعيَّة، هو تفكير تحت قيد الأوهام فلا يحقّق الإبداع، ولا يرتقي بالمبدعين، فالذي يرتقي بالمبدعين هو ألَّا يُحدَّ من تفكيرهم بسقفٍ يقفون عنده أو دونه؛ لتكون آفاق الخيال العلمي مفتوحة أمامهم، وهكذا من الواقع والخيال والحدس يصل العقل المبدع إلى الجديد المفيد.

المنهج العلمي يرتبط بالموضوع، ولا يحيد عنه؛ ولذا فالموضوع هو الذي يحدّد المنهج المناسب للبحث أو لدراسته؛ ولهذا لا يمكن أن يكون المنهج سابقًا على الموضوع، فلولا

الموضوع ما كان المنهج، ولولا المنهج ما سُبرت أغوار الموضوع وكُشفت أسراره؛ ولهذا نقول:

(لكلِّ موضوع منهج خاصٌّ به، فلا داعي لتسويق المناهج الجاهزة التي تُسهم في خلق التُّبع ولا تُسهم في خلق المبدعين).

وعليه:

بالمنهج نستطيع أخذ العبر من الماضي، ونستوعب الحاضر الجميل من أجل المستقبل الأكثر أهميَّة وجمالًا، ولكيلا تكون المناهج تكرارًا مملًّا نتيجة اقتصارها على الجاهز فقط ينبغي أن تكون مناهج تطلّعيَّة تفتح آفاق الإبداع أمام البحَّاث في جميع مجالات العلوم وميادينها الواسعة؛ وذلك باستيعابها تطلُّعات المجتمع وأمانيه المرجوة[137].

ولذا فالمنهج يربط العلاقة بين العقل وما يفكّر فيه أو يبحث عنه، وبه تحدد المواضيع وتسبر أغوارها عللًا وأسبابًا وتحليلًا وتشخيصًا ونتيجة أو استنتاجًا، ويتضح الفن المنهجي لدى الباحث عندما يتمكّن من ضبط قدراته العقليَّة مع الموضوع قيد البحث أو الدراسة؛ لأنَّ المناهج هي المفاتيح التي تُدخل الباحث إلى الموضوع وتمكّنه من التعرف عليه وكشف أسراره وخفاياه، وتدخل المتعلّمين للكتب وتمكّنهم من الخروج منها معرفة ودراية، وبهذا تنتهي المناهج التي تُدخل المتعلّمين للكتب ولا تعلمهم كيف يخرجون منها. وبذلك المنهج هو الذي يُمكِّن من اكتشاف الأثر سواء أكان أثرًا ماديًّا أم فكريًّا.

[137] المصدر السابق، ص 34.

إنَّ المناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكي تجد مواضيع للبحث والدراسة هي مناهج واهمة وقوالب جاهزة لا تضيف الجديد؛ ولذا ينبغي أن تكون المناهجُ تطلّعيَّة؛ لكي تكون سباقة لتحقيق أماني المجتمع وواقية له من التخلّف والمرض، ودافعة به إلى التقدُّم والرّقي، مع أخذ الحيطة والحذر من الانتكاس.

ولهذا لا ينبغي أن تقف المناهج عند الذي كان، أو عند ما هو كائن، بل يجب أن تتطلَّع إلى ما هو ممكنٌ (متوقَّع وغير متوقَّع) من أجل المستقبل الأفضل.

والمنهج العلمي هو الذي يُمكِّن من إحداث النُّقلة التي بها يُصنع المستقبل؛ ولهذا ينبغي للباحث ألا يستهين بالزَّمان، ولكيلا يستهين بالزَّمان عليه أن يُعطي قيمة له، وإن لم يفعل ذلك يجد نفسه قد أسهم في ضياعه وضياع مستقبله ومستقبل أبنائه من بعده.

وعليه: فإنَّ الزّمن مخيف وإن لم نخَفْهُ قد نفاجئ في مستقبل منه، ممَّا يُحفِّز الباحثين لأن يصوغوا له الفروض والتساؤلات العلميَّة بموضوعيَّة؛ ولهذا فهم يبحثون دون توقّف عند حدود الماضي والحاضر؛ وذلك لمعرفتهم بأنَّ المستقبل سيأتي بالقوَّة شئنا أم أبينا؛ ولذا فإن لم نعد له العدة قد ننهزم في مواجهاته.

وبما أنَّنا نعرف أنَّه سيأتي بالقوَّة، إذن لماذا لا نبحث عنه؟ ولهذا يجب أن نتعلّم من أجل المستقبل الذي لم نعرف مضمونه، مع أنَّنا نعرف أنَّه سيأتي إنْ لم تقم السَّاعة؛ ولهذا فنحن الذين أسلمنا وجوهنا لله تعالى، نصلّي، ونصوم، ونحج، ونزكّي، وكذلك نعمل، ونتزوج، ونُأمِّن على ممتلكاتنا، ونأكل

ونشرب، ونتعلّم، ونبحث، ونفكّر ونتذكّر ونعتبر، كل ذلك من أجل المستقبل، ولم يكن من أجل الماضي والحاضر.

وقد يتساءل آخر:

ـ وما الحكمة من كلِّ ذلك؟

لأنَّنا نجهل المستقبل، ولا نثق فيه، كما لا نثق في الماضي والحاضر؛ لأنَّ الماضي تركنا دون أن يأسف علينا، ولا على الماضيين، وكذلك الحاضر مصرٌّ على ذلك بتنازله عنَّا ثانية بثانية، ولا يود الاستمرار معنا؛ ولهذا انعدمت الثّقة في الزَّمنين (الماضي والحاضر)، مما يجعلنا لا نقصر تفكيرنا عليهما إلَّا لأخذ العبر والقدوة الحسنة؛ ولذا فنحن نفكّر في غيرهما، ولا غير لهما إلَّا المستقبل مع أنَّه شقيقهما الذي قد يغدر بنا إذا لم نحتط من غدره، وعليه: لا ثقة في الزَّمن على الإطلاق، الثّقة في العمل دون سواه، ومن لا يعي بأهميّة ذلك سيكون واهمًا مع الواهمين وقد يتم انتهازه من قبلهم؛ ولهذا ينبغي أن نعمل دون تردّد، نبحث، نتعلّم، نتعرَّف، ونصحّح أخطاءنا أوَّلًا بأوَّل، ونتطلَّع إلى حياة المستقبل، ونعمل على صناعته دون توقف، ومن يتوقّف قليلًا لا شكَّ أنَّه سيتأخّر كثيرًا، فلا داعي للتوقّف ولو لبرهة.

المناهج العلميَّة هي المناهج التحسينية التي لا تقف عند قبول الواقع فقط، بل تعمل على تحسينه إلى ما ينبغي أن يكون عليه؛ حتى لا تكون بمرور الزَّمن جامدة لا مرونة فيها، وتصبح هرمة لا حيويَّة لها، متكئة على عصا لا غاية من ورائها إلَّا إثبات عدم قدرة من يتكئ عليها، فهي لم تكن عصا موسى عليه الصَّلاة والسَّلام التي جاءت حقيقة ولقفت أوهام السّحرة الواهمين.

,للباحث العلمي أساليب فنية تربط المنهج بالطريقة البحثيَّة المتوافقة مع الموضوع قيد البحث والدّراسة، مما يجعل للمنهج المتقصّي للحقائق عناصر التشويق التي تُحفِّز القراء على البحث، وتُمكِّنهم من التعرّف على أسراره وخفاياه وكنوزه الثمينة؛ ولهذا لم تكن المناهج قوالب ثابتة تستوجب التقيد بها كما يعتقد الواهمون، بل لها من الأساليب المتنوِّعة التي بها تتنوعّ البحوث وتتزين بموضوعيَّة.

وعليه: فإنَّ المنهج فكر للعمليَّة الشَّاملة التي بها تحلّل المعلومات والمعارف والقضايا والعلوم والأفكار، وهذه العمليَّة هي التي تُمكِّن طرق البحث من بلوغ النتائج؛ فالطريقة التجريبيَّة لن تنجز أهدافها إلَّا بكشف العلائق الدالة على حلقات الترابط بتحليل الظَّاهر والكامن أو الصريح والضمني، وهكذا الطريقة التَّاريخيَّة وطريقة المسح الاجتماعي لن تتما كطريقتين بحثيتين إلا بالمنهج التحليلي[138].

بشكلٍ عام يختلف البحَّاث ويتفقون حسب المواضيع، والفلسفات والأهداف المرجوة من كل باحث، وكذلك الأغراض والغايات التي من ورائها، والإطار المرجعي لكلٍّ منهم أيضًا.

أمَّا بشكل خاصّ فلكلٍّ شِرعة ومنهاجًا، أي إنَّ المنهج هو المتغيّر الرّئيس في التباين بين الباحثين؛ فمنهم من تُنْظم فرضيَّاته وتساؤلاته وأفكاره على قواعد، ومنهم من يتخلّى عنها أو عن بعض منها؛ ولهذا لا يستوون في علاقاتهم البحثيَّة مع الموضوعيَّة التي تسنها الأخلاق المهنيَّة والحرفيَّة والعلميَّة.

[138] المصدر السابق، ص 41.

ومن ثمَّ تستمد فلسفة المنهج من فلسفة الموضوع، فيُصبغ المنهج بفلسفة الموضوع كما تُصبغ الأشياء بالألوان مما يجعل وحدة بينهما لدرجة تصعب علينا الفصل بينهما؛ فالورقة الخضراء من أيّة شجرة إذا غمرناها مثلًا في محلول كيميائي قد يتغيَّر لونها الأخضر إلى لون سماوي أو برتقالي، أو أيّ لون آخر طبيعي كما تحوَّل لون مايكل جاكسون من اللون الأسمر إلى اللون الأشقر فأصبح موضوعًا بلا منهج؛ لأنَّه فقد فلسفة وجوده باللون الأسمر الذي ارتضاه الله له، حتى وإن كانت له فلسفة من وراء تغيير لونه.

وإذا غمرنا قميصًا ورديًّا في محلول كيماوي فإنَّه سيفقد لونه الذي أصطبغ به، والذي ميّزه عن غيره من ألوان القمصان، وعندما تزال الألوان عن أوصولها تصبح كالمواضيع بلا منهج؛ لأنَّ المنهج هو الطّابع المميز للموضوع من خلال وسيلة إبرازه علميًّا، وكذلك السُّبل الفنية التي تتبع من قبل الباحث في أثناء تجميع المعلومات والبيانات وانتظامها تحليلًا وتعليلًا واستنتاجًا وتفسيرًا؛ والبحث الذي لا يؤسّس على المنهج الموضوعي لا يزيد عن كونه مجهودًا وهميًّا أو مشروعًا ارتجاليًّا لا يمكن الاحتكام به ولا الاحتكام إليه.

فالمنهج هو الذي به نتعلّم كيف نتعلَّم، والمنهج الذي يعلّمنا كيف نتعلّم هو الذي يُمكِّن من المعرفة الواعية، والمناهج المخالفة لذلك هي المناهج الإعلاميّة الإبلاغيّة؛ ولذا فالفرق كبير بين المناهج التي تُعلِّمنا كيف نتعلَّم، والمناهج التي تُبلغنا أو تُعلِمُنا بما عَلِمت به، فالأولى: تفسِح الطريق أو المجال أمامنا بما يظهر إبداعاتنا العلميَّة، والثَّانية: تفسِح الطريق أمامنا بما يجعلنا نردّد ما تم إعلامنا أو إبلاغنا به، ولا تُحفِّزنا على سواه.

والمنهج العلمي هو الذي يُمكِّن الباحث من كشف العلاقات بين المتغيّرات والعلل والأسباب مع المقارنة لأجل التفصيل والتدقيق والتقصّي الواعي بموضوعيَّة، مما يؤدّي إلى معرفة العلاقات بين الكل والجزء والمتجزئ، وأثر كل منها على الآخر وفقًا لمتغيّرات البحث المستقلة والتابعة والمتداخلة والدخيلة.

وعليه: لكي تكون مناهج البحث العلمي مبدعة ينبغي أن تتحرر من طرقها الوهميَّة وأساليبها التسليميَّة والسرديَّة التي لا تمكّن من استيعاب الخصوصيَّة الزَّمانيّة والمكانيَّة والظرفيّة والقانونيَّة.

ولذا فإنَّ انتقادنا للمناهج التسليميَّة؛ لأنَّنا نريدها أن ترتقي إلى استيعاب المستقبل الأفضل الذي يأمله النَّاس، ويكفيها القصور عند الماضي أو الحاضر فقط، وهذا لا يعني إنَّها تنفصل عن ميز الماضي ومميزات الحاضر الجميل، بل يعني أن تَستمد القوَّة منهما لبلوغ ما هو أقوى وأعظم وأهم؛ ولهذا التسليم بكل ما يُكتب، أو يُقال لا يعد ميزة، بل يُعدّ عيبًا إن لم يتم التفحُّص بعد شكٍّ بغرض اليقين؛ ولذا لا تسليم إلّا بمسلمات يدركها العقل الواعي وتثبتها التجارب الاجتماعيَّة، أو المعمليَّة المختبريَّة، ولا تسليم إلا لمطلق، ولا مطلق إلَّا من عند الله عزَّ وجلَّ، وبما أنَّنا نعترف أن البشر غير معصومين من الخطأ، فلماذا إذن لا نشكّ في آرائهم إلى أن نتبين أنَّه الحقّ اليقين؟!

وعندما ينتقل تفكير المعلم والمتعلِّم من الانتظار إلى الامتداد في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقّع – أي: عندما لا يقف المعلم والمتعلّم عند حد المعلومات التي استقبلوها أو تعلموها- عندها لا تتوقّف قدراتهم واستعداداتهم عن

الاستيعاب بل تنطلق إلى طلب المزيد المفيد، لأنَّ التفكير العلمي تفحصي واستبياني استيضاحي استنتاجي، يربط العلاقات بين المتغيّرات، ويتوقّع معلومات أخرى قد تقع في أيّ لحظة من لحظات الزَّمن، وفي أيّ مكان على الكرة الأرضيّة[139].

والمناهج العلميَّة هي التي تبني الثّقة في المعلم والمتعلم، وتحررهما من التبعيَّة والانتهازيَّة وهمومها التي تطمس شخصيّة كلّ منهما وهمًا.

والمناهج العلميَّة استفساريّة تساؤليّة؛ وذلك عندما تستفز القارئ والمتعلم علميًّا، وتحفزهما على الاطلاع والتساؤل، وتشوقهما إلى المعرفة الواعية التي لا تجعل من العلم طلاسم أمام البحث والنقاش والحوار والجدل بالتي هي أحسن؛ ولهذا لا يمكن أن يحس المعلم بالتعالي ولا يحس المتعلم بالغربة، وتنتهي النظرة التلقينيَّة التي تجعل المعلم طرفًا موجبًا، والمتعلّم طرفًا سالبًا، والمعلم مُرسل للمعلومات، والمتعلم مستقبل لها، ويصبح التعليم متحرّرًا من القيود، وفيه تتساوى كفتا الميزان بين المعلّم والمتعلّم، فمع أنَّ العمليَّة التعليميّة يقودها المعلّم فإنَّ المستهدف بالتعلّم هو المتعلّم مما يستوجب مشاركته وعدم تغييبه.

ولهذا يجب أن تبدأ المناهج مع المبحوثين والمتعلمين من حيث هم؛ لكي تندفع بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه وعيًا واستنارة، وذلك باستيعاب أحوالهم الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسّياسيَّة والدّينيَّة والثقافيَّة، بمعرفة المستويات التي هم عليها؛ لتكون البداية منها كواقع اجتماعي وإنساني، مع مراعاة الفرق في القدرات، والاستعدادات بين الأفراد

[139] المصدر السابق، ص 53.

والجماعات والمجتمعات؛ ذلك لأنَّ البداية مع النَّاس أو المتعلمين من حيث هم تحليلًا وتشخيصًا تُمكِّنهم من استيعاب الرِّسالة الموجهة إليهم.

والمنهج يُعدّ هو الوعي بالموضوع من خلال الوعي بفلسفته والخطوات التي تُتَّبع من أجل اكتماله وتبيانه، فإذا سألنا سائلٌ:

أيّهما أسرع حركة الجسم الأثقل أم الجسم الأخف؟ فإذا أجبناه إجابة عابرة كما سألنا عابرًا نقول: الجسم الأخف أسرع حركة من الجسم الأثقل، ولكن هل نحن على وعيٍ عندما أجبنا بأنَّه الأخف؟ لكي نكون واعين بإجابتنا علينا أن نطرح الأسئلة الآتية، ونحاول الإجابة عنها.

ـ هل تتأثَّر حركة الأجسام بحجمها أم لا تتأثر؟ أي: هل تستوي سرعة جسم يزن 145 كيلو غرامًا مع سرعة جسم يزن 75 كيلو غرامًا في مضمار كرة القدم؟

ـ هل تتأثر حركة الأجسام بالمسافة أم لا تتأثر؟ أي: هل تكون سرعة الجسم واحدة إذا قطع في المرة الأولى مسافة 200 متر، وفي المرة الثانية 2000 متر؟

ـ هل الاتجاهات تؤثّر على حركة الأجسام؟ أي: هل الحركة إلى الأمام تساوي الحركة إلى الخلف؟

ـ وهل الحركة من أسفل إلى أعلى تساوي حركة الجسم وسرعته من أعلى إلى أسفل؟

ـ هل الزَّمن يؤثّر على حركة الأجسام؟

ـ هل الذي قضى من الزَّمن 80 عامًا يكون مساويًا لمن لم يقض إلَّا 25 عامًا في سرعة حركته؟

ـ هل اختلاف زمن السّباق للمتساوين في السّرعة لا يؤثّر في المسافة المستهدفة بالمرور؟

ـ ألا تتأثر حركة الأجسام بنوعيّة الأرضيّة التي يتحرك عليها؟ أي: هل الحركة على الأرض الرمليّة تساوي الحركة على الأرض الممهدة بالفلّين؟

ـ هل المناخ يؤثّر على الحركة؟ أي: هل الحركة في اتجاه الرّيح تساوي الحركة التي في مواجهتها؟

ـ ألا يكون للحرارة تأثير على الحركة والمتحرك؟

ـ هل للثّقل أثر على الحركة؟ أي: هل كلَّما زاد ثقل الجسم قلت سرعته الحركيّة؟

ـ ألا يكون شكل الجسم مؤثّرًا على حركته؟ أي: أيهما يسقط أوّلًا كرة دائريّة الشّكل وتزن كيلو جرامًا، أم مظلة دائريّة الشّكل وتزن 3 كيلو جرامات؟[140]

كل الأسئلة السَّابقة تحمل إجاباتها في مضامينها نتيجة منهج التوليد الذي يحدّد متغيّراتها والعلاقات المتكوّنة بينهما وتأثيراتها الموجبة والسَّالبة، وعناصر الإثبات والنفي المحمولة فيها؛ ولذا فطريقة عرض هذه الأسئلة تعبّر عن وجود منهج من ورائه حكمة؛ ويكون المنهج في هذه الحالة هو المجسد للسُّبل التي يتّبعها الباحث في تقصي المعلومات وتفكيكها من خلال تتبّع موضوعي من الكل إلى الجزء ثم إلى المتجزئ منه مما يجعل المنهج هو المترجم للفروض والمنظم للبحث من ألفه إلى يائه.

[140] عقيل حسين عقيل، فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات جامعة الفاتح، دار ألجا، الطبعة الثانية، 1995، ص 48.

ولهذا فالمنهج لم يكن قالبًا ثابتًا لصهر الأفكار تحت درجات حرارة عالية وكأنَّه فرن لإذابة الحديد أو الخامات المعدنيّة الأخرى الصّلبة، بل المنهج يكون قابلًا لاستيعاب الجديد ويسعى للكشف عنه.

والمنهج لم يكن تكرارًا روتينيًّا كما يعتقد البعض الذين يحاولون قصره على دراسة الماضي بالتحليل والتفسير، أو البعض الآخر الذي يريد قصره على دراسة الحاضر المشاهد، بل هو الذي يربط الموضوع بالزَّمان والمتغيّرات التي تظهر من فترة لأخرى، ومن مكان لآخر وهو المستوعب للمستقبل والمتطلّع إلى آفاقه المرتقبة[141].

ومن ثمَّ بالمنهج يتم أخذ العبر من الماضي، واستيعاب الحاضر من أجل المستقبل الأنفع والأفيد، ولكي لا تكون المناهج تكرارات روتينيّة تُولِّدُ الملل عندما تقتصر على معرفة الجاهز فقط في الزَّمن الماضي أو الحاضر ينبغي أن تكون تطلّعيَّة؛ لكي تفتح آفاق الإبداع أمام العلوم باستيعابها تطلعات المجتمع وأمانيه وتتابع عن كثب مراحل نموّه وتطوّره وتستوعب التغيرات الطَّارئة عليه، وكذلك ينبغي أن تستوعب شطحات الباحث العلميَّة من أجل أن تفتح الآفاق أمامه في معرفة الجديد واكتشافه من خلال خروجه عن الروتين والقولبة الفكريَّة والعقليَّة المميتة للتألق والإبداع وبلوغ الخوارق[142].

وعليه: فالمنهج العلمي هو الذي يُتَّبع في تقصي الحقائق وتبيانها، ويحتوي على عناصر التشويق التي تُحفِّز القراء على البحث والتقصي الدقيق الواعي، وتُمكِّنهم من التعرّف

---

[141] عقيل حسين عقيل، القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: المصرية للنشر والتوزيع، 2020، ص 24- 47.

[142] المصدر السابق، 61،

على أسراره وخفاياه؛ ولهذا لم تكن المناهج قوالب ثابتة تستوجب التقيد بها كما يعتقد البعض، بل تختلف بالضرورة من موضوع إلى آخر، ومن باحث إلى آخر، وحسب الظّرف الزَّماني والمكاني والفلسفة التي دفعت الباحث إلى اختيار الموضوع والبحث فيه.

ونتفق مع الفيلسوف ديكارت في قوله: "ليس غرضي ها هنا أن أعلم المنهج الذي ينبغي على كل امرئ اتباعه من أجل اقتياد عقله على النحو الصَّحيح، بل فقط أن أبيِّنَ الطّريق الذي سلكته لإرشاد عقلي"[143].

ويتمركز منهج ديكارت على معطيتين رئيستين، هما:

الحدس: أي التصوُّر الذي يتولَّد في نفس سليمة منتبهة عن مجرد الأنوار العقليَّة، ومن هنا فالحدس هو مصدر المعرفة الأوَّل وليس الإحساس.

الاستنباط: هو العمليَّة العقليَّة التي تنقلنا من الفكرة البديهيّة إلى نتيجة أخرى تصدر عنها بالضرورة، أي: استنباط الحقائق بالمنطق والحجَّة.

ويستند المنهج الديكارتي إلى أربع قواعد:

1 - التسليم بيقينيّة المبادئ التي تبدو للعقل بسيطة وواضحة، لا تثير يقينيَّتها أي شك بداهةً، وهو ما يفهم أو يدرك بالفطرة، والبديهي هو الأمر الواضح بذاته لا يحتاج إلى غيره ليفك الغموض والالتباس عنه، ويعني: لا أقبل شيئًا على أنَّه حقّ ما لم أعرف بوضوح أنَّه كذلك؛ ولذا يجب أن أتجنَّب التسرُّع، وألَّا أتشبَّث بالأحكام السَّابقة، وألّا أُدخل في

[143] عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، 1984، ص 493.

أحكامي إلَّا ما يتمثّل لعقلي في وضوح وتميّز يزول معهما كل شكّ.

2- تقسيم كل مشكلة إلى أجزائها (التحليل)، أي: تقسيم المشكلة المعترضة إلى ما يمكن من الأجزاء والمشكلات؛ ليتم تبسيطها وتوضيحها أكثر، ومن ثمَّ عندما يتم تقسيم المشكلة المطروحة الى أكبر عدد ممكن من القضايا نصل إلى فهم كل واحدة على حدة فتكون بذلك الرؤية واضحة ومتميزة.

3 - الانتقال المنظّم من المعروف والمبرهن عليه إلى المجهول الذي يتطلّب البرهان (التركيب والتأليف)، والتركيب يأتي في مقابل التحليل، أي: القيام بعمليّة عكسيّة، فبعدما تم فصل الأجزاء في مرحلة سابقة، نكون خلال هذه المرحلة بصدد تركيبها وجمعها من جديد؛ ليكون ذلك التركيب هو الانطلاق من الجزئيَّات إلى الكليَّات.

4 - عدم إغفال أي من مراحل البحث المنطقيَّة استقراءً وإحصاء من خلال المراجعة لكل العناصر والأجزاء بغاية الوصول إلى الصدق واليقين؛ وذلك من حيث أنَّ الإنسان كائنٌ نسبي معرَّض للنسيان والخطأ، ويعمل وفق مشاعر وعواطف قد تحيده عن طريق الموضوعيّة[144].

هذه القواعد أُخذ بها وما زال يؤخذ حتى الآن في تقصِّي المعلومات وتتبعها مركبة ومجزأة وكمًّا وكيفًا.

ونحن نقول إنَّ للمنهج البحثي ثلاث قواعد رئيسة وواضحة لكشف الحقيقة يقينًا وتبيانًا، مع التمكين من كشف الجديد وإضافته لميادين المعرفة العلميَّة وهي:

[144] توم سوريل، ديكارت، (ترجمة: أحمد محمَّد السروي)، القاهرة: 2014م، ص 63.

1 – العلم اليقين: الذي لا ظنون فيه ولا شكوك، مسلّمات هي كما هي، سواء أكانت من مصادر ومخطوطات متحقّق منها، أم كانت عن علم مُنزّل تنزيلًا من الله تعالى، أو حديث مجمع عليه.

2 – العين اليقين: تراه مشاهدةً بأمِّ عينيك، أو تلاحظه ملاحظةً واعيةً، مع أخذ الحيطة والحذر من خدعة الحواس.

3 – الحق اليقين: الذي لا يكون إلَّا عن معايشة وتجربة، سواء أكانت تجربة اجتماعيَّة أم معمليّة ومختبريَّة.

هذه القواعد تُمكّن الباحث أو الكاتب أو المفكر من الدّخول إلى الكتب عن يقينٍ والخروج منها وعيًا، أو الخروج عنها وعيًا، ولتبيان ذلك أقول:

الخروج منها: الخروج من الكتب استفادة ومعرفة تُمكّن من التغيير.

الخروج عنها: الخروج عمَّا احتوته من معارف لا يقين فيها، ولا حُجّة، ولا تُمكِّن من العمل والتغيير.

وعليه:

فالمنهج لا يُكتب، بل يُكتب عنه، فما يكتب هو المعلومة سواء أكانت معطية أم نتيجة، أمَّا المنهج فهو الفِكْر الذي به يستقرأ النصّ، وبه تفكك المعلومة وتركب؛ لِتُنظم بكيفيَّة تجعل لها وحدة لا متناقضات بين مفرداتها والتي إذا ما ظهرت المتناقضات جعلتها وهمًا في ذهن الكاتب، أو المؤلف، أو الباحث، والمفكر تجاه سعيه لإظهار الحقيقة وكشف الزّيف عنها؛ ولأنَّ المنهج يكتب عنه ولا يُكتب فمن يعتقد أنَّه بإمكانه كتابة المنهج فهو لا يزيد عن كونه واهمًا.

والغرض من تقديم المنهج هو تبيان النقاط المهمَّة والأساسيَّة في استيضاح المعلومات والبيانات؛ حتى لا يضيع جهد؛ ولهذا تكون للمنهج قواعد علميَّة ينطلق منها البحَّاث ويعودون إليها عند الحاجة دون أن تُجرّدَهم من خصوصيَّاتهم الذاتيَّة وأساليبهم الموضوعيَّة[145].

حُسن التدبُّر قيدٌ على الانتهازيَّة:

حُسن التدبُّر لا يكون إلَّا وعي يُمكّن الإنسان من الالتفات إلى نفسه عناية ورعاية، ويمكِّنه من الالتفات إلى الآخرين كما هم حتى يستطيع أن يعرف أين يضع قدميه قبل أن يضعها؛ ولهذا فإنَّ الشّخصيَّة المتدبّرة لأمرها هي التي لا تغفل عمَّا يجب تجاه حاضرها وهي تفكِّر في مستقبلها الآمن، تعرف ما إليها من إمكانات ومقدرة واستطاعة، ثمَّ تعد العدّة للعمل المستهدف تدبُّرًا؛ ولهذا فالتدبُّر مع أنَّه قيمة فإنَّه لا يكون إلَّا عن حيويَّة تدير الأمر الذي يستوجب حُسن التدبُّر، ومع أنَّ التدبُّر لا يكون إلَّا في ساعته، فإنَّه لا يكون إلَّا من أجل المستقبل قريبًا كان أم بعيدًا؛ ولهذا فالحاضر تدبّرًا هو ما يدركه العقل ويتبناه تخطيطًا وعملًا حتى يعيشه وجودًا كما يأمله، ومن هنا فالتدبّر حُسن إدارة وجودة عمل، به ترسم السِّياسات والخطط وتُتّخذ التدابير الممكّنة من إيجاد معالجات لأيّ طارئ؛ فالتدبّر دراية عقلية يرتقي بحاضر أصحابه إلى ما يمكنّهم من الأخذ بما ينبغي في سبيل إحداث النُّقلة سياسةً واقتصادًا وعلمًا ومعرفةً، نُقلة تطوي صفحات الحاجات

[145] عقيل حسين عقيل، البحث العلمي (المنهج والطريقة)، القاهرة: المصرية للنشر والتوزيع، 2019، ص 22 – 45.

المتطوّرة بمشبعات مُرضية وفقًا للفرضيَّات التي تأسّست عليها؛ ممّا يجعل المعالجة منطوية على إيجاد حلول سريعة يمكن من خلالها تفادي المشكلّة، أو حلّها من جذورها؛ فالتدبُّر ارتقاء يمكّن من مواجهة المفاجآت التي يمكن أن تحصل في الزّمن الحاضر دون أن تترك أثرًا سلبيًّا.

ويتّسع التدبّر ارتقاءً ليكون حضوره ملبّيًا أو محتويًا للأحداث الحاصلة، إلَّا أنَّه لا يكون حلًّا نهائيًّا؛ فكلّ الحلول الآنية قد لا تصلح لأن تكون حلولًا دائمةً، لكنَّها في وقتها إن كانت ارتقاء؛ فهي لا شكّ تمثّل الحلّ الأمثل في زمنه في دائرة الممكن الذي تكون نتائجه باهرة وغير متوقّعة، كما أنَّ التدبُّر وإن كان آنيًا إلَّا أنَّه يفتح مدارك الإنسان رُقيًّا في البحث عن حلول تكمن فيها النّهاية المرجوة، التي تتّسع لكلّ المفاجآت، التي يمكن أن تحدث.

ففي الزّمن الآني يحدث الكثير من الأحداث التي يكون وقوعها ممثّلًا لكارثة أو لأمر غير متوقّع؛ فتكون المعالجة منطوية على إيجاد حلول سريعة يمكن من خلالها تفادي المشكلّة.

فالتدبُّر حلّ للمفاجآت التي يمكن أن تحصل، ولهذا لا يكون الحلّ نهائيًّا، بل وقتيًّا من أجل تجاوز المرحلة المهمّة، ومن الشّواهد التي رأينا فيها التدبّر مثالًا حاصلًا بالكيفيَّة الآنيَّة ما حصل في تشيلي لعمال المناجم بتاريخ 14 أكتوبر 2010، فبعد أن أصبحوا في غياهب الظُّلمات في مسافة تزيد عن ستمائة متر تحت الأرض، فما كان من السُّلطات التشيليَّة إلَّا بحثت عن حلّ سريع يكون به النّجاة لهؤلاء العمّال، وفي كلّ تفاصيل الإنقاذ كان الخوف حاضرًا بدرجة كبيرة، ممّا استوجب ضرورة لحسن التدبّر، فأدوات النّجاة وطرقها كان

يرافقها الخوف الذي أفضى بأن يكون النّجاح حليف عمليَّة الإنقاذ، حيث استعملت في عمليَّة الإنقاذ كبسولة أطلق عليها اسم (فينكس) نسبة إلى طائر (الفينيق) الأسطوري، وبلغ قطرها 53 سم. وخضعت هذه الكبسولة للتجريب حيث عمد عمال الإنقاذ إلى إنزالها مرّتين في باطن الأرض قبل بدء عمليات إنقاذ العمال. فما كان من الخوف إلَّا أن يكون حاضرًا في جميع تفاصيل مهمَّة الإنقاذ؛ فالبداية تدبّرًا كانت باحثة عن كلّ الأساليب التي تجعل من العمال يبقون على قيد الحياة سالمين، كالغذاء والاتصال وغير ذلك، أمَّا المهمّة الثَّانية؛ فكانت في تفاصيل وسائل الإنقاذ بداية من الحفر عن أقرب مكان يصل إليهم إلى الكبسولة التي تقلّهم إلى سطح الأرض؛ فالتدبّر في حاضره كان في كلّ شيء يساهم في الإنقاذ، والكبسولة حيطة وحذرا لم تكن واحدة، بل كانت أكثر من واحدة، ووسائل الحماية المتوفِّرة فيها تدبّرًا كانت خاضعة لمقاييس الخوف من أجل أن يصل العامل إلى سطح الأرض بكلّ سلامة، ولم يكن الخوف والتبّر قابعًا تحت الأرض فقط، بل كان حاضرًا عند سطح الأرض في توفير كلّ المستلزمات الصّحيَّة التي تحافظ على صحة العمال بما فيها النظّارة الشّمسيَّة الخاصّة التي كانت البداية متمثّلة فيها.

ويتّسع التدبّر ليكون حضوره ملبّيًا أو محتويًا للأحداث الحاصلة إلَّا أنَّه لا يكون حلًّا نهائيًّا، أو أن يتكرّر الحدث بتكرر الحلّ نفسه؛ ولذا أنَّ كلّ الحلول الآنية قد لا تصلح لأن تكون حلولًا دائميَّة، لكنَّها في وقتها قد تمثّل الحلّ الأمثل في دائرة الممكن الذي تكون نتائجه باهرة وغير متوقّعة، كما أنَّ التدبُّر وإن كان آنيًا إلَّا أنَّه يفتح مدارك الإنسان في البحث عن حلول تكمن فيها النّهاية المرجوة، وهو بهذا يسير نحو إيجاد

حلول منفتحة ومكتسية بثوابت افتراضيَّة حتى يكون مستقبلها حاصلًا ومنتميًا لهذه الافتراضات.

ومن هنا فإنَّ الشّخصيَّة المتدبِّرة تعتبر الحلّ الآني تدبّرًا يسهم في خلق فروض متعدِّدة منتمية إلى مخاوف مفترضة، وهنا يظهر الخوف كمؤسّس حقيقي لفرضيات تسهم بشكلّ كبير في إيجاد مساحات جديدة فيها من التدبّر والمتناوبات المختلفة التي تشير بشكلٍ أو بآخر إلى وجود افتراقات في المنجز الافتراضي، وهذا يبعث في الرّؤى العامَّة المتحقّقة روح الامتداد المستفيض الذي يخلق تبعات واضحة تجد صداها عند كلّ فرضية موجودة سواء أكانت متحقِّقة أم كانت في طور الانتماء العام لفرضيَّات أخذ الحيطة والحذر من أجل سلامة المتدبّر من أجله.

ويكون التدبّر المتعاقب في هذا المنجز الافتراضي أداة فاعلة في بناء استمراريَّة حقيقية تكون رافدة للعمليَّة المطلوبة، فالانكفاء غير حاصل كونه يخلق انزواءات غير فاعلة تسهم بشكلٍ كبيرٍ في انضواء أنساق عديدة يكون لها دور مهم في الإيضاح والتفاعل والخلق والمبادرة، فتستحيل كلّ ملاحظاتها إلى برامج تتابعية ترشد وترسم ما سيكون وفق عمليَّة نجد فيها تشاكل واضح ينضح بكلّ السِّياقات التي يكون حضورها فاعلًا ومؤثّرًا.

وعليه: تكون المساحة المطلوبة لهذه الفرضيَّات منتمية إلى الاتساع الذي يجب أن يكون، وهنا تظهر المدارات بأنواعها؛ كي تشغل حيزًا واضحًا في هذه المساحة التي تتّسع لكلّ الأطراف، أمَّا حدود هذه المساحة فهي مفتوحة كونها تريد أن تكون نهايتها مفتوحة؛ كي تتّسع لكلّ المفاجآت التي يمكن أن تحدث، لأنَّ الواقع يفيض بالمفاجآت؛ فتكون

معالجتها تدبّرًا غير منضوية تحت أيّ إدراج، ممّا يسمح لها باستقطاب الحلول التي تنقلها من واقعها التي هي فيه إلى واقعٍ جديدٍ يكمن فيه الانتشال المطلوب.

وعليه:

- تدبّر الحاضر هو تدبّر إشباع حاجات وليس تدبّر زمن.
- حُسن التدبّر من حُسن الإدارة.
- حُسن التدبّر يجوّد المنتج.
- حُسن التدبّر يمكّن من رسم السِّياسات الناجعة.
- تدبّر الحاضر يُمكّن من صناعة المستقبل.
- تدبّر الحاضر يمكّن من إحداث النُّقلة.
- تدبّر الحاضر يمكّن من تحدّي الصّعاب.
- تدبّر الحاضر يمكّن من مواجهة المفاجئات.
- تدبّر الحاضر يمكّن من إنجاز الأهداف.
- تدبّر الحاضر يمكّن من إيجاد الحلول.
- تدبّر الحاضر يمكّن من تحقيق الأغراض.
- تدبّر الحاضر يمكّن من بلوغ الغايات.
- تدبّر الحاضر يحفّز على نيل المأمول.

إذن: يوجد التصاق بين التدبّر الإنساني والزّمن الحاضر، أي لا تدبّر إلَّا حاضرًا، وهذا الأمر جعل من التدبير يدور في المعاجم التي تنتمي إليها الحلول الآنية التي لا يمكن معاودتها مرّة ثانية، لأنَّها لم تنتم إلى دائرة الثبات التحقّقي؛ فهي تزاول

نشاطها ضمن مساحات محدودة يدفعها الخوف باتجاهات ترتبط به وبدون أن يمنحها حقّ التراجع، لأنَّها في حقيقة الأمر لا تمتلكه؛ كونها تابعة للخوف بوصفه المانح لكلّ الرسوم التي تُسيّر الحلول في زمنها الحاضر وفقًا لما هو ممكن.

وهنا تباشر الشّخصيَّة المتدبِّرة وجودها من خلال الارتماء في حضن الواقع الذي يكون فيه المشكّل حاصلًا بكيفيَّة متوقّعة وغير متوقّعة؛ فتنبري الحلول المستدعاة تدبّرًا بتقنيات مختلفة؛ إذ تدور كلّها حول إيجاد حلّ سريع وملبّيًا للواقع، ويكون الزّمن مفتوحًا ضمن مدى يقصر وقد يطول بحسب الاحتياج المطلوب، فتتعالق عوامل متعدّدة ومتنوّعة تسهم بأشكال مختلفة من أجل الوصول إلى الحلّ المنشود أملًا.

والشّخصيَّة المتدبِّرة في حاضرها تبحث عن سُبل كثيرة تريد من خلالها الوصول إلى مبتغاها تدبّرًا، ويكتنف هذا البحث تبعات في حالة الحصول على المبتغى؛ يكون حسن التدبُّر موجّها للعقل ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع، فالمتوقّع يكون حافزه ليس بالكبير كونه حاصلًا وحدوده يمكن تبيانها ووضع علامات لها، وتكون مدعاة للتقييم، ومن ثمَّ تكون قابلة للرصدّ والتحليل وللتمثّل، إلَّا أنَّ غير المتوقّع تكون حدوده غير واضحة المعالم؛ فيكون الاستغراق الفكري حاضرًا في إيجاد افتراضات مستمرّة تحاول أن تجيب عن كلّ ما يُطرح، وهذا بدوره يخلق حالة من الارتدادات المعرفيَّة التي يكون فيها التسابق حاصلًا للوصول إلى كنف جديد يكون ملبّيًا للمراحل المرادة، فالانزواءت غير مطلوبة، والعبثية غير مطلوبة، والتوقّف غير مطلوب، والتسليم بما هو موجود غير مطلوب؛ ذلك أنَّ التدبّر يمرّ دائمًا بحالة من الحضور

المغاير ممّا يحمله على البحث عن كلّ ما يمكن أن يكون فيه الحلّ المرجو[146].

وعليه فإنَّ زمن التدبّر يكون فيه في دائرة الممكن الاحتواء على السّابق والتطلّع إلى ما يمكن أن يكون لاحقًا؛ ولذا فهو الحركة الممتدة من الماضي إلى المستقبل عبر بوتقة الحاضر.

ولذلك فالذَّاكرة تُصنع بقوّة الإرادة وقوّة العزيمة التي تخلق شخصيَّة قويّة متدبِّرة متحدِّية للصّعاب؛ فالشّخصيَّة القويَّة المتدبِّرة هي التي لا تغفل عن معطيات الزّمن الحاضر ولا تنغلق عليها، بل تتطلّع إلى ما هو آتي، كي تصنع مستقبلًا تتجاوز به الآخرين الذين سقطوا في ميادين المنافسة الحرّة كونهم من المستهلكين المتكئين على ظهور الغير انتهازيَّةً[147].

التأهُّب لنيل المأمول قيدٌ على الانتهازيَّة:

التأهُّب فطنة، هو: حسابات عقليَّة وبصريّة مع شدّة الملاحظة والتربّص بأيّ انتهازيَّة أو محاولة للتمدّد في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع مِن قِبل مَن أعدت له العدّة وتمّ التأهّب له مواجهة؛ فلتأهّب فطنة أمل تدفع إلى إنجاز ما يترك أثرًا يُمكِن قياسه، مع قبول دفع الثَّمن من قِبل المتأهّب كونه عن وعي يدرك ما تأهّب من أجله.

فالتأهُّب فطنة ووعي وإلمام بما يجب في الوقت الذي يجب أن يكون فيه، والمكان المخصّص له، مع مراعاة الظّرف الموضوعي من أجل سلامة التنفيذ، وسلامة المنفّذ حتى لا يجد الانتهازيَّون موضع رأس إبرة لانتهازيتهم.

---

[146] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 127 - 131.

[147] عقيل حسين عقيل، مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م، ص 213 – 227.

وللتأهُّب مفهوم لفظي علائقي مكوّن من المجموع القيمي لكلٍّ من:

- الانتباه، لِما يجب.
- الدِّراية، كيف يجب.
- اليقظة، حول ما يجب.
- الفطنة، لأخذ ما يجب.
- التحفُّز، تجاه ما يجب.
- الإصرار، عزم على ما يجب.
- الرّغبة، فيِ ما يجب.
- الحِرص، على سلامة ما يجب.
- الوعي، بما يجب.
- التيقُّن، تمسّك بما يجب.

ويُعدّ التأهُب مرحلة ما قَبل الفعل (أيّ فعل)، وهو مرحلة ما بعد الاستعداد المؤسّس على التهيّؤ والإرادة؛ فالمتأهّب هو الذي بيده القرار والأمر لتنفيذ الفعل بكلِّ حرصٍ في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فعلى سبيل المثال: عندما تستوجب المواجهة مع الخصوم يصبح التأهّب هو الذي يستوجب مرابطةً تستدعي أن يضع المرابط أُصبعه على الزّناد قبل أن تشتعل نار الحرب والاقتتال؛ قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}[148]، تحرّض هذه الآية على التأهّب وفقًا للاستطاعة،

[148] الأنفال 60.

ولهذا جاء قوله (ومن رباط الخيل) أي ما تستطيعوا أن تعدّوه من رباط الخيل فأعدُّوه، ولا ينبغي أن تستكثروا عدّتكم من رباط الخيل مهما كثرت؛ فبما أنَّكم تستطيعون إعداد أعدادٍ أكثر أعدّوا دون تردّد؛ وذلك لأجل تحقيق الهدف من إعداد العُدّة وهو إرهاب الأعداء المخيفين لكم عُدّةً وتهديدًا ووعيدًا، تصريحًا وتلميحًا.

وعليه: فالرِّباط هو الملازمة والمداومة التي بها يلازم الفارس وسيلته ويداوم عليها متأهبًا لخوض المعركة إن كُتبت عليه، سواء أكانت الوسيلة خيلًا أم أنَّها آلات حديثة ومتطوِّرة؛ ولذا فبالمرابطة تطوّق الحدود والحصون والقلاع والمعسكرات وتهدّد بالاعتداء إن ظهر اعتداء منها، وإذا ما تمَّ التفاهم والتفهُّم بين الأنا والآخر تحقّق الأمن والسّلام وساد السّلام بين النَّاس أقارب على الحدود، وأباعد من وراء البحار والمحيطات.

أمّا قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا}[149]، هذه الآية كريمة تدلُّ على أهميَّة قبول المعاناة في سبيل تحقيق السّلام بين النَّاس؛ ولذلك أمر الله عباده بالصّبر والمصابرة، أي: اصبروا على ما أنتم عليه حتَّى تعدّوا العدّة، وصابروا من أجل تحقيق فضائل خيّرة، ثمّ بعد ذلك تأهبوا بالمرابطة التي تُرهب أعداءكم.

فقوله: (وَرَابِطُوا) تواجدوا متأهِّبين مرابطين بعزمٍ وحرزٍ على صون الحدود وأمن البلاد أرضًا وشعبًا من الذين يهدّدون ويتوعَّدون ويشكِّلون خطرًا عليكم في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ ولذا لا ينبغي أن تغفلوا عن تأهّبكم وأعملوا على إظهار قوّتكم متأهِّبين أمام مشاهدة وملاحظة

[149] آل عمران 200.

عدوّكم لقوّاتكم التي أعددتموها لإرهابه لا للاعتداء عليه؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[150].

الاعتداء بدون شكٍّ هو ظلم في غير طاعة الله الذي نهى عن الاعتداء على النَّاس بقوله: (وَلَا تَعْتَدُوا)، ولكن إن أعتدي عليكم؛ فعليكم بالاعتداء على من اعتدى عليكم، وليكن اعتداء مماثلًا لِمَا اعتُدى به عليكم؛ والقصد من ذلك اعتدوا على من يعتدي عليكم ولكن بدون أيَّة انتهازيَّة: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[151].

ولذا فإنَّ إظهار القوّة والمتأهِّبين بها على ظهور الخيل أو الدّبّابات والطّائرات والعربات والمعدَّات المتطوّرة ضرورة استعراضيَّة أمام مشاهدات وملاحظات الأعداء والأصدقاء؛ وذلك لأجل أن يُرهَب بها الأعداء؛ فيحسبوا حِساباتهم إن فكّروا في الاعتداءِ ظلمًا.

إذن (رابطوا) تحتوي في مضمونها ومفهومها ضرورة استمرار التأهُّب دون انفكاك عن المرابطة حتَّى ينتهي من أذهانكم كلّ ما يخيفكم من أعدائكم.

ولكن إذا راء العدو تأهّبكم بالعُدّة الحربيّة والقتاليّة والخيل التي قد تأهَّبتم على ظهورها ورابطتم بها، ثمّ اعتدى عليكم بالمقاتلة؛ فعليكم بمقاتلته، وفي المقابل إن جنح للسّلم فاجنحوا لها: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا}[152]، أي وأنتم أقوياء، وأراضيكم غير محتلّة، ولا مهجّرون؛ فإن جنح المعتدون للسّلم فاجنحوا لها إرادةً وتهيؤًا واستعدادًا وإعداد عدّة وتأهّبوا

---

[150] البقرة 190.
[151] البقرة 194.
[152] الأنفال 61.

بالقوّة، ومن لا يمتلك القوّة يجد نفسه غير مقدّرٍ ولا معتبر، وهو معرّض للقتل أمام المتوقّع وغير المتوقّع بين صدمة ورُعبة.

ومع أنَّ التأهّب يؤدّي إلى المرابطة واستعراض القوّة التي تمّ إعدادها والاستعداد بها، فإنَّه من حيث المفهوم هناك فرق دلالي بين إعداد القوَّة، وإعداد رباط الخيل من حيث:

ـ قوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) إنَّ القوّة قد يتمّ إعدادها، ولكنَّها قد لا تُحقّق إرهابًا للعدو إذا لم يعلم العدو بها ويشاهدها بأمِّ عينيه؛ فعندما تُخزّن الأسلحة والعتاد المتنوّع والمتعدّد ولا يتمّ إظهاره استعراضًا، قد يظنّ البعض أنَّك لم تمتلك القوّة التي تُرهبه؛ فيعتدي عليك انتهازيَّةً ظلمًا وطمعًا ويفاجئك بالقتال ويُجبرك على مقاتلته.

ـ أمّا قوله تعالى: (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) إظهار القوّة عُدّةً وعتادًا وفرسانًا وخيلًا وتنظيمًا وتأهُّبًا، ولهذا رباط الخيل هي التي لولاها لكان السّلاح مخفيًّا في المخازن، ولكن بها ظهر أمام الملأ لتؤدَّى به رسالة مفادها (لقد أعددنا العُدّة، وامتلكنا القوَّة، ونحن الآن مستعدّون عن إرادة، ومتأهّبون لخوض المعركة؛ فخذوا حِذركم، وفكّروا قبل أن تقرّروا عن غير بيّنة، نحنُ نمتلك القوّة المتعاظمة، ولكنَّنا لا نرغب قتالكم ولا الاعتداء عليكم، ولقد أعذر من أنذر).

إذن: التأهُّب والمرابطة دليل إثبات أنَّ الأمر لم يعد هيّنًا؛ فخذوا حذركم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ}[153]، أي تأهّبوا تيقّظًا وانتبهوا واحترزوا العدوَّ كي لا ينال منكم شيئًا؛ فإن غفلتم واسترخيتم وألقيتم سلاحكم فلا تستغربوا أن يغدُر بكم أو يتمّ الاعتداء عليكم ظلمًا؛ فخذوا حِذركم بكلِّ جديَّة؛

[153] النساء 71.

فالأمر لم يعد هيّنًا، وإن أخذتموه مأخذ الجدّ فإنَّ الخصم أو العدوّ سيأخذه مأخذ الجدّ أيضًا، وإن أخذه مأخذ الجدِّ جعل لكم اعتبارًا يدفعه إليكم جانحًا للسّلم الذي يستوجب منكم الجنوح إليه وفقًا لقاعدة قبول التحدّي وقبول السّلام.

وكما أنَّ إعداد العُدّة حقّ لمن هو خائف من المخيف المرهب وهو الذي لا يُقدِّر ولا يَعتبر الآخرين؛ فكذلك التأهّب بالمرابطة هو استعراض قوّة، وغايته نيل التقدير والاحترام.

والتأهّب هنا هو تَوفُّر العزم مع وافر الإصرار على الإقدام على تنفيذ الفعل مع ترقُّب شديد ورصد للحركة والسّكون ممّا يجعل الأصبع على الزّناد استعدادا للرّمي في زمن الانقضاض.

فالتأهّب يؤجّج في نّفس الشّخصيَّة المتأهِّبة حرارة الانقضاض والاندفاع تجاه الهدف دون خوف ولا تردّد مع بلاءٍ واستماتة على الإنجاز في الوقت المحدّد للتنفيذ خوفًا من التأخير الذي فيه تكمن المفاجئات؛ ولذلك دائمًا لا للاستعجال لا للانتهازيَّة، نعم للإسراع دون التسرُّع وعيًا ودرايةً.

ولذا فإنَّ التأهُّب الموجب يملؤه اشتياق الفاعل للحظة الانقضاض ورمي الهدف؛ فالرّامي عندما يكون متأهّبًا تكون مشاعره وأحاسيسه منصهرة في بوتقة الفكر لفعلٍ قابلٍ لأن يُفعل والشّك من ملكاته منتزع انتزاعًا.

فذلك الصّحفي العراقي الذي رمى الرّئيس الأمريكي جورج بوش بنعليه في بغداد في 14 سبتمبر 2008م، لو لم يكن متأهِّبًا للرّمي ما رماه أمام أعين النَّاس وعلى شاشات التلفاز وأمام حرَّاسه وحرَّاس حرَّاسه والمدجَّجين والصّحفيين الذين هم في محيطه يتساءلون مع الرّئيس الأمريكي عمَّا

حدث في العراق وعمَّا يحدث من رمي الرّامي في المؤتمر الصّحفي الموقَّر.

ولذا فالشّخصيَّة المتأهبة للشّيء بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد تستطيع أن تُنفِّد ما تشاء كيفما تشاء بحذاء أو بعكازٍ أو حتى بمسبحةٍ أو ساعة يد أو أن يبصق على من يشاء، دون أن ينتظر رأيًا أو توجيها من أحدٍ.

ومع أنَّه أعطيت للصَّحفي العراقي فرصة المشاركة في المؤتمر الصّحفي فإنَّه لم يستثمرها في أوجهها الموضوعيَّة، بل استغلّ تواجده هناك انتهازيَّةً لغير ما لم يسمح به قانونًا؛ ولذا فإنَّ إعطاء الفرصة لا يكون إلَّا للمسموح به، أمَّا الخروج عنه فلا يعدّ إلَّا انتهازيَّةً.

ومع أنَّني أعرف أنَّ المتحمّسين لذلك الفعل لا يرونه إلَّا حقًّا مرضيًا فأنَّني من زاوية إيضاح مفهوم الفرصة والانتهازيَّة فلا نراه إلَّا انتهازيَّةً.

ولأنّ لكلّ فعل ردّة فعل؛ فبدون شكّ سيكون للتأهّب تأهّب إن تمّت المعرفة، ولكن إن لم تتوفّر المعرفة فستكون المفاجآت سيدات الميدان والحاسمات للأمر.

ومن هنا فالتأهّب يعدّ منبع أمل لمن استعدّ وأعدّ وتهيأ لأداء الفعل المحقّق للأمل الذي طال زمن انتظاره؛ فالتأهّب للفعل يُمكّن من الإنجاز والنجاح وبلوغ الغايات التي لا تبلغ عملًا إلَّا بحيويَّة الأمل.

فالشّخصيَّة المتأهّبة على مستوى المسؤوليَّة هي التي أصبحت مستعدّة حيال إنجاح مهمّة من مهامهما المناطة بها، ولكنَّها في كثير من الأحيان لا تستعدّ لغير المتوقّع ممّا يجعل

المفاجئات تتكرّر أمامها على الرُّغم من الاستعداد والعُدّة والعتاد.

ولذا فالتأهُّب قرار في زمن الأخذ به يُعدّ ساري المفعول في جعل العُدّة تحت أمر المتأهّب غير منقوصة، بل مُفعّلة للاستخدام متى ما شائها أن تكون متلازمة الحركة والوظيفة مع حركته في أثناء المرابطة الميدانيّة. وبأسباب التأهّب الإرادي يصبح المتأهّب متحمّلًا للمسئوليَّة وما يترتّب عليها من أعباء جسام.

ولأنَّ التأهّب سلوك ظاهر؛ فهو القابل للمشاهدة والملاحظة، ولهذا جاءت المرابطة أمرًا ظاهرًا فيها تتوحّد العُدّة والخيل والمرابطة بها؛ ليكون التأهّب الظاهر إنذارًا وتحذيرًا بالعُدّة والعتاد والإرادة والاستعداد والخيل والفرسان، وهكذا كان الأمر في زمنه، أمَّا في زمننا اليوم فالقوّة متطوّرة ومتنوّعة ولكلّ عصر قوّته وفرسانه، وفي جميع الأزمان الغرض هو إرهاب العدوّ كي لا يعتدي وليقف عند حدّه، وفي حالة اعتدائه تكون المواجهة بالنّسبة إليه ليست هينة؛ ممّا يجعل النِّهاية بين الأطراف تفاوضًا ومصالحةً وتفاهمًا بالقوّة.

وفي كلتا الحالتين يُعدُّ إعداد العدّة إرهابًا من أجل القضاء على الخوف وأسبابه المخيفة.

ويُفهم من قوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قوّة وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) أنَّ (العدّة والخيل والمرابطة) معطيات مُرهبة، ولكنّها لا تخيف، بل الذي يُخيف هو (الإنسان) الذي يُفسد في الأرض ويسفك الدّماء فيها بغير حقّ.

ولذا فالمرابطة هي إعلان حُسن النيّة من قِبل الذي يمتلك القوَّة، والغاية من ورائها تحقيق السّلام، وليس الإفساد في

الأرض وسفك الدّماء فيها بغير حقّ. إنَّها إعلان قبول التحدّي من أجل التخلّص من الخوف إلى الأبد، ولكن إن كان هناك إصرار وعدم تقدير للموقف وظنُّ الخصم أنَّ المغلوب على أمره لا يستطيع النّهوض والتحدّي؛ فقد تكون المواجهة ضرورة لقياس القوّة غير المتوقّعة، ممّا يجعل للمقاتلين في الميدان الكلمة الفاصلة في تحقيق معادلة فرض مبدأ التقبُّل بين الأنا والآخر، ويكون الحلّ هو الاعتراف المتبادل.

وعليه فإنَّ النّصر لا تُحقّقه المعدّات الحربيَّة مهما تطوّرت، بل النّصر عبر التَّاريخ يحقّقه من يقرّر مع التنفيذ أنَّ قبول الموت في الميدان هو المطلب الرّئيس، ولهذا الشّعوب التي حرّرت أراضيها حرّرتها بهذا القرار حتَّى ولو اتخذت سلاحها الحجارة.

إذن التأهّب استجماع القوّة مع وافر الانتباه وأخذ الحيطة والحذر من المفاجآت القابلة للانتهاز في سبيل تحقيق النّجاح أو الفوز عند القيام بأداء واجب، ويعدّ التأهّب حيويّة الإقدام على الفعل والوقوف على أعتاب ما ينبغي القيام به عملًا أو سلوكًا.

ولهذا فالتأهّب نتاج الفكرة مع اختيار ورغبة تُحفّز على الإقدام (الموجب أو السّالب) متى ما تهيأت ظروفه للإقدام، ومن ثمّ فهو ولادة الحيويّة تجاه إنجاز الأهداف أو تحقيق الأغراض، أو بلوغ الغايات، أو نيل المأمولات.

ولذا فالمأمول هو الباعث الذي ولّده الأمل فكرة حتى أصبح شيئًا يتم بلوغه ونيله؛ ولأنَّه مولود الفكر فهو للآملين مثل الوليد للآباء رعاية وعناية، وحرصًا وعملًا جادًّا. ومن أجله تحشّد الإمكانات وتبذل الجهود بغاية بلوغه ثمّ نيله والحفاظ عليه حفاظا على مولود من الأصلاب، دون أن يوقف

الإنجاب من بعده؛ فالابن دائمًا في حاجة لأخوة، والآباء في حاجة للأبناء رحمة، وهكذا المأمول يتولّد من الفكرة والمشاهد مأمولًا من بعده مأمول.

ومن هنا فالمأمول لا ينجبه الانتظار، بل ينجبه الفكر المنظّم والعمل الجاد؛ فالانتظار لا عمل، ولا عمل يساوي نتيجة صفريَّة؛ ولهذا فالمأمول لم يكن المنتظر، بل المتوقّع كما هو. فإذا جعلنا المأمول منتظرًا؛ فلا داعي للعمل؛ فهو المتوقّع الذي حُددت الأهداف من أجله، وَوَضَحت الأغراض والغايات من ورائه، ورسمت الخطط والاستراتيجيَّات المؤدّية إلى نيله.

ولأنَّ المأمول لم يكن المنتظر؛ فهو أيضًا لم يكن المرتجى؛ فالمرتجى لا سبيل لبلوغه إلَّا من خلال الغير، الذي قد لا يستجيب لمطلب ولو توسّل المتوسّل، أمَّا المأمول فلا انتظار ولا توسّل إلَّا لله تعالى، إنَّه الاعتماد على النَّفس وما تبذله من جهد منتج ومدى توافر الإمكانات.

والمأمول لم يكن الجهد المبذول، بل ما يبذل من الجهد من أجل نيله (إنّه المترتب على الجهد الذي أنتجه شيئًا ملموسًا) فالفلّاح على سبيل المثال: يحرث ويزرع وأمل الحصاد لا يفارقه، ولسائل أن يسأل:

لم لا يكون الحصاد مأمولًا؟

أقول: الحصاد جهد يبذل، وهو أمل الفلاح، أمّا مأموله فهو أن ينال إنتاجًا وافرًا. فإن كان وفيرًا نال مأموله، وإن كان غير ذلك فسيكون موسمه درسًا له لمواسم أكثر أملًا.

وعليه:

الأمل يحرّك الآمل ويدفعه، ونيل المأمول يطمئنه ويحفّزه على المزيد؛ فالآمل لا يقنط، والحياة الدُّنيا بالنسبة إليه مدرسة يجب أن يكون فيها ناجحًا ومتميّزًا إن أراد أملًا أعظم في حياة أعظم.

والمأمول وإن صعب نيله؛ فنيله ممكنٌ، شريطة القيام بعملٍ موجبٍ، مع صبر على بذل الجهد والمثابرة، ثمّ ملازمة تحدّي الفشل مع تحدّي الانتهازيين، ولذا فإنَّ الفشل لا يكون إلَّا بأيدي اليائسين، وأصحاب الإرادة المنهزمة؛ ولذا فمن له عقل مُدري لا يليق به ألَّا يستثمره ويوظّفه فيما يفيد شخصه ومن لهم علاقة به؛ فالذي اختار أمله غزو الفضاء، قد اختار الصّعب تحدٍّ، فبلغ الفضاء غزوًا ومأمولًا، ومن ثم ثبت لنا أنَّ الصّعب لا يصمد أمام المتحدّين، أي إنَّ الصّعاب لا تستسلم إلَّا على أيدي المتحدّين لها؛ ولذا فَلِمَ لا نتحدّى؟

والمأمول يتعدّد ويتنوّع وفقًا للحاجة والمطلب، وهو لا يُبلغ إلَّا عن إرادة وجهد يبذل مع القبول بدفع الثَّمن، وقد يكون المأمول خاصًّا وفقًا للحاجة والشَّهوة وهو كثير، وقد يكون عامًّا كونه مأمولًا عظيمًا، وكلّ مأمول عام فيه منافسة، وقد يكون عليه الصِّراع، فرئاسة الدّولة مأمولة عند الكثيرين، والمنافسة الحرّة وفقًا للدّستور وحدها الحاسمة، ولكن لا يمكن أن يكون رئيس للبلد إلَّا فائزًا واحدًا؛ ومع ذلك البعض قد يحترم نتائج الدَّستور والبعض قد لا يحترمها؛ فتنقلب المنافسة الحرّة إلى صراع دام، وهنا تكمن العلّة، وقد تحدث الانقلابات على الدّساتير انتهازيَّةً، وهذه في معظمها أساليب لا تُحترم عند أهل الحضارة والثقافة والقيم الرّفيعة.

ولأنَّ الانقلابات لا تكون إلَّا انتهازيَّةً وكرهًا؛ فهي تحمل عناصر فنائها فيها ممّا يجعل بعد كلّ انقلاب انقلابات من بعده.

والتعليم مثال آخر على المأمول العام: فهو مع أنَّه عامّ، فإنَّه لا يكون على حساب أحد، وفيه يتنافس المتنافسون.

أمَّا الفوز بالجنة فيعد المثال الأعظم للمأمول العام، ومع أنَّها مأمول عام، فإنَّ بلوغها والفوز فيها لا يكون إلَّا خاصًّا؛ لأنَّ نيلها نيل مكانة، مكانة تستوعب الجميع دون أن يكون أحد على حساب آخر؛ وهنا لا مقارنة بين مكانة رئاسة الدَّولة التي لا تشغل إلَّا مفردة، ومكانة أعظم تستوعب ما خُلق مأوى ونعيم ومتعة؛ ولهذا فالجنَّة مأمول ولم تكن أملًا، فالأمل مولود الفكرة، أمَّا الجنة فخلق الخالق، وهي متاحة لمن يشاء ويعمل من أجل نفسه ونيلها فوزًا مع الفائزين.

ومع أنَّ المأمول عام (الجنَّة)، فإنَّه لا يتم نيله إلَّا بجهدٍ خاصٍّ؛ لأنَّ العلاقة بين المخلوق المجازَى بها والخالق المجازي بها علاقة خاصّة.

أمَّا إذا كان المأمول عامًّا والمطلب أيضًا عامّاً؛ فالمثال الذي يمكن سوقه افتراضًا: أنَّ دولة ما قد تمّ احتلالها من الأجنبي، ففي هذه الحالة لن يكون لمواطنيها مأمول إلَّا تحريرها، ومن هنا يصبح المأمول العام مطلبًا عامًّا؛ ولا أمل للشّعب كلّه إلَّا تحرير وطنهم، فيعملون كلّ ما هو ممكن حتى يتحرَّر كما أملوه مأمولًا.

وهناك ما يماثل هذه الأمثلة، من حيث إنَّ المأمول جمعيًّا والنّوايا فرديَّة؛ كالقيام بفريضة الحج المأمولة من المسلمين، غير أنَّ تأديتها لا تؤسّس إلَّا على النيّة، وهذه لا تكون إلَّا فرديَّة وكأنَّ الفرد حاج بمفرده، فينوي بنفسه حجًّا، ثمّ يتقدّم

مع الحجيج لأداء الأركان الأخرى، ومن هنا يندمج الأنا في الذّات العامَّة استقامةً.

ولسائل أن يسأل:

أين الأمل في هذه المثال؟

أقول: الأمل: تلك الحيويَّة التي هيَّأت المسلم لإعداد العدّة استعدادًا وتأهّبًا حتى قام بأعمال الحج وناله من بعد غاية.

والآمل: المسلم المقدِم على أداء فريضة الحج.

أمّا المأمول: القيام بالفريضة على أتم وجه.

فالحج مع أنَّه مأمول عظيم لدى المسلمين؛ فإنَّه يعد عملًا يجب القيام به من أجل مأمول أعظم، (الجنَّة)؛ حيث النعيم الدّائم. أي إنَّ المسلمين يميزون بين النّعمة والنَّعيم؛ فهم يعرفون أنَّ الدُّنيا بيت النِّعم المتعددة والمتنوّعة، وأنَّ الآخرة بيت النَّعيم الدّائم. وللتمييز: النّعم فيها الأذواق تتعدّد وتختلف وتنقطع، أمَّا النَّعيم لذة دائمة لا تنقطّع، ولا يختلف عليها ولا يتخالف. أي إنَّ الجنَّة فيها النَّعيم بذاته، أمَّا الدُّنيا فيها النّعم تتحوّل فضلات.

ونن هنا فالفرق كبير بين النَّعيم لذّة لا تنقطع ولا تنقص ولا تنتهي ولا يتعفّن نعيمها ولا يترك زبالة تشمئز الأنفس من رائحتها النتنة. ولذا فإنَّ المأمول المطلق: الفوز بنعيم الجنَّة، أمَّا ما دونه فهي مأمولات في دائرة الممكن؛ ولهذا فالمأمول هو المقصود في ذاته دون سواه، ليتم نيله استجابة لأمل عن رغبة، سواء أكان نسبيًّا أم مطلقًا.

ومن ثمَّ فالمأمول لا يكون إلَّا معلومًا، والقصد إليه ثابتًا، وإن أخذ العمر كلّه، فالمهم أن يبلغ وينال؛ فساعة نيلة وكأنَّه

لم يقض ما انقضى من وقتٍ، وساعة نيله وكأنَّه كان غير متوقّع على الرّغم من توقّعه.

المؤلِّفُ في سطورٍ

ـ أ د. عقيل حسين عقيل

ـ مواليد ليبيا 1953م

ـ بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الترتيب الأوَّل جامعة الفاتح (طرابلس).

ـ معيد بكليَّة التربية طرابلس قسم الخدمة الاجتماعيَّة 1977م

ـ ماجستير تربية وتنمية بشريَّة، الولايات المتحدة الامريكيَّة (جامعة جورج واشنطن) 1981م مع درجة الشّرف.

ـ دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة 1992م.

ـ أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

ـ شغل منصب أمين عام اتحاد الطلبة بمحافظة سبها 1970 – 1972م.

ـ شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 - 1990).

ـ انتخب من قبل مؤتمر الشَّعب العام مفتشا عامًّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلِّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

ـ شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرًا) 2007 - 2009م.

ـ انتخب أمينًا عامًّا للتنمية البشريَّة بأمانة مؤتمر الشَّعب العام 2009م.

ـ صدر للمؤلّف 92 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

ـ صدر له (210) مؤلّفا منها سبعة موسوعات.

ـ أشرف وناقش 83 رسالة ماجستير ودكتوراه.

ـ مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 ـ الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشريَّة.

2 ـ طرق البحث الاجتماعي.

3 ـ الفكر والسياسة.

4 ـ الإسلاميات.

5 ـ الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: https://draqeel.com/

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف الدّكتور عقيل حسين عقيل: 92 بحثا نشرت داخل ليبيا، وخارجها.

صدر له (210) مؤلَّفًا منها: سبعة موسوعات، وهي:

1 ـ الموسوعة القِيميَّة لبرمجيَّة الخدمة الاجتماعيَّة (4 مجلَّدات)، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

2 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض (11 مُجلَّد)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

3 ـ موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن (9 مجلَّدات)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

4 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن (12 مجلَّد)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

5 ـ الموسوعة من قيم القرآن الكريم (13 مجلَّد)، شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

6 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة (27 مجلَّد)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

7 ـ موسوعة الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (18مجلَّد).

أشرف، وناقش 83 رسالة ماجستير، ودكتوراه بالدَّاخليَّة والخارج.

ـ مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 ـ الخدمة الاجتماعيَّة، والتنمية البشريَّة.

2 ـ طرق البحث الاجتماعي.

3 ـ الفكر والسِّياسة.

4 ـ الإسلاميَّات.

5 ـ الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلَّفات باللغة الإنجليزيَّة، والتركيَّة.

المؤلَّفاتُ المنشورة

1 ـ مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 ـ الأصول الفلسفيَّة لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3ـ فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 ـ منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 ـ سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 ـ المفاهيم العلميَّة دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربيَّة للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 ـ البُستان الحُلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 ـ التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 ـ الدِّمقراطيَّة في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا،

2001م.

10 ـ نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 ـ خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 ـ منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 ـ خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 ـ خدمة الجماعة رؤية قيميَّة معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 ـ البرمجيَّة القِيميَّة لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 ـ البرمجيَّة القِيميَّة في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 ـ البرمجيَّة القِيميَّة في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18ـ الموسوعة القِيميَّة لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 ـ البرمجيَّة القِيميَّة في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 ـ مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 ـ المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 ـ آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

29 ـ نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

30 ـ إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

31 ـ إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

32 ـ شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

33 ـ يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

34 ـ داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

35 ـ يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

36 ـ أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

37 ـ موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

38 ـ عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

39 ـ محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

40 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 ـ موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 ـ التَّطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 ـ ألسنا أمة وسطا، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

53 ـ المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

54 ـ الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 ـ الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 ـ سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 ـ خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقَّع وغير المتوقَّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تدبُّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 ـ من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 ـ الرَّفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 ـ تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 ـ ربيع النَّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 ـ موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 ـ أسرَّار وحقَّائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 ـ وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 ـ ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 ـ العزل السّياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 ـ السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 ـ الهويّة الوطنيَّة بين متوقَّع وغير متوقَّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 ـ العفو العام والمصالحة الوطنيَّة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 ـ فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 ـ بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 ـ من معجزات الكون (خَلق ـ نشوء ـ ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 ـ مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 ـ آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 ـ إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 ـ نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 ـ

90 ـ هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 ـ صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 ـ لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 ـ إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 ـ إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 ـ إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 ـ يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 ـ يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 ـ شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 ـ أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100ـ ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 ـ يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 ـ موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 ـ هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 ـ إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 ـ اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 ـ داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 ـ سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 ـ زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 ـ يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 ـ محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 ـ الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 ـ صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 ـ الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 ـ مبادئ التنمية البشريَّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 ـ من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 ـ التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 ـ منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 ـ الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 ـ المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 ـ تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 ـ الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 ـ مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 ـ المعلومة الصَّائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 ـ الممكن (متوقَّع وغير متوقَّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 ـ مبادئ فكّ التَّأزُّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 ـ الأهداف المهنيَّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 ـ تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 ـ العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 ـ غرس الثِّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 ـ مفاهيم الصَّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 ـ الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميَّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 – كيفيَّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيميَّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشريَّة (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 ـ مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث الثُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 _ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 _ التَّطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 _ البحث العلمي (المنهج والطَّريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 _ العدل ينسف الظُّلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 _ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 _ القوَّة تفكّ التَّأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 _ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 _ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

147 _ نحو النظريَّة خلقا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 _ نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

149 _ نحو النظريَّة ارتقاء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

150 – الخلاف (في دائرة التَّاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

151- القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: دار القاضي، 2220.

152 – قواعد البحث للعلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، 2020م.

153 – خطوات البحث العلمي وصناعة الأمل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

154 – المنهج العلمي وإحداث النُّقلة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

155- دراسة الحالة ودور الأخصائي الاجتماعي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

156- قواعد البحث العلمي وصنع المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

157- وسائل التأهب للبحث العلمي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

158- حلقات صناعة المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

159- أمحمَّدٌ أميٌّ، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

160- طرق البحث العلمي ونيل المأمول، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

161- الطَّريقة العلميَّة لتحليل مضمون القيم، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

162-كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

163- معجزات وبعضها من بعض، المصرية، القاهرة: 2022م.

164 ـ أيد السارقِ تقطع، المصرية، القاهرة: 2022م.

165 – العقل من اللاشيء إلى الشَّيء دراية، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

166 – النُّقلة من التكيف إلى التوافق، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

167 – أوهام الأنا (اللاهويَّة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

168 – استرداد السِّيادة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م

169 ـ موت الموت، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

170 – العقل قيد (من الأمّية إلى الاستنارة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

171 – الرِّجال القوامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

172- الدِّراية من الأمر إلى الطاعة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

173- النشوز والقيم القوَّامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

174 – استطلاع الدراسات السَّابقة (من حيرة الباحث إلى نيل المأمول)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

175 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (قواعد ومبادئ)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

176 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة، (غرسُ ثقة، تحدّي صِعاب، إحداثُ نُقلة)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

177 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الدَّور المهني للأخصائي الاجتماعي)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

178 – الخدمة الاجتماعيَّة النّاهضة (من التكيُّف إلى صنع الأمل)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

179 – الخدمة الاجتماعيَّة النّاهضة (مجالاتها عمليَّاتها وسائلها)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

180 – الشَّخصيَّة (من الترجّي إلى التحدي)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

181 – الشَّخصيَّة الليبيَّة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

182 – الشَّخصيَّة المتهيّأة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

183 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (دراسة الحالة من النشوز إلى قطع اليد)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

184 – الشَّخصيَّة المتأهِّبة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

185 – الانحراف من النّشوز إلى الضَّرب، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

186 – التدبُّر، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

187 – التفكير (من التذكُّر إلى التَّفكُّر)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

188 – الاستنارة (من الاستظلام إلى الاستجلاء)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

189 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (من إنجاز الأهداف إلى نيل المأمولات)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

190 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (المستويات القِيميَّة للتحليل العلمي)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

191- الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الأهداف المهنيَّة وإحداث النُّقلة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

192 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (تحدي الصِّعاب يمكن من بلوغ الغايات)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

193 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (من الإرادة إلى تفعيل المشاركة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

194 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (التطرف بين المعلومة الخاطئة والمعلومة الصَّائبة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

195 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (كيف تصنع أملا)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

196 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الخوف استطلاع مستقبل من التذكُّر إلى التَّفكُّر)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

197 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (مجالات مهنة واستنارة عقل)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

198 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (المبادئ القِيميَّة لرعاية الأفراد وتنظيم المجتمع)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

199 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (طرق متساندة مترابطة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

200 – موسوعة الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

201 ـ الشَّخصيَّة الوطنيَّة الليبيَّة (سيادةً وهويَّةً)، دار النخلة للنشر، طرابلس: 2023م.

202 - أرسول ويغزو؟!، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

203 ـ الخلق من العدم إلى الاستخلاف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

204 ـ الفضائل مصادر النِّعم، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

205 – الصّبر مفتاح التحدّي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

206 – السيادة الوطنية إرادة وهوية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

207 – الفِكْرُ بين قضيَّة عقليَّة وأخرى، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

208 – العقل بين وهمٍ واستنارة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

209 - الإرادةُ تُمكِّن مِنْ نيلِ المأمول، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

210 ـ الانتهازيون لا ينتظرون فرصة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.